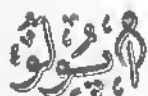


المراقى والدراسات

١٢٦٥	بقلم أحمد محرم	حافظ ابراهيم في الميزان
١٢٩٨	نظم خليل مطران	مرثية مطران لحافظ
١٣٠٦	بقلم أحمد الشايب	حافظ في رأى مطران
١٣١١	» عبد العزيز البشري	حافظ ابراهيم — ناحية من آراء في الأدب
١٣١٥	» حسن الخطيم	حافظ ابراهيم بين ظرفه ومجونه
١٣١٩	» الدكتور زكي مبارك	حافظ واللغة الفصيحة
١٣٢٢	» عبد الوهاب النجار	صفحة مبهولة من حياة حافظ
١٣٢٥		مثال من خط حافظ
١٣٢٧	» ابراهيم عبد القادر المازني	حافظ لسان عصره
١٣٢٨	نظم مختار الوكيل	موكب الذكريات
١٣٣٥	بقلم داوود بركات	حافظ كما عرفته
١٣٣٩	» ابراهيم دسوقي أباطة	» » »
١٣٤٦	بقلم نظمي خليل	حافظ الرجل وحافظ الشاعر
١٣٥٢	» المهدي مصطفى	حافظ فنان كما يجب
١٣٥٥		مختارات من شعر حافظ
١٣٦٢	» أحمد أنور الجندي	ناحية في حافظ
١٣٦٤	نظم حاصر محمد بحيري	مضى العام والذكرى . . .
١٣٦٦	بقلم طاهر محمد أبو فاشا	حافظ في كفتي البؤس والمجاعة
١٣٧٠	» محمد سعيد السجراوي	بداهة حافظ
١٣٧٢	نظم مؤيد ابراهيم إيراني	حافظ الخالد
١٣٧٣	» المهدي مصطفى	في مماء الفن
١٣٧٣	بقلم ميشيل سليم كميد	تشكرك سورية يا حافظ ا
١٣٧٧	» بشري السيد أمين	المدح والشكوى والرائه في شعر حافظ
١٣٨٢	» أحمد محمد عيش	سيرة حافظ
١٣٩٤	» طلبة محمد عبده	الشاعر البائس
١٤٢٤	» الآنسة زينب سليم	المرأة في شعر حافظ



الحادي عشر العدد



حَجَلَةٌ فِيهِ رُحْمَةٌ لِّلشَّيْءِ لِي



2. 2

عدد خاص

بذکری المغفور له

محمد حافظ ابراہیم خان



1932-1971



مصلحة التعاون





شاعر الوطنية المصرية

محمد حافظ إبراهيم بك

(من ريشة الفنان المصرى محمد حسن بدوى)



في الحادى والعشرين من يولية سنة ١٩٣٢ م . ودّع شاعر مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم أنفاس الحياة الدنيا فذهب بذهابه أعلى صوت وطنى عرفته مصر من فوق منبر الشعر .

وقد أصدرت زميلتنا (السياسة) في ٢ سبتمبر من العام الماضى عدداً خاصاً به كما عُنيَت الصحف والمجلات والجمعيات الأدبية في العالم العربى بدراسته وتأيينه أسابيع متوالية ، الى أن رُفِعَ العالم العربى بنعى شاعر العربية الأشهر أحمد شوقي بك في الرابع عشر من سبتمبر الماضى فباتت خجعة العربية مزدوجة بوفاة علمين من أشهر أعلام الشعر العربى في عصره الحديث ، واهتمت الصحافة العربية بأداء واجبها الادبى نحو ذكراهما . وقد أصدرت هذه المجلة عددها الخاص بذكرى شوقي في ديسمبر الفائت ورأت من أقدس الواجبات عليها إصدار هذا العدد الخاص بذكرى حافظ لمروور سنة على وفاته .

ولحن لا نحب التكرار كما لا نغنى بما غنى غيرنا بقتاوله من الدراسات السابقة فجعلنا كل مجهود هذا العدد جديدة خاصة بهذه المجلة ، وبذلنا جهدنا في الاختيار وتخلّينا عن مألوف الرثاء شعراً ونثراً قانعين بالجديد المقيّد أو بالنقد الجدى المتع .

وكيفما كان الحكم الفتى على شعر حافظ فلا يمكن لأية جمعية شعرية تحترم نفسها الا أن تحفل بذكره — ذلك لأن حافظ يمثل حلقة قوية من حلقات الاتصال والتقدم في تاريخ الشعر المصرى بل في تاريخ الشعر العربى ، كما أنه كان اللسان الفصيح لآمال مصر وآلامها في زمن نفث فيه العى والجبن بل البكم بين الشعراء ، وحسبك من شاعر أن يكون لسان أمته المبين في مثل تلك الظروف ، وليس من الانصاف أن تكتفى بوزن شاعر وزناً مطلقاً ولا تزنه وزناً نسبياً . ليس من الانصاف مثلاً أن تنسى ظهور البارودى في زمن نفث فيه الأمية والروح العامية والضعف اللغوى ، وضاعت ملكة البيان الشعرى ، فظهر ذلك

الشاعر المتفوق التقليدي ليعيد للأدب الشعري مجده القديم وليستلهم عليه حافظ وأنداده . وإذا كنا نحن الشعراء المحدثين لا يرضينا روح التقليد المضيق للشخصية الفنية ، فهذه أن ننسى فضل أعلام المحافظين أمثال البارودي وشوقي وحافظ في استرجاع الثقة الأدبية لاستئناف سير القافلة بعد وقوفها على هذا الأساس تكبر مجهودات الاعلام السابقين من شعرائنا وإن أصبحت في ذمة التاريخ وما لها في الغالب أن لا تكون لها أكثر من صفة أكاديمية لا أثر من الآثار الأدبية التاريخية . كلن حافظ فليسوفاً اجتماعياً وسياسياً بملiquته ، وكان خبيراً بالرجال بعيد النظر ، ولذلك كان موفّقاً في أكثر من موقف كشاعر زعيم ، ولكن الطبيعة هيأته ليكون في الأكثر ترجيحاً لأمنه ، وقد أحسن التعبير عنها أيّما إحسان ، وكان جريئاً كل الجراءة في تعبيره كلما أُتيح له ذلك . وبعد هذا كان حافظ شاعر العروبة ، وكان لا خلاصه أثر بعيد في إحياء روح التأخي والتعاون بين أبنائها ، وعلى الأخص بين المصريين والسوريين .

وقد عيب على معظم الشعراء أنهم ينزعون إلى القديم وينظرون دائماً إلى الخلف ، ولكن حافظ رغم المحافظة التي قيد نفسه بها مضطراً ومختاراً كان في طبيعة من ندّدوا بذلك وهو القائل مخاطباً « الشعر » :

ضمت بين الشهي وبين الخيال يا حكيم النفوس يا ابن المآل
ضمت في الشرق بين قوم هجود لم يُفبقوا وأمة مكسال
قد أذالك بين أنس وكأس وغرام بظبية أو غزال
عشت ما بينهم مذالاً مضاعاً وكذا كنت في العصور الخوال
آن يا شعر أن تفك قيوداً فبدتنا بها دعاة المبحال
فارفعوا هذه الكائم عنا ودعونا نشم ربح الشمال
والقائل أيضاً :

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة بهند ودعد والباب وبوزع
وملت بنات الشعر منا موافقاً بسقط الأولى والرقتين ولعلع
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها يرون ممتون العيس ألين مضجع

وكان يريدُ العلمَ عيراً وأينقاً متى يعبها الایجابُ في اليدِ نظلم
فأصبح لا يرضى البخارَ مطيَّةً ولا السلكَ في تيارهِ المتدفق
ولحن كما غنى الأوائلُ لم تزلْ نفنى بأرماعٍ وبيضٍ وأدعر
عرفنا مدى الشئِ القديم فهل مدى لشيءٍ جديدٍ حاضرٍ النفعِ ممتعٍ ؟
وشعره مرآةٌ صادقةٌ لجمعه، ونهزةٌ تحفزهم الى الامام، ونورٌ وجهه الى
طريق المستقبل المأمون :

قصائدهُ هي للآدابِ مفخرةٌ سارت مسير الهندي في كل مضطرب
وما يزال دوىٌّ من وقائمه في مسمع الدهر للجلال والرهب
في كل بيت شواظ النارِ مُزججةً للغاصين وهزات القنا السلب
وكل غضبةٍ صدق منه بالغفر فصل الخطاب وآيات من الخطب
مردّداتٍ بإيمانٍ كأن بها مجامع الوحي عن ماضٍ من الحقب
وقد كان حافظ في كل شعره يعمل للتقدم ، فكان له أثره في النهضة الحاضرة
وحتى في أمداحه « للدولة العلية » لم يكن مدفوعاً الى ذلك بحب الاستبداد وهو
الذي كرهه منذ نشأته ، ولا بحب الرفد والجاه فقد سُدت الأبواب في وجهه ،
ولا بمراعاة الاعتبار الرسمية إذ لم يكن بالموظف حينذاك ولم يكن له شأن بالقصر ،
ولكنه كان مدفوعاً بروح السياسي الذي يرى نفع أمته مرتبطاً بعظمة تركيا
الاسلامية ، وكذلك كانت وجهة نظر المغفور له مصطفى كامل وسواه من الساسة
المصريين في ذلك العهد الى أن ظهر أحمد لطفي السيد بك وحزب الأمة بالسياسة
المصرية البحتة . فلئن جرى حافظ بيئته فما كان ذلك الا في الاحساس العام ولم
تكن مجازاة الضرير ، ولئن جرى المتقدمين احياناً في أساليبه فذلك من تأثير
محفوظه الكثير ومن تأثير تعاليم أستاذه البارودي الذي أراد أولاً أن يستعيد
أزهى عصور الشعر العربي .

ومما عيب على معظم شعراء العربية حتى المعاصرين منهم عنايتهم بالموسيقى
اللفظية لا أكثر ولا أقل ، ولكن حافظاً ضمن شعره الكثير من علل المجتمع
ومارآه من العلاج لها بروح المرشد الأمين حتى نُقِب بالشاعر الاجتماعي ، فلا
نكون منصفين إذا اعتبرنا ذلك النقد في غير تحديدٍ منطبةً عليه . وإذا طبقناه

عليه قائما ذلك لان حافظا كانت له طليعة شعرية عرفها جلساؤه في مرتجلاته البديعة ولكنه أفسدها بمطاوعته المتجذلين وبحرصه على ارضاء القدامى من الأزهريين وغير الأزهريين (على نحو ما فعل المرحوم شوقي بك في أحيائين) فكانت النتيجة أنه صار غالباً الشاعر النحّات المتمسك بدل أن يكون الشاعر الحرّ المطبوع ، وحبس في نفسه أو ضاع في مجالسه وفي مبادله خير شعره العاطفي الوجداني لأن التقاليد كما قدمنا كانت تأبى عليه تدوين الشعر المرتجل المطبوع ، وطالب الشهرة مضطر عادة إلى مراعاة التقاليد ، وما كان لحافظ كما لم يكن لشوقي إغفال هذا الاعتبار .

ومعرفتنا بحافظ أكثر من ربع قرن أفنعتنا بصحة فطرته الشاعرة التي زكت في بيئة الامام محمد عبيد بقدر ما أصبحت أسيرة لتقاليد الصناعة واللغة . فكان حافظ إذا أفلت من ذلك الأمر يجيء لنا مرة بالمتاز المعجب ، وأخرى بالبتذل الذي لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة ، وما ذلك إلا لأنه تارة يعبر عن نفسه أصدق تعبير أو يُدفع دفعاً باحساس أمسي إلى ذلك من حيث يدرى أو لا يدرى ، ومرة أخرى يشعر بمنزلته من الشعب فينظم بعقله الواعي وحده لارضاء الجمهور فيبتعد بذلك عن الشعر الفني ولا يُنصف سمعته الأدبية .

لم يكن حافظ إذن بالرجل الرجعي وإن كان محافظاً في حدوده ، وإن كان ممن نظروا إلى الشعر كلون من ألوان الغناء ومن آثروا اللفظ على المعنى متناسياً أن الشعر روحٌ ونصوّف أي اندماج كوفي في الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر ، فقد جاء شعره صوتاً للبهضة الوطنية وأحياناً دليلاً لها ، فلا يصحّ إذن أن يقال عن شعر حافظ إنه صيغة أخرى من السجع ومن فنون الترف والترهل الذهبي ، وإن المقصود إليه من شعره مجرد الايقاع والهلو اللفظي الذي يخرج من دائرة الشعر الرفيع إلى دائرة الموسيقى المألوفة كما هو نظم الكثيرين . لقد جمع حافظ بين المتناقضات فرضخ للبيئة اللغوية المحافظة التي اتصل بها في كثير وثار عليها أحياناً ، فكان يذهب من النقيض إلى النقيض ، ولو أنه اكتفى بالتضلع اللغوي ثم أطلق نفسه على سجيته لجاءت حرية تعبيره منسجمة منظمة لا اضطراب فيها ولا تبدل ، وهو الاضطراب والتبدل اللذان يترصّض لهما السجين الذي يظفر بحريته ثائراً بعد حبس طويل ولكن ليعود إلى ذلك الحبس ثانية ، فهي حرية غير مأمونة وتكيفها وتناجها على مثالها . إن حافظاً شاعرٌ حاضر البديهة سريع التأثر (impressionist) ولكنه أفسد

طبيعته بالصناعة بدل إطلاقها على سجيته ، وفلول المدرسة القديمة التي أساءت اليه وإلى الشعر العربي بتوجيهه إلى ناحية النظم الذي لا يفهم وطبيعته ما تزال تحاول الضغط على المدرسة الحديثة لتنهج ذلك النهج العقيم في حين أن لكل شاعر فطرته وطريقته التي لن يجنى خيراً ما بتجاهلها ومعارضتها . ونحن لا ندري ما إذا استفاد الشعرُ المصريُّ من افلال حافظ الصناعي وهو المكثّر بطبيعته ، أو من مقاومة فطرته السمحة السهلة . وبقينا أنه لو لا ذلك لكان إنتاج حافظ لا يقل عن إنتاج شوقي ، ولكان شعره مطبوعاً بطابع مصري جميل ، ولجاء جامعاً للكثير من صور الحياة المصرية طائفةً ووصفاً ، تاريخياً ووعظاً ، وتنوعت مظاهره ، وربما كان قد اكتسح المسرح المصري أيضاً .

ولا يسع المؤرخ الأدبي الذي يترجم لحافظ أن يغفل المنافسة الشاذة التي كانت بين حافظ وشوقي ، ثم سرت عدواها إلى شعراء آخرين ، ثم تشكلت بصورة حرب بين المحافظين والمجددين من الشعراء . ولم يكن مبعث كل ذلك سوى التفاهت على اكتساب الجمهور في حين أن الجمهور لا يعدّو الموج الصاعد الهابط الذي لا يستقر ولا يؤمن جانبه على حدّ تعبير أستاذنا مطران ، وقد كانت لمطران مواقف عديدة محدودة للتوفيق ما بين المرحومين شوقي وحافظ . فالتفاهت على نيل رضا الجمهور أو النزول بالشعر إلى مستوى الجمهور كان ضرراً بليغاً للشعر ولاعلام الشعراء الراحلين أنفسهم : فقد أنقص منزلة الشعر الفنية ، ودعا إلى حروب شخصية مجيبة ، كما خلق جواً مدهشاً من الغرور لا تزال نرى تأثيره في تفاهت الشعراء والكتاب على ما كن الصدارة من هذه المجلة وغيرهامع أن صفحاتها في منزلة واحدة ، ومن غرور المبتدئين الذين يتعالمون غن كلمة تنقيح أو ارشاد أو تهذيب من أساتذتهم الشيوخ ويتهاقون على ألقاب المديح السخيف . وهذه روح مريضة قاومناها كل المقاومة وإن رضخت لها بعض المجالات الأدبية مضطرة لأسبابها الخاصة . نعم لا يجوز التغاضي عن هذه الحقيقة بل يجب أن يستفيد من دروسها المصلحون من أبناء هذا الجيل الذين يهتمهم التسامي بالشعر العربي وبمنزلة شعرائه .



وبعد ، فنحن نهدى إلى روح حافظ الشاعرة الوطنية الحبيبة المبعجلة هذا العدد التذكارى من (أبولو) وسمته الصراحة التي تعشقها حافظ منا ومن سوانا طول

حياته. وقد وقع اختيارنا على صورة فنية للذكرى لم يسبق نشرها وهي للأديب الفنان المصرى الشهير شعبان زكى وهى تمثل دار الأمام الشيخ محمد عبده فى حالتها الراحنة — تلك الدار العزيزة التى قال عنها حافظ :

فبا منزلاً فى عين شمسٍ أطلّنى وأرغمَ حسّادى وغمَّ عُدائى

والتي كثيراً ما كانت موثله ومهبط وجبه . رأينا أن ننشرها فى هذا العدد التذكارى لأنها ألصق بحياة حافظ من كل ماعداها من المعالم المصرية ، ولأنها مظهر الذكرى الحزينة الذى لا يجب أن يخفى عن الشعب المصرى . وقد تأثر الرسّامُ الفنان بمظهر سقف الساقية المائل فتخلّله كبيت العنكبوت المكبر رمزاً للاغفال ودليلاً على مبلغ أعمال الدولة والشعب لآثار العظماء ، وشاء الرسّام أن يصوّر الدار تحت تأثير غروب الشمس فى لحظة أبدت الفارق الشنيع بين حاضرٍ عافٍ وماضٍ كانت فيه الدارُ مَطْلَعَ الاشرار النفاقى والدينى فى مصر .

إن اسم حافظ ان بُنِىَ فى تاريخ الشعر العربى ، وأما الشعر العربى ذاته فلن يصدعه ممات حافظ ولا غير حافظ كما يؤمّ الشّدايقون ، فإنّ موتَ العظيم يُلبس تلاميذه وأنداده بالشعور بالمسؤولية والاندفاع الى الانحجاب السامى . والواقع أنّ الشعر العربى يخطو الآن خطوات فسيحة نحو الكمال الفنّى المنشود ، وهو ما يعترف به كلّ نافذٍ مطلعٍ يقارن بين الآثار الجديدة النابضة بالحياة فى الشعر العربى وبين الجديد من الشعر العالمى فى الافطار الأخرى . وأمّا الذين لا يزالون يبحثون فى القوافى والأوزان ، وفى تفضيل اللفظ على المعنى ، وفى أمثال هذا الهراء ، فمعدونون إذا توانوا عن الاطلاع على الأدبيات العالمية فلم ينصفوا مجهود مواطنيهم ، وهم على أىّ حال من رفقة الكسل الجليل والأحكام الطائشة . ولعلّ روح حافظ تغتبط فى عليائها بهذا التسامى الذى يتدرّج اليه الشعر العربى تدرّجاً حثيثاً فتقبل من محبّتها هذا الحنان والولاء والاجلال الذى تنبضُ به الصفحات التالية من أفلام الشعراء والنقاد .



حافظ إبراهيم

﴿ في الميزان ﴾

الصلة بين الفن والنفس

من القسوة الأدبية البالغة ، ومن الخطأ الفاضح في معرض التحليل والنقد ، أن نقصر عملنا على الأثر الفني للأديب أو الشاعر ، وأن نقطع أو نحاول قطع الصلة القائمة بين هذا الأثر وصاحبه ، ونحن نشعر في نفوسنا بقوة هذه الصلة ، ونعرف ما لها من نفوذ وسيطرة في حياتنا الأدبية التي نقول غير ملومين إنها واقعة بأسرها تحت هذه السيطرة وذلك النفوذ .

نحن نقول إن الشعر فيض النفس ، ووحى الوجدان ، فعلياً إذاً أن نصم إلى أدب الشاعر نفسه ووجدانه حين نريد أن نتعرف منزله من الناحية الفنية ، وأن نضع له صورة صحيحة ، ومثلاً صادقاً .

لشاعر ككل فرد من الناس نفسه ووجدانه ، ومن الظلم أن ترى العاصفة تُلقي الحجارة على البذوق المتدفق ثم تهمة بالجود إذا احتبس مأؤه ، أو ترميه بالحق والفاقة إذا تدافعت قواه فكان منتهى ما يستطيعه أن يقذف ببعض هذا الماء من خلال الحجارة فيتطاير رشاشاً أهوج لا يأخذ نظاماً ، ولا يستقيم في مسيل .

ذلك مَثَلُ الشاعر المقتدر تكتنف نفسه أنواعُ الهموم وضروبُ الآلام فتعطل قواها المعنوية ، أو تُلقى الحجب والاستار على أشعثها فإمّا أن تحتبس هذه الأشعة احتباساً تاماً فيكون السكوت ، وإمّا أن يندفع منها قَبَسٌ ضعيف يترقق كالدمعة الحائرة في منافذ ملنوية ، ويذهب أعمى يتعمّص ، فلا هو على هُدًى في ذاته ، ولا الناس يهتدون به .

وإنك لتتجنى وتذهب شططاً حين تنكر على المصباح أنه مخفق النور أو ضئيله ، وتأبى إلا أن يكون كما تريد وتقترح إشراقاً وبهجة ، وأنت ترى رجاغته قائمة في غشاء من سواد .

حافظ في نفسه وفنه

حافظ إبراهيم شاعر كامل العدة ، تامّ الاداة ، أخذ نفسه بأدب الفحول من مبرّزى الشعراء ، وراضها عليه ، فلحق بديوانهم ، وأخذ مكانه بين أعيانهم ، انه لكما أصفه لك ، ولكن لا تطمع أن يطربك وهو محزون ، ولا أن يرضيك وهو ساخط ، كلا - لا تطمع أن تتلقّى من فم حافظ تلك النفثات الشهية ، والتغاريذ العذبة ، الا حين تصفو نفسه ، وينعم باله وخاطره ، هو شاعر كبير النفس ، طامع الهمة ، يرى من حقه أن يتخطى الناس والمراتب ، ويمشي على مناكب الايام وأعناق الحوادث ، إلى أن يقع في منزلته ، ويخلص الى مكانه .

تعبّ حافظ في هذا السبيل ، وتعبت معه أطباعه الثائرة ، فهو قد ظنّ أن له مكاناً في ظلال العرش المصري الذي اتجهت اليه آماله ، فهو يتحفز للثوب ، فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يسمع صاحب العرش فيصغي اليه ، ويحب أن يراه ويصطنعه ، ولكن قيثارة أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الامير وقلبه ، فلم يجد حافظ منفذاً لنفسه ، وعلم أن لا مكان له ولا لغيره في تلك الظلال ، واليك بعض ما توسل به الى هذا المطلب ، وأرافه من عصارة ذهنه في ذلك السبيل .

قال حافظ إبراهيم من قصيدة في عيد جلوس العباس عام ١٩٠١ :

ماذا ادّخرت لهذا العبد من أدب ؟	فقد عهدتك ربّ السّبق والغلب
هذا هو العيد قد لاحت مطالعه	وكلنا بين مشتاق ومرتب
يا مَنْ تنافس في أوصافه كلّي	تنافس العرب الاجاد في النسب
لم يُبق (أحمد) من قول أحاوله	في مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعبر
مشيئة الله في العباس قد سبقت	الى الجدود ، ومن يأتي على العقب
يا مَنْ توهم أن الشعر أعذبه	في الذّوق أكذبته ، أزربت بالأدب
عذب القريض قريض بات يعصمه	ذكر (ابن توفيق) وعن لغو من كذب

ليس لنا أن نقول إن حافظاً أراد أن يخدع شوقه بتقرّظه في هذه القطعة لينتفع به أولاً من كبده وهو يريد أن يخترق الطريق الى العرش ، فهو إنما جرى على طريقة ذوى النبل

والشرف من جمهرة الشعراء والادباء في التنويه بفضل الاكفاء والمتقدمين من اعلام الفن ، وجهازة الصناعة ، وتلك سجيبة أعرفها في حافظ ، وأذكرها له من فضائله الماثورة ، ولك فيما يلي دليل واضح يرشدك إلى الحق ، وبذلك على الصواب .

قال من قصيدة أخرى في عيد الجالوس :

يا ليلةً أطمئني ما أنبئني به على حمأة الفوائى ، أينما ناهوا
انى أرى عجباً يدعو إلى عجب الدهر أضمره ، والعيد أفشاء
هل ذاك ما وعد الرحمن صفوة روض ، وخور ، وولدان ، وأمواه ؟
أم الحديقة ذات الوشى قد جليت فى منظر يستعيد الطرف سراء
أرى المصاييح فيها وهى مشرقة كأنها النور والوسى حباه
أو إنما هى الفاظ مدبجة وكل لفظ تجلى فيه معناه
أرى عليها قلوب القوم حائمة كالطير لاح له ورده فوافاه
أرى أربكة عباس تحف بها وقاية الله ، والاقبال ، والجاد
قل للألى جعلوا للشعر جائزة فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
إنى فنحت لها صدرأ نليق به إن لم تحلوه ، فالرحمن خلاه
لم أخش من أحد فى الشعر بغبني إلا فتى ماله فى السبق إله
ذاك الذى حكمت فينا براعته وأكرم الله والعباس منواه

الدليل على سماحة النفس وكرم السجيبة أكثر وضوحاً فى هذه القطعة منه فى القطعة الأولى ، لحافظ يحكم لشوق على نفسه ، وهو مجال المباراة ، ومعرض المسابقة ، وليس هذا مما يسهل على كل نفس ، وله من قصيدة أخرى فى عيد الفطر :

مطالع سعيد ، أم مطالع أقار تجلت بهذا العيد ، أم تلك أشعاري ؟
إلى سدرة العباس وجهت مدحني بهنئة شوفية النسيج معطسار
لك أن تقول بعد هذا ، إن حافظاً أحسن أمراً غير رأيه فى شاعر القصر ،
وجعله يتحلل مما تقيّد به ، ولك فوق هذا أن تضيف إلى همومه الكثيرة هماً
جديداً ، أو أكثر من هم ، عداوة شاعر القصر ، ووعورة الطريق إلى العرش ،

وتسأولُ رجائه الذى كان يدفع به فى هذا السبيل ، وكلّ هذا مما تستفيده من قوله فى قصيدة أخرى :

مُطفً بالاربكة ذات العزّ والشانِ
يا عيدُ ليت الذى أولاك نعمته
صُغتُ القريضَ ، فما غادرت لؤلؤة
شكا عُممانُ ، وضجّ الغائصون به
كم رام شأوى ، فلم يدرك سوى صدَفٍ
حابوا مسكوقى ، ولولاه لما نطقوا
اليوم أنشدتم شعراً يعيد لهم
أزفَ فيه إلى العباس غانيةً
من الأوانس ، جلاّها براعُ فتى
ما ضاق أصغره عن مدح سيّده
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته
واقض المناسك عن قاصٍ وعن دان
بقرب (صاحب مصر) كان أولانى
فى تاج كسرى ، ولا فى عقد بوران
على اللاسى ، وضجّ الحاسدُ الثانى
سامحتُ فيه لنظامٍ ووزان
ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
عهد النواصي أو أيام حسّان
عفيفة الخدر ، من آيات عدنان
صافى القريحة ، صاحٍ غيرُ نشوان
ولا استعان بمدح الراح والبان
فى موطن بجلال الملك ريان

حملة شديدة ، وغارة شعواء على شاعر القصر ، ما كان لحافظ بعدها أن يطمع فى الاتصال بصاحب العرش ، وما له ولصاحب العرش ، وقد قذف بأماله من حائق ، وردّ عليه كلّ عروس من شعره فى زرى طالق ، بعد أن زفّها اليه تحمل كل ما جمع تاج كسرى وعقد بوران من لآلىء غالية ، وبعد أن شكاه بحر عمان وغوّاصه لطول ما ارتكض فى نواحيه ، وتقلّب فى جوانبه ، يتصيد الدرر يهديها الى العباس فى شعره ويرصع بها تاجه ، فيزيد فى جلاله ويضاعف سنا ملكه ، واشراق عصره ؟

إنها لصدمة عنيفة لنفس حافظ ، ولأدبه وفنّه ، ولكن لا بد للنفس الكبيرة من أن تطلب حقها ، وتلتمس مكانها ، ولا بدّ للادب وفنّ الادب من نهضة بعد نهضة ، وانبعاثة بعد أخرى .

فوق عرش الامارة بمصر ، عرش الخلافة العظمى فى فروع ، ووراء هذا المجال الضيق الذى عثرت فيه آمال حافظ وهوت صريعة ، مجال أوسع يجدر به ان يتخذهُ لأدبه وفنّه . ولنفسه ومطامعه . وهكذا انصرف حافظ الى هذا المجال ، وأقبل على

أمير المؤمنين ، السلطان عبد الحميد ، يتغنى بمدحه ، ويذكر له والخلفاء
من آل عثمان فضلهم العظيم في إقامة ذلك البناء الاسلامي الضخم الذي رفعوه على
شفاير سيوفهم ، وتمهدوه بدماء أبطالهم ورجال دولتهم .
قال شاعرنا الكبير من قصيدة في عيد تأسيس الدولة العلية :

مقد مكن الرحمن في الارض دولة عثمان ، لا تعفو ولا تتشعب
بناها ، فظننتها الدراري منازل لبدر الدجى تبني ، وللسعد تنسب
وقام رجال بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنبوا
وردوا على الاسلام عهد شبابيه ومدوا له جاهاً يهاب ويُرهب
أسودته على البسفور تحمي عربنها وزرعى نيام الشرق ، والغرب يرقب
وقال من قصيدة أخرى في عيد الجلوس السلطاني :

لمحت جلال العيد والقوم هيّب فعلمنى آى العلى كيف تكتب
تجلى على عرش الجلال ، وتاجه يهش ، وأعواد السرير ترحب
وكم حاولوا فى الارض إطفاء نوره واطفاء نور الشمس من ذاك أقرب
ومنها في وصف الجيش العثماني :

يدانى شخوص الموت حتى كأنما له بين أظفار المنية مطلب
إذا ثار في يوم الوغى ، مال منكب من الارض والاطواد ، وانها لمنكب
له من رهوس الشمس في البر مركب ومن نائر الامواج فى البحر مركب

لم ينل حافظ منالاً من جانب الخلافة ، فضاع شعره فيها كما ضاع من قبل في
الامارة ، وقيل في بعض الانباء إن اليد التي أبعدته عن هذه لم تدعه ينعم بامه
الجديد ، فسدت عليه السبيل بعد ان عمل بعض الاصدقاء والانصار لتمهيدته ، وبعد
أن أوشك الشاعر العائر الجد أن يظفر بحاجته ، ويقع على أمنيته .

اشتدت الحركة الوطنية في مصر على يد الزعيم الوطنى الاول (مصطفى كامل)
أوصار الشعر من عناصرها ، فغامر حافظ فيها يتوحد الى الشعب ويناصر زعماءه ،
وفي روعه انه مفض من هذا الطريق الى ما يبتغيه من نباهة ذكر وسعة حال ،
فنظم القصائد الحماسية الملتبهة ، وجال في ميدان الجهاد الوطنى جولات واسعة

النطاق مترامية المدى ، وقد نجح من الناحية الادبية نجاحاً كبيراً في هذا المسلك الذي لم يكن من المستطاع لشاعر القصر أن يزاحمه فيه ، أو يصرفه عنه ، ولم يقصر حافظ شعره في هذا الدور على السياسة وحدها ، ولكنه نبَّسطَ في أدبه فتناول الاخلاق والعادات ، وشؤون الحياة العامة وأحداثها في الامة ، فلقَّبوه بشاعر النيل وبالشاعر « الاجتماعى » .

وهذه أمثلة مما نظمه في هذه الوجوه والمناحي تحدثك أنه لم يُعدَّ لصغار الامور ، وأنه مسوق بفطرته وشعوره الى مواطن الجدِّ في القول ، ومنازل العز والشرق في الادب ، فهو بهذا الوصف شاعر الامة والبلاد ، وشاعر الزمن والخلود .

لستُ في هذا بمُتَّهم ، وما أدعى انه استطاع أن يعصم نفسه وأدبه عما لا ينبغي لمثله من زلة الرأى : ونهات المنطق ، فإنَّ له لقصيدتين من الشعر الشارد ، احدهما في رثاء الملكة فيكتوريا ، والثانية في تنويع ادوارد السابع وقد احترز في الاولى ولم يتحفظ في الثانية ، فقال :

لا نعجبَنَّ لملكٍ عزَّ جانبه لولا التعاونُ لم تنظر له أثرا
ما تُلَّ ربُّك عرشاً بات بحرسه عدلٌ ، ولا مدَّة في سلطانٍ من غدرا
(ادوارد) دمت ، ودام الملك في رغدٍ ودَّام جُنْدُك في الآفاق منتصرا
هم يذكرونك إنَّ عدوا عدوهم ونحن نذكر إنَّ عدوا لنا (مُعمر)
كأنما أنت تجري في طريقته عدلاً ، وحلماً ، وإيقاماً بمن أثرا
وان له لقصيدتين أخريين في وداع (كرومر) أخطأ فيها القصد ، والتوى به السبيل في أولاهما التواء يسوء كل محبِّ له ، ومطلع هذه القصيدة :

فتي الشعر ، هذا موطنُ الصدق والهدى فلا تكذبِ التاريخ ، إن كنت منشداً
ومنها :

سنطرى أبديك التي قد أفضناها علينا ، فلسنا أمةً تجحد البدا
أمتاً ، فلم يملك بنا الخوفُ مسلماً ونحن ، فلم بطرق لنا الذُّعرُ مرقداً
وكنْتَ رحيماً القلبِ ، نحى ضعيفنا وتدفع عنا حادثَ الدهر إنَّ عدا
قال شاعرنا الكريم بعد هذا :

ولولا أسمى في دنشوائى ، ولوعة
ورميك شعبا بالتعصب غافلا
لذنبنا أسمى يوم الوداع لأننا
للهم فاغفر لحافظ ، انها ليست من رأبه ، ولا من عقيدته .

أُمثلة من شعره في السياسة وسؤره الحياة

قال من قصيدته (ماذا أصبت من الاسفار والنصب) :

متى أرى النيل لا تحلو مواردُه لغير مُرتهبٍ لله ، مُرتقبٍ ؟
فقد غدت مصرُ في حالٍ اذا ذكرت جادت جفوني لها بالثؤلؤ الرطب
كاننى عند ذكرى ما ألمَّ بها قرمٌ تردد بين الموت والحرب
اذا نطقتُ ففأعُ السَّجن مُتَكسِي وان سكتُ ، فإنَّ النفسَ لم تطبِ
أُشتكى الفقرَ غادينا ورائعنا ونحن نمشى على أرضٍ من الذهب ؟
والقومُ في مصرٍ كالإسفنج ، قد ظفرت بالماء ، لم يتركوا ضراً لاحتلب
يا آلَ عثمان ، ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله اخوانٌ وفي الكتير ؟
تركتمونا لا قوامَ مُخالفتنا في الدين والفضل والاخلاق والادب

آية بارعة من إنجيل الشعر السياسى أرسلها الشاعر الكبير تحت مضاء مصر ،
باسم مصر ، وفي سبيل مصر ، يشكو فيها تألب الحوادث عليها ، وتشاغل الاعوان
والانصار عنها ، وهو حين يذكر السجن ويتخوف أن يُقذف به الى قاعه إن هو
كشف عن ذات نفسه كلَّ الكشف ، وقال كل ما يريد أن يقول ، انما يصف
لك خطب الحرية ومضايها ، وشقاء النفس الشاعرة وعذابها ، وهذه صورة أخرى
من صور الحياة السياسية التى تصدى لوصفها ، وعمد الى تصويرها . ومن شعره في
هذا الباب قوله من قصيدة :

سَعَيْتُ الى أن كدتُ أتعلُّ الدِّماءَ وَعُدْتُ وما عَقِبْتُ الاَّ التَّنْدِماءَ
لِحَا الله عَهْدَ الفاسطين الذى به تهدم من بنياننا ما تهدم
إذا شئتَ أن تلقى السَّعادة بينهم فلا تكُ مصرياً ، ولا تكُ مُسلماً

وقوله في حادثة دنشواى من قصيدة طويلة :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولائنا والودادا ؟
 انما نحن والحمام سوا لا لم تغادر أطواقنا الاجيادا
 احنوا القتل ان ضننم بعفو أنفسا أصبتم ، أم جادا ؟
 ليت شعري انلك محكمة الله تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟
 وقوله من قصيدة أخرى في هذه الحادثة وجّه الخطاب فيها الى ممثل الدولة
 الانكليزية في مصر لدى عودته إليها :

ماذا أقول ، وانت أصدق ناقل
 إن ضاق صدر النبل عما هاله
 رفقا (عميد الدولتين) بأمة
 إن أرهقوا صيادكم ، فلعلم
 ولربما ضنّ الفقير بقوته
 في (دنشواى) وانت عنّا غائب
 نكبوا ، وأفقرت المنازل بعدهم
 عنّا ، ولكن السياسة تكذب ؟
 يوم الحمام ، فإن صدرك أرحب
 ضاق الرجال بها ، وضاق المذهب
 للقوت ، لا للمسلمين ، تعصبوا
 وسخا بمهجته على من يغضب
 لعب (القضاء) بنا ، وعزّ المهرب
 لو كنت حاضر أمرهم ، لم ينكبوا

لا تظن حافظاً يرسل هذا البيت وهو غافل عما ترى أنت فيه معنى التنزيه للممثل
 الانكليزي ، والارتفاع به عن مواطن الظلم ، ومواضع الجور والفساد ، إنه ليعلم
 أن كل ما حدث في دنشواى من كبار الحوادث وعظام الامور ، إنما كان بمشيئة
 الممثل ورأيه ، وإنما هو يغالط ويتكلم ، ونحن بمبيل الشعر السياسى ، وقد مضى
 حكم شاعرنا الكبير على السياسة في قوله (ولكن السياسة تكذب ..) . قال
 بعده هذا :

جلدوا ، ولو منعنيهم لتعلقوا
 شنفوا ، ولو منحوا الخيار لأهلوا
 فاجعل شمالك رحمة ومودة
 إن القلوب مع المودة تكسب
 بحال من شنفوا ، ولم يتهبوا
 بلطف سياط الجالدين ، ورجبوا
 أنظر إلى هذا البيت ، ألا ترى فيه مصداق ما قلته لك عن غرض الشاعر ووجهته

إذ يقول (لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا) ؟ إنه ينصح للممثل الانكليزي أن يكون رحيماً ، ويوصيه أن يتودد الى هذه الأمة بكفّ الاذى ، وأخذها بسياسة أخرى غير سياسة العصا ، قال الشاعر مخاطبه :

وإذا سئلت عن الكنانة ، قل لهم هي أمة تلهو ، وشعبٌ يلعبُ
وله من قصيدة يخاطب (روزفلت) حين قدم إلى مصر وألقى فيها خطبته السياسية الماثورة :

يا خطيب (الدنيا الجديدة) شنف
واخبر الناس كيف سُدتم على النّاس
وملكتم أعنة الريح والماء
قف وعدّد ماثر العلم ، واذكر
وإذا ما ذكرت أنعمه الكب
يا نصير الضعيف ما لك نظري
لم تطيقوا جوارهم ، بل أقتم
ليت شعري أكنت تدعو اليهم
يوم كانوا قدّى بعين (نُبْيُوؤو... لك) وداء مُستحكماً في الصدور
يوم نادى (واشنجتون) قلباً
ووثبتم إلى الحياة وثوباً
يا نصير الضّعيف حبّب اليهم
هجّر مصر تغزّ بأجر كبير

لا نريد ان نستأثر بشعر حافظ فيما نكتب عنه ، فإن لاصدقائه الكرام ومحابته الموفين من كتاب هذا العدد التخصص له حقّاً كبيراً فيه وفي شعره ، وحسبنا من شعره السياسي ما أثبتناه له ، فهو يمثله لك شاعراً محباً لبلاده ، حفيّاً بأتمته ، يشكو ، فلا ترتاب في أنّ مصر هي الشاكية ، وبرجو فلا تأخذك شبهة في موضع هذا الرجاء من نفسها ، ومحلّه من فؤادها . ان في كلّ بيت من هذا المنال المقتضب لجسراً دامياً من جراح مصر السياسية ، وصرخة عالية من صرخاتها العنيفة المتوالية ، وانك لترى بين هذين شيئاً آخر يندفع في روعة شديدة ، ويثور في

حرارة بالغة ، ذلك هو الأمل ، أمل مصر المعذبة ، أملها الحائر المضطرب تارة ،
والحزين تارة أخرى . ومن شعر حافظ في شؤون الحياة المصرية قوله من قصيدة
يدعم بها رأى (قاسم أمين) في الحجاب :

رجائي في قومي ضعيفٌ كأنه جنانٌ وزيرٌ ، سودته متناصبه
أفلممُ إنَّ القوم ماتت قلوبهم ولم يفهموا في التفسير ما أنت كائنه
وقوله من قصيدة في حريق ميت غمر :

أيها الرافلون في خلل الوش يـجـرـون الذبول افتخار
إنَّ فوق العراء قوماً جباعاً يتوارون ذلّةً وانكسار
قد شهدنا بالأمس في مصر عُرساً ملأ العين والفؤاد انبهار
مآل فيه التّصارُ حتى حسينا أنَّ ذاكَ الفناء يجرى نضار
بات فيه المنعمون بليثل أخجل الصُّبحَ حسنه فتواري
يكنسون السّرون طوراً ، وطوراً في يد الكأس يخلعون الوقار
ومعنا في (ميت غمر) صياحاً ملأ البرّ ضجةً والبحارا
جلّ من قسّمَ الحظوظ فهذا يتغنّى ، وذاك يبكي الديارا

في القصيدة التي نجتزئ عنها بهذه القطعة البليغة وصف مؤلم للمنكوبين
يبعث الرحمة في أشد القلوب فسوة ، ويُغري بالاحسان والبرّ أكثر النفوس تمرّداً
على فضيلة المعروف وشريعة الخير ، ولم يكن حافظ في هذا كله وصافاً أو مصوراً
حسب ، كلا ، فالتأثر بنفسه الكريمة وروحه البارة ، ممثلين في هذه القصيدة
المؤثرة تمثيلاً ناطقاً ، ولقد عرفته رحمه الله لئلين القلب ، قوى العاطفة يقف على
السائل بين يديه ، فيقع عطاؤه في كفّه قبل أن تقع كلمته من بين شفثيه . ثم لا يقع
بهذا ، ولكنه يبقى واجماً محزوناً من أجله فلا يكاد يعود الى الحديث الا إذا
حمل عليه . وهذه قطعة من قصيدة له ألّفها في مدرسة البنات في بور سعيد :

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاق في حبٍّ مصرَ كثيرة العشاق
لحنى عليكِ منى أراكِ طليقةً يحمى كرمَ حالكِ شعبٌ راقٍ ؟

فَإِذَا رُزِقَتْ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسَّمُ الْأَرْزَاقِ
وَالْعِلْمُ إِنَّمَا لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلُهُ تَعْلِيهِ كَانَ مَطِيَّةَ الْإِخْفَاقِ
كَمْ عَالَمٌ قَدْ الْعُلُومَ حَبَائِلًا لَوْ قِيعَةً وَقَطِيعَةً وَفِرَاقِ
يَذْكُرُ فِقْهَهُ السُّوءَ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ ثُمَّ يَقُولُ فِيهِ :

يَمْشِي وَقَدْ نَصِيْبَتْ عَلَيْهِ عِمَامَةٌ كَالْبُرْجِ لَكِنْ قَوَى تَلَّ نَفَاقِ
ثُمَّ يَسْتَطِرِدُّ فَيَقُولُ :

وَطَبِيبُ فُومٍ قَدْ أَحْلَى لَطَبُهُ مَا لَا تَحِيلُ شَرِيعَةُ الْخُلَاقِ
وَهُوَ إِذَا وَفَّى هَذَا الطَّبِيبَ حَقَّهُ مِنَ الْوَصْفِ كَرَّ عَلَى (مُهَنْدِسِ النَّيْلِ) فَأَغْرَقَهُ
ذِمًّا وَتَقْرِيبًا ، ثُمَّ انْقَضَى عَلَى الْأَدِيبِ - أَدِيبِ السُّوقِ - فَأَهَانَهُ وَدَاسَ أَدَبَهُ وَبَيَّانَهُ
وَهَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ فِيهِ :

فِي كَفِّهِ قَلَمٌ يَمْجُجُ لُغَابَهُ سُمًّا وَيَنْفُثُهُ عَلَى الْأَوْرَاقِ
يَرِدُ الْحَقَائِقَ وَهِيَ بَيَضٌ تُصْعَغُ قُدْسِيَّةٌ ، عُلُويَّةٌ الْإِشْرَاقِ
فَيَرْمِيهَا سُودًا ، عَلَى جَنَبَاتِهَا مِنْ ظُلُمَةِ التَّمْوِيهِ ، أَلْفُ نَطَاقِ
عَرَبِيَّةٍ عَنِ الْخُلُقِ الْمَطَهَّرِ نَفْسُهُ خِيَاثُهُ يَنْقُلُهُ عَلَى الْأَعْنَاقِ
يَلْتَفَتُ الشَّاعِرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ إِلَى جِهْلِ الْأَمْتِهَادِ فِي مِصْرَ ، وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّرْقِ

الْعَرَبِيِّ ، وَإِلَى مَا لَهُ مِنَ الْأَنْثَارِ الذَّمِيمَةِ فِي حَيَاةِ الْأُسَمِّ الشَّرْقِيَّةِ فَيَقُولُ :

مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ ، فَاتَّهَا فِي الشَّرْقِ عِلَّةٌ ذَلِكَ الْإِخْفَاقِ
الْأَثْمُ مَدْرَسَةٌ ، إِذَا أَعَدَدَتْهَا أَعَدَدَتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ
سَارَ هَذَا الْبَيْتَ مَسِيرَ الْمَثَلِ ، وَهُوَ مِنَ الْحُكْمِ الْعِمْرَانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ
الشَّاعِرُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَذْهَبَ الْمُتَحَفِّظِ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحُجَابِ ، وَدُمَاةِ السُّفُورِ ،
فَقَالَ :

أَنَا لَا أَقُولُ دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِرًا بَيْنَ الرِّجَالِ ، يَمْجُلْنَ فِي الْأَسْوَاقِ
يَذَرُجْنَ حَبَّ أُرْدَنْ ، لَا مِنْ وَازِعٍ يَحْدَرْنَ رَفِيبَتَهُ وَلَا مِنْ وَاقٍ
كَلَا ، وَلَا أَدْعُوكُمْ أَنْ تُسْرِفُوا فِي الْحَجَبِ ، وَالنَّضِيقِ ، وَالْإِرْهَاقِ

فتوسّطوا في الحالتين ، وأنصفوا فالشّر في التقيّد والاطلاق
 ربّثوا البنات على الفضيلة ، إنّها في الموقّفين لهنّ خيرٌ وثاق
 بهذه الاييمات الحكيمة ، فصّل الشاعرُ العظيمُ حافظ ابراهيم في مشكلة
 (الحجاب والسّفور) على السّنن الأوضح ، والطريقة المثلى . فن حقّ هذا
 الحكم أن يكون دستوراً لجيلنا الحاضر وللأجيال المقبلة معاً في هذه القضية
 التي تشغل الشّعوب الشرقيّة اليوم .

قال شاعرنا العظيم من قصيدة في (رعاية الاطفال) :

لو وفي بارئ كافرٍ من جمّع ال . . . دننيا وأهوى على اقتناء الحطام
 ما شئتكا الجوع معدّم ، أو تصدّي ركوب الشرور والآثام
 راكباً رأسه طريداً شريداً لا يبالي بشرعة أو ذمام
 سائلاً عن وصية الله فيه آخذاً قوته بحمد الحسام
 أنظر اليه كيف تناول الحياة العامّة من أساسها ، وكيف برز في هذه القطعة
 من شعره زعيماً اشتراكياً كبيراً ، يجمع الفقراء حول لوائه ، ويذهب بهم في
 شجاعة وجراة على قصور الأغنياء ، يدعوهم إلى كتاب الله ويحاول أن يقتحم
 الاسوار إلى خزائهم يستنقذ منها تلك الحقوق الصارخة المحبوسة عن ذويها
 وأوليائها .

أنظر اليه إماماً صالحاً ومعلماً حكماً يصف لك ما ينشأ عن تعطيل حكم الزكاة
 من سخط الفقراء على الاغنياء ونشوب العداوة بين الفريقين ، وأن ذلك ممّا يثير
 الشرور ويدفع الى اقتراف الجرائم .

قال شاعرنا من قصيدة ربّانة ألّفها في احتفال الجامعة مطلعها (حيّاكم
 الله أحيوا العلم والأدب) :

هذا هو الآخرُ الباقي فلا تفقوا عند الكلام اذا حاولتموا أدبا
 ودونكم مثلاً أو شكت أضربهُ فيكم وفي مصر إن صدقاً وإن كذبا
 سمعت أن امرأة قد كان بألفه كلبٌ فعاش على الاصلاح واصطحبا
 فرّاً يوماً به والجوع ينهيه نبأ فلم يبق إلا الجله والعصبا

يبكى عليه وفي ميمناه أرغفة لو قامها جائع من فرسخ وثبا
فقال قوم وقد رقتوا لذى ألم يبكى وذى ألم يستقبل العطا :
ماخطبُ ذا الكلب ؟ قال : الجوع يحظفه منى وينشب فيه الناب مُغتصبا
قالوا وقد أبصروا الرُغفانَ زاهية : هذا الدواء فهل طالجته فأبى ؟
أجلهم ، ودواعى الشَّحِّ قد ضربت بين الصديقين من فرط القلي حُجبا :
لذلك الحدِّ لم تبلغ مودَّتُنا أما كفى أن يرانى اليوم مُمتحبا ؟
هذى دموى على الخدين جارية حُزناً ، وهذا فؤادى يرغى لها

يسوق حافظ الى قومه هذه القصة اللذيذة التى تصف الحنان الكاذب ، وتمثل
الحب الغادر ، ليأخذ السبيل على الذين يدعون حب مصر من أبنائها ، ويكترون من
زديد الاقارب الزائفة فى هذا المعنى ، حتى اذا حانت ساعة العمل تركوا البلاد فى
غمرتها ، ووقفوا يتباكون خلف أنصارها ، أراد شاعرنا الموقر أن يأخذ السبيل على
هؤلاء ليسامحوا بأموالهم فى اقامة أكبر دار للعلم والثقافة المصرية فى مصر ، وانظر
ماذا يقول بعد اداء قصته .

أقسمتُ بالله إن كانت مودَّتُنا كصاحب الكلب ، ساء الامر مُنقلبا
أعيدكم أن تكونوا مثله ، فترى منكم بكاءً ، ولا تُلقي لكم دأبا
إن ترضوا الله فى أوطانكم ، فلکم أجرُ المجاهد ، طوبى الذى اكتنبا

فى هذه الطائفة من منظومات حافظ فى هذا الباب ما يعنى عن الاسترسال ، ويقى
بالمطلب المبتغى ، وقد نرأى بشاعرنا الكبير همه الادبية ، فتباعد مداه ، وتقاذفت
فايته ، ومن الاغراض التى تناولها ونظم فيها ، وهو يسير مُمعناً ، ويذهب متدفقاً
فى تلك المطارح البعيدة والمنازع القصية : الشمس — غادة اليابان — حرب
اليابان — المارتينيك — فيكتور هوجو — زلزال ايطاليا — أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب — تولستوى — وقد أجاد حافظ فى كل هذه الابواب اجادة كبيرة ، تدل على
عبقريته وعلو منزلته . فن قوله فى مناجاة تولستوى بعد موته :

حياة الورى حربٌ وأنت تريدها سلاماً ، وأسبابُ الكفاح كثيرُ
أنت سُنَّةُ العمران الأتناحراً وكدهاً ولو أن البقاء يسيرُ

مَحَاوُلُ دَفَعَ الشَّرَّ وَالشَّرُّ وَاقَعَ وَنَطْلُبُ مَحْضَ الْخَيْرِ وَهُوَ عَسِيرُ
 وَلَوْلَا امْتِزَاجُ الشَّرِّ بِالْخَيْرِ لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ قَدِيرُ
 وَلَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ النَّبِيْنَ لِلْهُدَى وَلَمْ يَنْطَلِعِ لِلتَّصَرُّفِ أَمِيرُ
 وَلَمْ يَعْشَقِ الْعَلِيَاءَ حُرًّا ، وَلَمْ يَسُدَّ كَرِيمٌ ، وَلَمْ يَزُجْ الثَّرَاءُ فَقِيرُ
 فَكَمْ فِي طَرِيقِ الشَّرِّ خَيْرٌ وَنِعْمَةٌ وَكَمْ فِي طَرِيقِ الطَّيِّبَاتِ مُشْرُورُ

موقف تأمل

هَذَا هُوَ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ ، فَهَلْ تَرَى وَرَاءَ كُلِّ هَذَا مُزِيدًا لِشَاعِرٍ مِصْرِيٍّ يَعْيشُ فِي
 مِصْرَ ؟ إِنْ فِي مِصْرَ حَيَاةَ زَاهِرَةٍ وَلَكِنْ لِبَغِيْرِ الْإِدْبِ الْمَهْدَبِ ، وَدُنْيَا نَاضِرَةٍ وَلَكِنْ
 لَيْسَتْ لِلشَّاعِرِ الْحُرِّ ، وَهَلْ تَظُنُّ أَنَّ حَافِظًا يَهْزُلُ حَيْثُ يَقُولُ :

فَمَا أَنْتِ يَا مِصْرُ دَارَ الْإِدْبِ وَلَا أَنْتِ بِالْبَلَدِ الطَّيِّبِ
 أَرَاهُ مُتَجَنِّبًا عَلَيْهَا أَوْ ظَالِمًا لَهَا أَوْ عَدُوًّا يَضُرُّهَا الْبَغْضُ وَيُرِيدُ بِهَا الشُّوْءَ ،
 وَهُوَ الَّذِي أَذَابَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ شِعْرًا فِي سَبِيلِ حُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِ حَيَاتِهَا ؟ أَلَيْسَ هُوَ
 الَّذِي يَقُولُ :

لَهْفِي عَلَيْكَ مَتَى أُرَاكَ طَلِيقَةً يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبُ رَاقٍ ؟
 أَتُرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ لَمْ يَقُولْ حَافِظُ بَعْدَ هَذَا وَغَيْرِ هَذَا (فَمَا أَنْتِ يَا مِصْرُ دَارَ الْإِدْبِ ...) ؟
 هُوَ وَحْدَهُ يُحَدِّثُكَ ، وَهَذَا جَوَابُهُ :

عَفَى الدَّهْرُ وَلَوْلَا أَنِّي أَوْرُؤُ الْحَسَنَى عَقَقْتُ الْإِدْبَا
 أَنَا لَوْلَا أَنِّي مِنْ أُمَّتِي خَاذِلًا ، مَا بَتَّ أَشْكُو النَّوْبَا
 مَا أُرَاكَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَزِيدِ بَعْدَ هَذَا ، وَلَكِنِّي أَزُودُكَ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنْ هَذَا
 الْمَوْقِفِ لَتَنْظُلَّ ذَاكَرًا . قَالَ حَافِظُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا سَلَامٌ مُودِعٍ رَأَى فِي ظِلَامِ الْقَبْرِ نِسَاءً وَمَغْنَمَا
 فَمَا عَصَمْتَنِي مِنْ زَمَانِي فَضَائِلِي وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ لِلْحُرِّ أَعْصَمَا
 أَخَذَ حَافِظُ بِنَصِيبٍ مِنْ رَتَبِ الدَّوْلَةِ ، وَأَقْبَمَتْ لَهُ حَفْلَةُ تَكْرِيمٍ كَبِيرَى ، ثُمَّ

استُعملَ في دار الكتب وكلّ هذا عطفاً نَزَرَ ونائلٌ مُصَرَّدٌ ، وليس من هذا شيء يُرضى النفس المجيدة والعقل الكبير ، فرحة الله عليك أيها الصديق .

نظرة في شعره

أسلفنا لك أن حافظاً شاعراً خلّ ستمكن الشاعرية قليل الأنداد ، وقصصنا عليك من أمره ما فيه عذلة لك بالغة ، فكأن مسناً في أنه إنه والناس المصدرة له إذا رأيته يهجو تارة أو يتبرم بالشعر فيتعصف فيه تارة أخرى . وانك لتراه على هذه الحال في القصيدة الواحدة من شعره : تراه الشاعر العبقرى المنيع في موضع منها والشاعر المتهاون المستهدف للنقد في موضع آخر . أنظر الى قوله :

ما ذا ادّخرت لهذا العيد من أدب ؟ فقد عهدت لك ربّ السبق والغلب
البيت بارع يجرى على نسق جميل تلمس فيه قوة الدافع الوجيداني وتسمع له
جرماً بعيد الأثر طويل الرنين . وانك لتراه مصقولاً ناعماً كثير الإيماض مُستطير
البريق . ولكن أتري لو أنّ حافظاً أمعن النظر في هذا البيت أكان يغفل عما فيه
من التخاذل ؟ انه ليعلم أن قوله (ادّخرت) يفسد عليه غرضه وينأى به عن المتزلة
التي أرادها لنفسه ، وهل يفتقر الشاعر الفياض الى الادخار وهو الذي يسبق
الاقران ويغلبهم ؟

أنجب من هذا البيت قوله في البيت الثاني من القصيدة :

تشدو وترهفُ بالأشعار مُرتجلاً ونُبرزُ القول بين السّحر والعجب
فهو في البيت الاول شاعر مدّخر لا يأخذ موقفه الا اذا استمدّ ، وهو في
البيت الثاني حاضر البديهة متدفّق الطبع ، يقول الشعر ارتجالاً وبأبعد ما بين
الصورتين . أما قوله (ترهف بالأشعار) فنخطأ لغوي ، يقال أرهف الرجلُ السيفَ
ورَهفه اذا شحذه ورقق حده ، ومراد الشاعر أن يقول إنه يشدو بالأشعار ويرقق
صوته في انشادها فاططأ ظاهراً ، وقال :

وتَصقلُ اللَّفظُ في عيني ، فأحسبني أرى فردنسيوف الهند في الكتب
أنت ترى البيت من الشعر الرثان وإنك لما أخذ بحال هذا التشبيه الذي يريك
رونق السيف وشاعته في المسوّف المثلّم من الكلام ، ولكنك في غير

حاجة الى الاذن إذا قلت إن جملة (تعقل اللفظ في عيني) ظاهرة الخلل والفساد لأن مرجع الصّور اللفظية الى الذهن — أو هو الذوق الفني — لا الى العين . فما كان لها من مختلف الآثار فتمّ الموضوع وهناك الحكم ، شأنها في ذلك شأن الصور المعنوية ولا خلاف ، والعين والكتب في البيت — أو في هذا الباب كله — يستويان حكماً لأن رونق الكلام واشراقه لا يكونان في الورق ، وأولى بهذا الوصف أن يكون في حسن الخط وجمال الرسم لا يعدوها ، ومن عبث المتنبي في هذا الباب قوله :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شَعْرٍ تَكَادُ بَيُونُهُ إِذَا اكْتَبَتَ يَبْبِضُ مِنْ نُورِهَا الْحَبْرُ
وأشدُّ من هذا في معرض العبث أن يقول :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشَّعْرِ كَلَّةُ وَلَكِنْ لَشَعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شَعْرُ
قال شاعرٌ قديمٌ في حسن الخط :

يَا مَنْ إِذَا خَطَّ الْكِتَابَ يَمِينُهُ أَهْدَى الْيَسَارِ الْوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ
والشطر الثاني لا يبي تمام وأصله (أهدي اليها) . وقال المتنبي في هذا الباب :

وَكَاثَهُ لَيْسَ بَعْمُو جُ خِلَالَهُ صُبْحٌ مُنِيرٌ
وبدائعٌ تدع القلوب بَ تَكَادُ مِنْ طَرَبٍ تَطِيرُ
ومنه قول كشاجم :

وَكَاثُ الْبَيَاضِ وَالنَّقْطِ السُّو دَعِيمٌ رَشَّشَتْهُ فِي مُلَاءِ
وَكَاثُ السُّطُورِ وَالذَّهَبِ السَّ طِيحٌ فِيهَا كَوَاكِبٌ فِي مَاءِ
وأي شاعرنا من المعاني يصفها ويقول لنا ماهي ؟ أترأى اكتفى من وصفها بقوله في البيت السابق « وتبرز القول بين السّحر والعجب » ؟ كلا ! فما هذا من الوصف الفني في شيء ، وإليك بعض ما قيل في وصف الكلام . قال أبو تمام في الحسن بن وهب :

تَنْشَقُّ فِي ظِلِّ الْمَعَانِي إِنْ دَجَتْ مِنْهُ تَبَاشِيرُ الْكَلَامِ الْمَشْرِقِ
وقال البحتري :

وبديع كأنه الزهر الضا حاك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يحل لقيه عوده على المستعبد
أما المتن فيقول :

إذا ما صافح الاسماع يوماً تبسمت الضائر والقلوب
لا أزيدك على هذا غصبك أن تعرف المذهب وترى تصرف القوم فيه وأحسب
لو أن البحترى قال « مشرق في جوانب النفس » لكان أجود وأن البون لكبير
بين « مع البحترى » و « عين حافظ » .

قال حافظ في هذه القصيدة :

اني دعوت القوافي حين أشرق لي عيد الأمير فلبت غرة الطلب
غرة كل شيء أوله ، يريد أن القوافي لبته مشرعة وهو مأخوذ من
قول ابن الرومي :

يا من تناسس في أوصافه كلّي تناسس العرب الامجاد في النسيب
وهو مأخوذ من قول أبي تمام :

تغايّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل
وفي بيت أبي تمام من التحويل الشعري ما ترى . وقال في قصيدته (باليلة)
ألمعني ما أتبه به :

اني أرى تحجباً يدعو الى عجب الدهر أضمره والعيد أفساه
يقول هذا البيت في وصف المشاهد التي رآها ليلة المهرجان فانظر كم بينه وبين
قول ابن الرومي في تهنئة بعيد النيروز :

لم يبق للأرض من سر نكاته الا وقد أظهرته بعد إخفاء
قال حافظ يصف حديقة الازبكية في قصيدته هذه :

أم الحديقة ذات الوشي قد جليت في منظر يستعيد الطرف مرآه
المنظر والمرأى واحد ، وقد أراد شاعرنا أن يقول ان الحديقة برزت في منظر
أنيق يعرى العين بآدمان النظر فوضع (مرآه) موضع (رؤيته) فخطأ وقال :

أرى المصاييحَ فيها وهي مُشرقةٌ كأنها النُّورُ والوصحى حَبَّاهُ
تشبيه معكوس لأن المصاييح أشد إشرافاً من الزهر، ولعل الصورة التشبيهية
هنا قائمة في اختلاف ألوان المصاييح ومحاكاة ألوان الأزهار، وهو ما لا يستفاد
من هذا البيت أو سواء من أبيات القصيدة، واليك ما يقوله أبو الحسن التهامي
لتعرف مأخذ التشبيه :

وإذا تأملت الكواكب خلتها زهراً تفتَحُ ، أو عُيوناً حوَّلا
وانظر ما يقول ابن النبية :

والليلُ تجرى الدردارى في مجرَّتِه كالروض تطفو على نهر (أزاهره)
وأزاهره في البيت خطأ ، فالصواب ، زهر وأزهار وأزاهير — قال حافظ بعد
البيت المتقدم في صفة المصاييح :

أو إنما هي ألفاظٌ مدبَّجةٌ وكلُّ لفظٍ تحلَّى فيه معناهُ
شبه شاعرنا المصاييح في البيت السابق بالأزهار ، ثم عاد فشبهها في هذا البيت
بالألفاظ المدبجة ومعانيها فلم يتجاوز ما قدمناه لك من بيان وإيضاح ، فانت ترى
الانتحال ظاهراً في البيتين بل نحن نزيدك فنذكر لك قول المتنبي :

كأن المعاني في فصاحة لفظها مُجموُّمُ الترتيبِ أو خلاثتك الزُّهرُ
قال حافظ :

أرى (مُسموَّ خديونا) وقد بُسِطَتْ بالعدلِ والبذلِ مُيمناه ويسراهُ
رحم الله شاعرنا الفحل انى لأظنه زدد كثيراً في (سمو خديونا) هذه فلما
أبت أن تفارقه وطنَ لها نفسه وأدخلها بيته كارهاً ثم ذهب يردد قول جرير :
إنَّ البغيضَ له منازل عنـدنا ليست كمنزلة المحبِّ المُكرَّمِ
وبعد ، فبيت حافظ صورة من قول البحترى :

ولِىَ البلادَ فكان عدلاً شائعاً ينقى الظلامَ ونائلاً موهوباً
وللقوم مذهب معروف في هذا الباب يقع فيه قول الحطيئة :
يداك خليج البحر ، احداها دمٌ بَقِيضٌ ، وفي الأخرى عطاءٌ ونائلُ
وقول مسلم بن الوليد :

وما مرَّ يومٌ قطَّ الا جرت به على الناس من كَفَّيك بُؤسَى وَأَنْتُمْ
وقوله :

غاد على كسبِ المحامد رائحٌ في راحتيه منبئةٌ وثُشُورٌ
وقول ابن هانيء الاندلسي :

وللدهر سِجِلٌّ من حياقٍ ومن رَدَى ولكنَّه من بين كَفَّيك ينهى
قال حافظ :

أرى أريكةَ عَبَّاسٍ تَحْفَ بها وقايةُ اللهِ والاقبال والجلال
يقال حَفَّه وحَفَّ حَوْلَهُ وحَفَّه بالشيء فقوله (تحف بها) خطأ لا يسوغ.

وفي القرآن الكريم (حافين من حول العرش وحفناهما بنخل) وقال البحتري :
يَحْفُثُونَ مَرَّجُوا كَانَتْ مَسِيُوبُهُ مَسِيُوحُ الْمِيرَاقِ غَزَزُهَا وَفُورُهَا
ويقول جرير :-

وَبَسُّ الْوَلِيدِ مِنَ الْوَلِيدِ بِمَنْزِلِ كَالْبِدْرِ حُفَّاً بِوَاضِحَاتِ الْأَنْجَمِ
ومن قول الاخطل في الحُر :

لَهَا رِدْآنٌ، نَسَجُ الْعَنْكَبُوتِ وَقَدْ حَفَّتْ بِأَحْرَسٍ مِنْ طَبَنِ وَمَنْ قَادِرٍ
وقد وقع ابن هانيء الاندلسي فيها وقع فيه حافظ من الخطأ . فقال في القائد
جوهر :

يَحْفُ بِهَ الْقَوَادُ وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ وَيَقْدُمُهُ رَأْيِي انْخِلَافَهُ أَجْمَعُ
ومما نُسِبَ الى عنتره وهو بعيد :

حَفَّتْ رِبْهِنٌ مَنَاصِلٌ وَذَوَائِلٌ وَمَشَتْ بِيَهِنٌ ذَوَائِلٌ وَنَوَاجِرُ
ولعلَّ هذا وأمثاله منشأ الخطأ في قول حافظ - قال في (جائزة الشعر) :

إِنِّي فَتَحْتُ لَهَا صَدْرًا كَلَيْقُ بِهِ إِنْ لَمْ تُحَلِّثْهُ فَارْحَمْنِي حَلَاءُ

كانت الجائزة الاولى في هذه المسابقة نرطاً ذهبياً وهي التي عاناها حافظ
وقد حُكِمَ بها لقصيدته هذه . يقول إنه فتح لها صدره وفتح الصدر هنا لا معنى له
فهي لا توضع داخل الصدر ولا تُعَلَّقُ على ظاهره فيجل الشاعر ما يليه من الازرار

ويعبط ماعليه من النياب ، وهو لو فعل ذلك لبقي صدره مُتَقَفلاً فالتعبير اذا مامسى
محض مانشك في أن شاعرنا الكبير تَرَخَّصَ فيه لِيُدْأَعِبَ المحكِّمين ويشغلهم
بتقصيده .

قال في عيد تأسيس الدولة العلية يذكر خلفاء آل عثمان :

وقام رجالهم بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطمسوا
وقال جرير :

ان الوليد خليفة خليفة رَقَعَ البناء على البناء الاعظم

قال شاعرنا من قصيدة أخرى يصف شجاعة الجيش العثماني وشدة مخاطرته :

يُدَانِي شُحُوصَ الموتِ حَتَّى كَأَنَّمَا لَهُ بَيْنَ أَظْفَارِ المَنِيَةِ مَطْلَبُ
الوصف في المنزلة العليا من البراعة ، ولكنه ليس بالجديد ، فهو قد تقلب
في صُورٍ شتى من الشعر القديم ، وما نريدك إلا أن تنفقه في الأدب ، فإليك
طائفة من هذه الصُور ، قال أبو تمام :

مُسْتَرْسِلِينَ إِلَى الخُتُوفِ ، كَأَنَّمَا بَيْنَ الخُتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ
وقال المتنبي :

وَقَفَّتْ وَمَا فِي الموتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الردى ، وهو نانم
وقال ابن هاني :

ولقد تكون لك الأُسنة مُضْجِعاً حَتَّى كَأَنَّكَ عَنْ حِمَامِكَ غَافِلُ
وهذا ابن معنوق يقول :

وَحُضَّتْ إِلَيْهَا الخُتَفَ حَتَّى كَأَنَّنِي أَقْتَسُ أَحْشَاءَ المَنِيَةِ عَنْ مِرٍّ
قال حافظ :

مَلَكَتْ عَلَيْهِمْ كُلُّ فَجٍّ وَلُجْبَةٍ فليس لهم في البرِّ والبحرِ مهربُ
ويقول ابن هاني :

أَيْنَ المَرِّ وَلَا مَرٍّ هَارِبٍ وَلَكَ البَسِيطَانِ : الثرى والماء
قال حافظ :

تَقَاذِفُهُمْ أَبْدَى اللَّيَالِي كَانَهُمْ
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

أَبْقَى عَلَى جَوْلَةِ الْأَيَّامِ مِنْ كَنَفِي
وَقَدْ أَبْرَزَ الْمُنْبِيَّ هَذَا الْمَعْنَى فِي صُورَةٍ أُخْرَى فَقَالَ :

يُخَبِّلُ لِي أَنْ الْبِلَادَ مَسَامِيحٌ وَأَنْتَى فِيهَا مَا تَقُولُ الْعَوَازِلُ
وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ :

كَأَنَّ لَهُ دَيْنًا عَلَى كُلِّ مَشْرِيقٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ ثَارًا لَدَى كُلِّ مَغْرِبٍ
قَالَ حَافِظٌ مِنْ قَصِيدَتِهِ (مَاذَا أَصَبَتْ مِنَ الْأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ ؟) :

أَنْتَى احْتَسَبْتُ شِبَابًا بَيْتُ الْأُنْفَقَةِ وَعَزَمْتَ شَبَابَ الدُّنْيَا وَلَمْ تَشِيرْ
وَيَقُولُ الْبَحْثِيُّ :

صَحِّبُوا الزَّمَانَ الْقَرِطَ إِلَّا أَنَّهُ هَرَمَ الزَّمَانُ وَعِزُّهُمْ لَمْ يَهْرَمْ
وَيَقُولُ أَبُو تَمَامٍ (شَبَابَ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِيرْ) . وَقَالَ حَافِظٌ مِنْ
هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَتَى أَرَى النَّبِيلَ لَا تَحُلُو مَوَارِدَهُ لَغَيْرِ مُرْتَهَبٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ ؟
وَيَقُولُ أَبُو تَمَامٍ فِي الْمُنْتَصَمِ .

تَدِيرُ مُنْعَصِمٍ بِاللَّهِ مُبْتَنِمٍ لِلَّهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبٍ
قَالَ حَافِظٌ :

وَكَمْ لَبَسْتُ الدَّجَى وَالتَّرَبُّ نَاعِصَةٌ وَاللَّيْلُ أَهْدَأُ مِنْ جَائِشٍ لَدَى الثُّوَبِ
السُّرْتُبُ اسْمٌ مِنَ التَّرَابِ زَعَمَ حَافِظٌ أَنَّهُ جَمَعَ قَائِنَتَهُ خَطَأً وَلُبْسُ الدَّجَى أَوْ
اللَّيْلِ مِمَّا كَثُرَ تَدَاوُلُهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الشُّعْرَاءِ . قَالَ حَاتِمُ الطَّائِي :

وَلَيْلٌ بِهِمْ قَدْ تَمَرَّبَتْ هَوْلَهُ إِذَا اللَّيْلُ بِاللَّكْسِ الضَّعِيفِ تَجَمَّهَا
وَقَالَ الْعَتَّابِيُّ :

سَحَبْتُ لَهُ ذَيْلَ السُّرَى وَهُوَ لَا بَسَ دَجَى اللَّيْلِ حَتَّى مَحَّضُوهُ الْكُؤَاكِبِ
إِذَا أَدْرَعَ اللَّيْلَ الْجَلِيَّ وَكَانَتْ بَقِيَّةُ هِنْدِيٍّ حُطَّامُ الْمَضَارِبِ

ويقول ابن الرومي :

لَبِثْتُ دُجَاهُ الْجُونِ نَمَّ هَتَكْتُهَا يَوْجَنَاءَ يَنْمِيهَا غَرِيرٌ وَشَدَقَمُ
ومن شعر البديع الهمداني (عَلَيَّ أَنْ أَلْبَسَ الظَّالِمَاءَ وَالْيَلْبَاءَ) ويقول غيره
(ويلبسُ من ظالمائها ثوبَ ناكل) فامّا قول شاعرنا (والليل اهدأ من جاشي لدى
النوب) فأخوذ من قول أبي طالب الرقي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالظَّلَامُ كَانَهُ يَوْمُ النَّوَى وَفَوَاضُ مِنْ لَمْ يَعِشْ
قال حافظ من قصيدته (طُفَّ بِالْأَرِيكَةِ) :

شَكَا عُمَانُ وَضَجَّ الْغَائِصُونَ بِهِ عَلَى اللَّائِي وَضَجَّ الْجَائِدُ الشَّانِ
كم رام شأوي فلم يدرك سوى صدفي سَاحَتْ فِيهِ لِنِظَامٍ وَوَزَّانِ
ومحتمل البيتين في قول المروي الموصلي :

وَالْقَعْرُ بِحَرْثِ حُزْنٍ أَنْفَسَ دُرُؤُ وَتَنَافَسَ الشُّعْرَاءُ فِي حَصْبَائِهِ
وقال من قصيدته في تنويع الملك ادوارد :

يُصَرِّفُ الْأَمْرَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدْنٍ فَالْهَنْدُ فَالْكَابِرُ حَتَّى يَعْبُرَ الْجُزُرَا
ويقول المتنبي في كافور :

يُدَبِّرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدْنٍ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ
وقال :

سَعَيْتُ إِلَى أَنْ كَدْتُ أَنْتَعِلُ الدِّمَا وَعُدْتُ وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّنْدُ مَا
وقال ازهر بن هلال التميمي يصف جواده :

أُطَانِكَ مَا وَلَّيْتُ حَتَّى تَبَدَّدَتْ رَجَالِي وَحَتَّى لَمْ أَجِدْ مُتَقَدِّمًا
وحتى رأيت الورْدَ يَدْمِي لِبَنَاتِهِ وَقَدْ هَاجَهُ الْإِبْطَالُ (فانتعل الدما)
وقال ابن هانيء في خيل المعز :

لَهُ الْمُقْرَبَاتُ الْجُرْدُ (يُنْعَلُهَا دِمَا) إِذَا قَرَعَتْ هَامَ السُّكَاةِ السَّنَابِكُ
ومعنى البيت كله مأخوذ من قول الشاعر :

وما زلتُ أقطعُ عرض البلاد من المشرقين إلى المغربين
وأذرعُ الخوف تحت الدُّجى وأستصحبُ النَّسرَ والفرقدَيْنِ
وأطوى وأنشرُ ثوبَ المموم إلى أن رجعتُ بِخُفَّيْ حُنَيْنِ
وقال :

نُكبوا وأقمرت المنازلُ بعدهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم تُنكبوا
وهو من قول المهمل في كليب :
وتكلموا في شأن كُلِّ عظيمة لو كنتَ شاهدَ أمرهم لم ينبوا
قال في قصيدة (روزفلت) :

واخبر الناسَ كيف سُدتم على النَّا من وجتم بمعجزاتِ الدهورِ
اخبرَ من الافعالِ الرباعية وحكمه حين يكون فعل امر ثبات حركة الهمز في
اوله فيقال (اخبير) ، وعندنا ألاَّ رُخصة في قواعد اللغة فلا يشفع في مثل هذا
الخطأ البيِّن ان يكون البيت مُستقيم الوزن . قال حافظ بعد هذا البيت :
وملكتم أعنةَ الرِّيحِ والمالِ و دُئِستُم على رقابِ العصورِ
يقال داسَ الرجلَ والشئَ لا داسَ عليه فالفعل مُتعدٍّ بنفسه والخطأ في
البيت واضح ، وقوله (الدهور) في البيت الاول و (المصور) في الذي يليه من
أشنع عيوب القافية . ومن قوله في هذه القصيدة :

قف وعدد ما تَرى المسلمِ واذكر نِعَمَ اللهِ ذَكَرَ عبدُ شكورِ
في مادةٍ عدَدَ شَبَهات لغويَّة لم تفصل المعاجم في امرها وقد اختلف في
تفسير قوله تعالى (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) فقالوا جعله عُدَّةً للدَّهرِ وقالوا
غير ذلك واليك طائفة من افوالهم .
قال الخازن : وَعَدَّدَهُ أى أحصاه من العدد ، وفيل هو من العُدَّة ،
استعدَّه وجعله ذخيرةً وغنىً له .

وقال البيضاوى : جعله عُدَّة للنوازل ، أو عُدَّة مرةً بعد أخرى ، ويؤيده
أنه قُرِئَ وَعَدَّدَهُ على فك الادماع .
وقال الألويسى : عُدَّة مرةً بعد أخرى حُبًّا له ، وشغفًا به وقيل جعله

أصنافاً وأنواعاً ، وقال غير واحد ، أى جعله عُدَّةً ومُدَّخراً لنوائب الدهر ومصائبه ، وقُرِئَ وَعَدَدَهُ أى قومه الذين ينصرونه .

وقال الطبري : عَدَدَهُ أَحصى عَدَّهُ .

وقال الفخر الرازي : فيه وجوه ، أحدها أنه مأخوذ من العُدَّة ، وهى الذخيرة ، وثانيها عَدَدَهُ أى أحصاه ، وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال (فلان يُعَدِّدُ فضائل فلان) وثالثها عَدَدَهُ أى كثره ، وقرأ بعضهم وَعَدَدَهُ بالتخفيف .

أمّا الزمخشري شيخ اللغويين فيقول : عَدَدَهُ جعله عُدَّةً لحوادث الدهر ، وقُرِئَ وَعَدَدَهُ بالتخفيف من قولك له عُدْدٌ وَعَدَدٌ ، وقيل وَعَدَدَهُ بمعنى وعده على فك الادغام ، نحو ضينوا .

هذه أقوال المفسرين ، أمّا معاجم اللغة فتقول : عَدَدَ المال تعديداً جعله عُدَّةً للدهر ، قال الاخفش : ومنه قوله تعالى (جمع مالاً وَعَدَدَدَهُ) ويقال جعله ذا عَدَد ، وَعَدَدَ المَيْتَ عَدَّ مَنَاقِبَهُ .

يعوزنا بعد كل هذا أن نستشهد بالشعر من أقوال النقات ، ولا يحضرنا الآن من الشواهد سوى قول أبى تمام :

وقائع أصلُ النصر فيها وفروعُهُ إذا عُدَّدَ الاحسانُ أولم يُعَدَّدِ
وقول الشريف الرضى فى تهنئة أخيه الشريف المرتضى بمولودة .

لله شمسُ عُلّا جاءتَ بمجوهرة غراءَ من قمرٍ بالمجدي مسعودِ
ما عُدَّدَتْ منك إلا نظفةً سلكتُ إلى الأمانى طريقَ المساءِ فى المودِ
بدل سياق الكلام . فى بيت أبى تمام على أنه يريد الاحصاء ، أمّا الشريف الرضى فيذهب الى معنى آخر ، والمعول فى كل هذا على العرب ، فالشبهة ما تزال قائمة ونحن نتجاوز بيت حافظ الى قوله :

ليت شعري أكنتَ تدعو اليهم يومَ كانوا على تخومِ الثغور ؟
اختلف علماء اللغة فى كلمة (تخوم) فقال بن السكيت إنه سمع أبا عمرو يقول المفرد تخوم بالفتح والجمع تخوم كَصَبُورٍ وَصُبُورٍ .

وقال الفراء ، إنما هى تخوم ، وأعيد لها تخومٌ وتخمٌ ، وقد أخذ حافظ بهذا

القول كما أخذه أبو تمام من قبل فقال :

أَحْلَمَهُمُ النَّدَى سِطَّةَ الْمَعَالِ إِذَا نَزَلَ الْبَخِيلُ عَلَى التَّخُومِ

قال حافظ من قصيدته في كتاب قاسم أمين :

رَجَائِي فِي قَوْمِي ضَعِيفٌ كَأَنَّهُ جَنَانٌ وَزِيرٌ سَوَدَّتْهُ مَنَاصِبُهُ

يجرى الشاعر في هذا البيت على نسق الظاهر الحرمي إذ يقول :

وَلَيْلٍ كَوْجُهُ الْبَرْقَعِيدِيُّ ظُلْمَةٌ وَبَرْدٌ أَغَانِيهِ ، وَطُلُوعُ قُرُونِهِ

قَطَعْتُ دِيَابِجِيوُ بَنُومٍ مُشْرِدٌ كَعَقْلِ سُلْجَانٍ بِنِ فَهْدٍ وَدِينِهِ

بَذَى أَوْلَقٍ فِيهِ التَّفَاتُ كَأَنَّهُ أَبُو جَابِرٍ فِي خَبْطِهِ وَجُنُونِهِ

إِلَى أَنْ بَدَأَ وَجْهُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ سَنَا وَجْهَ قُرَاشٍ وَضَوْءُ جَبِينِهِ

وقال في حريق ميت غمر :

جَلٌّ مِنْ قَسَمَ الْحُظُوظَ فَهَذَا يَتَغَنَّى ، وَذَاكَ يَبْكِي الدِّيَارَ

وهو ينظر إلى قول الشاعر :

سَبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُوظَ ظَ فَلَ عَنَابَ ، وَلَا مَلَامَةَ

قال حافظ من قصيدة أنفذها من السودان إلى الاستاذ الشيخ محمد عبده :

فَنَادَيْتُ بِاسْمِ الشَّيْخِ وَالْقَيْظُ جَمْرُهُ يُذِيبُ دِمَاعَ الضَّبِّ وَالْعَقْلُ ذَاهِلُهُ

فَصَرْتُ كَأَنِّي بَيْنَ رَوْضٍ وَمَنْهَلٍ نَدْبُ الصَّبَا فِيهِ وَتَشْدُو الْبَلَابِلُ

وهو صورة محرفة من قول الشاعر :

وَلَيْلٍ وَصَلْنَا بَيْنَ قُطْرَيْهِ بِالسَّرَى وَقَدْ جَدَّ شَوْقُهُ مُطْمِعٌ فِي وَصَالِكِ

أَرَبَّتْ عَلَيْنَا مِنْ مَنْ دَجَاهُ حُنَادُسُ أَعْدَنَ الطَّرِيقَ النَّهْجَ وَعَرَّ الْمَسَالِكِ

فَنَادَيْتُ يَا أَمَامَا بِاسْمِكَ فَانْجَلَتْ وَأَمْفَرًا مِنْهَا كُلُّ أَسْوَدٍ حَالِكِ

وفي هذه القصيدة يقول شاعرنا :

فَقُلْتُ إِذَا شَاءَ الْإِمَامُ فَأَوْبَتِي قَرِيبٌ ، وَرَبْعِي بِالسَّعَادَةِ أَهْلُ

وَالْأَفَانِي قَافٍ رُؤْيَا لَمْ أَزَلْ بَقِيدِ النَّوَى حَتَّى تَغُولَ الْغَوَائِلُ

البيت الأول من قول الشاعر :

عليك سلامٌ لا زيادةَ بيننا ولا وصلَ إلا أن يشاءَ ابنُ مَعمرٍ
والثاني من قول المعري :

مالى غدوتُ كفافٍ رؤبةً قُبِدَّتْ في الدهرِ لم يُقدرْ له إجراؤها ؟
وقد نبّه شارحُ الجزء الاول من ديوانه على المأخذ الثاني ولكن هذا التنبيه
لا يشفع له ، ورؤبة هذا هو رؤبة بن المعجاج التميمي من أكبر الرّجّازين وأقدرهم ،
وقافه قاف أرجوزته التي يقول في مطلعها :
وقاتمِ الأعماقِ خاوى المحترقِ مُشقبهِ الاعلامِ كَلَماعِ الخفقِ
وقال من قصيدة أخرى يمدح بها الاستاذ :

طلعتُ لها باليمن من خير مطلعٍ فكُنْتُ لها في الفوزِ قدحَ بنِ مُقبلِ
الضمير في (لها) حائد على الأُمّة ، وكان الوجه أن يقول (طلعت عليها) ومن
الشواهد على ذلك قولهم (طلع البدر علينا) و (طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ)
طلعوا على مروانَ يومَ لقائه من مُكلٍّ أروَعَ بالقنا دَعّاس
وفي قدح بن مقبل يقول الصفيّ الحلبيّ :

وما زلتُ فيهم مثلَ قدحِ بنِ مُقبلِ بيسبِعينَ أمسى فائزاً غيرَ خائبِ
وقال حافظ :

رأيتُك والابصارُ حولك خُشَعُ فقلتُ أبو خفص ببردبك أم علي ؟
وقال البحري :

بأروَعَ مِنْ طَيِّ كَأَن قَمِيصُهُ يُزَرُّ عَلَى الشَّيْخَيْنِ زَبْدٌ وَحَامِرِ
وقال غيره :

وَقَدْ يَتَعَابَى الْمَرْءُ عَنْ عَظَمِ شَأْنِهِ وَمِنْ تَحْتِ بُرْدَيْهِ الْمَغِيرَةُ أَوْ عَمْرُو
وقال فيه من قصيدة أخرى :

كَأَنَّ فَوَادِي إِيرَةَ قَدْ تَمَغَطَسَتْ بِحَبِكَ ، أَنِّي حُوِّلْتُ عَنْكَ تَمَغُطُ
تتخطى قوله (تمغطست) إذ لا رأى لنا فيها بعد أن تواضع كُتّابُنَا على
هذا النحو من الرطانة ، وحسبنا أن نذكر لك شيئاً مما قيل في هذا المعنى . قال
الصفيّ الحلبيّ :

اتّما هذه القلوبُ حديدٌ ولذيدُ الالفاظِ مَعْنَاطِيسُ
وقال آخر :

وَقَفَ الهوى بى حَيْثُ انت فليس لى
مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمُ
وقال حافظ :

له كُلُّ يَوْمٍ فى رِضَى الله مَوْقِفٌ
وفى الموقف الاول ما يغنى عن هذه الزيادة ، وقال :

كَأَنَّ بَراعى فى مديحك ساجدٌ
مَدَامِعُهُ من خَشْيَةِ الله تَذَرُفُ
وقال بعض المتقدمين فى انقلم :

وذى خُضُوعٍ رَاكِعٍ ساجِدٍ
مُؤَاطِبِ الخَمْسِ لَأَوْقَاتِهَا
ومقربٌ من هذا قول ابن المعتز :

خَاشِعٌ فى يَدَيْهِ يَلْتَمِسُ قِرْطَا
سَا ، كَأَقْبَلِ البَيَاطِ شَكُورُ
وقول محمود بن احمد الاسبهاى :

أُخْرَسُ يُنْشِيكُ إِبْرَافِئِيلَ
عَنْ كُلِّ مَا شِئْتَ مِنَ الْأَمْرِ
يُذَرِّى عَلَى قِرْطَاسٍ دَمْعَةٌ
يُبْدِى بِهَا السَّرَّ ، وَمَا يَدْرِى

كَمَا شِئْتَ أَهْنَى هَوَاهُ ، وَقَدْ
نَمَتْ عَلَيْهِ عَبْرَةٌ نَجْوَى
وقال حافظ فى الاستاذ من قصيدة أخرى :

قَالُوا صَدَقْتَ ، فَكَانَ الصَّدَقَ مَا قَالُوا
مَا كُلُّ مُنْتَسِبٍ لِلْقَوْلِ قَوْلُ
وقال صفي الدين :

وَمَا كُلُّ مَنْ هَزَّ الْحَمَامَ بِضَارِبِ
وَلَا كُلُّ مَنْ أَجْرَى الْيَرَاعَ بِكَاتِبِ
وقال فيه :

لِى كُلِّ حَوْلِ لَبِيتِ الْجَاهِ مُنْتَجِعٌ
كَمَا تُشَدُّ لَبِيتِ الله أَرْحَالُ
المنتجع المكان يُقصد ، والشئ يُطلب ، وبيتُ الجاه فى قول حافظ هو المكان ،

فالخلل فى البيت ملموس ، وجمعُ رحلٍ على أرحال خطأ ، والصواب رَحَالٌ وَأَرْحُلٌ .
- ٢٨٦ مجلة ابوتلو الاول (١) -

قال يصف مدحته :

تَفْتَحَ الحَدُّ عنها ، حين أسعدها منك القبولُ ، وفيها نَوْرَ القالِ
وقال المتنبي :

قَطَعَتِ الرِّجَالُ القَوْلَ وَقَتَّ نَبَاتُهُ وَقَطَعَتْ أَنْتَ القَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا
قال حافظ في الشيخ من قصيدة أخرى :

ما أَجْزَلَ اللهُ ذُخْرِي قَبْلَ رُؤْيَتِهِ وَلَا انْتَفَعْتُ بِإِيْمَانٍ وَتَوْحِيدٍ
وقال ابن هاني في المعز :

لَوْلَاكَ لَمْ يَكُنْ التَّفَكُّرُ وَاعْظَا وَلَمْ تَكُنْ سَبَبَ النَّجَاةِ لِأَهْلِهَا
قال شاعرنا في رثاء الشيخ :

لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى هَادِي المَوْتِ قَبْلَهُ فَأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي
وقال النابغة الذبياني :

فَإِنْ نَحْنِي لَا أَمْلِلُ حَيَاتِي وَإِنْ سَمْتُ
وقال البحري في غلامه نسيم :

أَعْظَمُ الرُّزْءِ أَنْ تُقَدَّمَ قَبْلِي وَلِصْنِ الدِّينِ الْحَلِي فِي الْمَعْنَى :

مَا بَقَائِي مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ الْآ كِبَاءِ الرِّيَاضِ بَعْدَ السَّحَابِ
قال حافظ يتغزل من قصيدة في الشاعر العظيم محمود سامي البارودي :

تَبَيَّنَتْهَا وَاللَّيْلُ فِي غَيْرِ زِيَّةٍ وَحَاسِدَهَا فِي الْأَفْقِ يُغْرِي بِي الْعِدَى
لا نريد الاستقصاء في النقد وسرد المآخذ ، ولسنا بمتجاوزين قول المتنبي :

أُزَوِّدُهُ ، وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأُنْثِي ، وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي
قال :

وقال كبيرُ القومِ قد ساءَ قَالُنَا فَاَنَا نَرَى حَتْفًا بِحَتْفٍ تَقَلَّدَا

فليس لنا الاّ اتقاء سبيله وإلاّ أعلّ السيف منّا وأوردّا
يقال تقلّد السيف لا تقلّد به ، والمعنى أنه كان متقلداً سيفاً وأنه كان
كالسيف في مضائه وحدته ، وهو مأخوذ من قول الشاعر :
مَنْ تَهَزُّزُ بَنَى قَطَسْنَ تَجِدُهُمْ سَيُوفًا ، فِي عَوَاتِقِهِمْ سَيُوفُ
وقوله أعلّ وأورد في البيت الثاني متنافر ، والسبيل أن يقال أعلّ وأنهل .
قال الشاعر :

تَحُومُ وَتَغْشَاهَا الْعِصَى ، وَحُوطَا أَفَاطِيْعُ أَنْعَامٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ
وقال البحرى :

بَا دَارُ لَا زَالَتِ رُبَاكَ مَجُودَةً مِنْ كُلِّ غَادِيَةٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ
قال ، يعنى (فتاة الخدر) :

وترجو رجاء اللع ، لو أسبل اللّجى على البدر سترًا حالك اللون أسودًا
ولو أسهم قدّوا غدائر شعرها خاكّوا له منها نقابًا إذا بدا
قوله (وترجو رجاء اللع) من التعابير النابية في مثل هذا المقام ، وقوله
(غدائر شعرها) من التراكيب الفاسدة ، وهل كانت الغدائر شيئًا آخر غير
الشعر ؟ والمعنى في البيتين مطروق . ومنه قول ابن هاني في البيت الثانى :

يَعْرِى عَلَى الْحَسَنِاءِ أَنْ أَطَا الْقَنَا وَأَعْتَرَّ فِي ذَيْلِ الْحَيْسِ الْعَرْمَرِ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ السَّيْلَ لُفَّ بِشَعْرَهَا لَيْسَتُرَّ أَوْضَاحَ الْجَوَادِ الْمُسَوَّمِ
قال :

إذا ذكروا منه التّسبب رأيتنا وداعى الهوى منّا أقام واقعدا
وإن ذكروا منه الحاس حسبتنا نرى الصّارم المخضوب حدّا مورا
يصف حافظ شعر البارودى في هذين البيتين ، وفي البيت الاول من سوء
التركيب ما لا يخفى على الناقد البصير ، فأنت ترى إن كلمة (منّا) وما وراءها صورة
ناطقة من صور العجز عن أداء المعنى واصابة الغرض على وجه مقبول ، ونسقى سائق ،
وقوله (أقام واقعد) من الكلمات التى أفرط الشعراء فى استعمالها ومجافوا بها عن
مواطن الرفق ، ومواضع الاناة ، وإنى لمقصدك فى إبراد الشواهد . قال بعضهم :

(وأقام قلبي في الغرام وأقمدا) .

وقال الشريف الرضي في البرق :

كلما أنجد عُلُويَّ السُنا قام بالقلب اشتياقٌ وَقَعْدُ
وقال :

وانَّ قوامَ الدين قد عَبَّ بَحْرُهُ وعِيداً أقامَ الخالعين ، وأقمدا
وقال المتنبي :

أبدى العداة بك الشُّرورَ كأنهم فَرَحُوا ، وعندهم المتيمُّ المُتَعَدُّ
أما قوله (الحاس) في البيت الثاني خطأ لفوى ، والصواب الحاسة ، ومعنى البيتين
يتمثل في قول السري الموصلی :
جَدُّ يَطِيرُ شِرَارُهُ وفُكَاةُهُ تَسْتَعْلِفُ الْأَحْبَابَ لِلْأَحْبَابِ

وفي عجز البيت معنى مُتَنَفِّعٌ من قول عنترة :

قَوَّدْتُ قَبِيلَ السَّيْفِ لِأَنَّهُا لَمَعَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ
يقول حافظ إن الحاسة في شعر البارودي تدفع المرء إلى ضمرات القتال فإذا به من
شدة الشوق إليها ، وفرط الشَّغف بها ، يري السيف المخضَّب بالدم في صورة الخدِّ
المورَّد اشراقاً وحسناً — يقول حافظ هذا ، فما ذا ترى أنت ؟ ألا ترى الرجل
مُقبِلاً على السَّيْفِ يُقبِّله ؟ هذا ما أراده الشاعر ، وهو معنى قول عنترة :
كَمْ وَقَفَ لَكَ ، وَالْأَبْطَالُ طَائِرَةٌ وَالْحَرْبُ تَضْرِبُ صَنْدِيداً بِصَنْدِيدِ
تقولُ للنفس ، إن جاشت البك بها : هذا مجازك سُودِي فيه أو بِيَدِي

في البيت الاول صورة من قول مسلم بن الوليد :

يَلَسَنِي الْمَنِيَّةُ فِي أَمْثَالِ عُذَّتِهَا كَالسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلُوداً بِجُلُودِ
أما البيت الثاني فيقع فيه كثير من الصُّوَرِ ، وإنَّا لذا كرون لك شيئاً
منها . قال الشاعر يعني نفسه :

وقول كلِّ جِشَاتٍ وَجَاشَتْ مَكَاتِكَ مُحَمَّدِي أو تستريحى

وقال غيره : (لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ)

وقال المنبئ :

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْمِ نَارِ الدُّنَا وَخَفَقِ قِرَابِ الْمَوْتِ

وقال ابن هاني : (فامتا حياة أو حمام مواسك)

وقال أبو تمام :

فَأَثَبْتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رَجُلَهُ وَقَالَ : لَهَا مِنْ تَحْتَ أَنْخُصِكَ الْحَشْرُ

قال حافظ في رثاء عثمان بك السيد أباطه :

يَا سَاقِيَّ أُرَانِي قَدْ سَكَنْتُ إِلَى مَاءِ الْمَدَامِ عَنْ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ

وقال مسلم بن الوليد :

لَا أَجْعُ الْحَلَمَ وَالصَّهْبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنْ مَاءِ الْعَنَاقِيدِ

وقد ختم شاعرنا الكبير قصيدته بقوله :

وَعَظَّمَ اللَّهُ فِي عَنَابِ أَجْرَكُو فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أُمْسَى خَيْرَ مَغْمُودِ

وهو ظاهر العيوب ، فلا طائل في نقده ، وما أشبه الشطر الثاني من البيت

بهذيان المؤرخين من اخواننا الشعراء .

وقال في وصف السفينة التي رجع عليها الامتاذ الشيخ محمد عبده من

الجزائر إلى مصر :

فَهِيَ تَمْرِي كَأَنَّهَا دَعْوَةُ الْمُضْ طَرَّ فِي مَسْبَحِ الدُّعَاءِ الْمُجَابِ

وقال شاعر قديم في الحية كشيعة :

لَوْ أَنَّهَا دُونَ الْمَتَاءِ غَمَامَةٌ ضَافَتْ مَسَالِكُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ

وقال من خمرياته :

خَمْرٌ قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا مِنْ خُدُودِ الْمَلَّاحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ

ويقول أبو تمام :

وَرَدِيَّةٌ يَمِزُّهَا شَادِنٌ كَأَنَّهَا مِنْ خَدِّهِ تُعْصَرُ

وقال ديك الجن :

مَعْتَقَةٌ مِنْ كَفِّ ظَهْرِ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَادَارَهَا

ومما قيل في المعنى لشاعر قديم :

أقول له ، وقد حيّا بكأس
أمين خديك تُعَصِّرُ ؟ قال : كلاً
لها من مسك ريفته ختام
تمى عُصِرَتْ مِنْ الْوَرْدِ الْمِدَامُ ؟
قال من قصيدته (غادة اليابان) :

هكذا الميكادُ قد عَلَّمَنَا
مليكٌ يكفيك منه أنه
أن نرى الاوطان أمّا وأبا
أنهَضَ الشَّرْقَ ، فَهَزَّ الْمَغْرِبَا
وقال ابن هانيء في المعتمد على الله :

مليكٌ يكفيك منه أنه
وَجَدَ الدُّنْيَا ، فَأَعْطَى مَا وَجَدَ

كلمة الختام

للقند الفنى الصحيح سُنَنٌ صَمَاء ، وأحكام مُسْتَبَدَّة ، أوَّلُ واقع تحت
سلطانها القاهر شخصُ الناقد وأدبُه ، وفكرُه وأرادُته ، فهو أسير هذا السلطان
الذى يتحكّم بكلِّ قُوَّته في كلِّ نفس قويّة الشعور بواجب الامانة ، شديدة
الايمان بحق النقد التزيه ، وقداسة العدل الادبى ، وليس لك في هذه القضية من
مرشد أمين كنفسك ، فانت حين تقرأ لاحد النُقَّاد شيئاً لا تملك الا أن تضع
الناقد منذ الكلمة الاولى في المحلّ الاول من مكان النظر ، وموضع التأمل ، فهو
يتلقى الحكم في مساقط النظرات ، ومواقع الفكر والخواطر التى تستولى من
جهدك على ما أثبت في كتابه من وجوه النقد وأساليبه ، وصوره وأوضاعه ، وليس
للمنقود من هذا الحكم الا أثرُه يخلص اليه من وراء الناقد كما يخلص اثر الكتابة
من الصحيفة العليا الى التى تحتها بفعل (الورقة السارقة) . ويحمل القول في النقد
انه مُدْبِئَةٌ من العلم والدق ، في نصاب من العدل والامانة .

أعلم هذا حق العلم ، وأُحِبُّ أن يكون غيرى من أدبائنا وكتّابنا على علم صادق
به ، وما أريد أن أعيب أحداً ، ولكنى أؤثّر أن يكون لنا نقاد مُدْرَبُونَ
أصحاء العقول والافلام ، وأُهِيبُ بالذين لا يملكون هذه الأداة أن يراعوا حرمة
الأدب ، وأن يكون لهم من نفوسهم زاجرٌ عن الاغارة على حرمة المقدس طابثين
مُعْرِدين ، ولقد جهدت طول حياتى ألا أجعل لهذه المذبة الجارحة سبيلاً إلى

يدى ، فلملّى لا أراها وقد وُضعت فيها مرة أخرى ، وعسى ألاّ أكون قد جرحته ،
نفسى بما كتبتّه عن الصديق حافظ ، وما أدعى أنّى وفيت النقد حقّه ، فقد تجاوزت
عن كثير ممّا يقع فى هذا الباب ويدخل تحت حكمه .

وبعد ، فليس بمنصف من يظن ان هذه الأخطاء وما إليها فى شعر حافظ مما
يجرح أدبه ، ويضع من مقامه وقدره ، فقد وقع لكثيرين من خول الشعراء ،
ومنهم : أبو تمام ، والبحتري ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبي ، وابن هاني ،
وابن الرومي ، مثل ما وقع له من هذه الهنات ، فما غَضّ من أقدارهم ، ولا زحزحهم
عن مراتبهم .

والشاعر اذا كثرت محفوظاته ، ازدحمت للصور اللفظية والمعنوية فى ذهنه
فاختلط بعضها ببعض اختلاطاً يجعل الاحتراس من أشقّ الأمور وأصعبها ، فقد
يقع المعنى ، أو الشطر من البيت ، أو البيت كلّّه ، من هذه المحفوظات فى شعره ،
وهو يظنّه من وحى شاعريته ، وفيض قريحته ، وقد يتبيّن ذلك ويعرفه بعد حين ،
وهذا ما نقوله عن ذلك القسم فى شعر حافظ ، فأما الاخطاء اللغوية فنفساً الكثير
منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات ، وفى الكتب التى لاسلطان
لأدب اللغة عليها .

وقد كان من شاعرنا الكبير أن نظم قصيدة رنانة فى (ذكرى شكسبير) قال
فى مطلعها :

يُحْيِيكَ مِنْ أَرْضِ الْكِنَانَةِ شَاعِرٌ شَغُوفٌ بِذِكْرِ الْعَبْرِيِّينَ مُعَرِّمٌ

وحدث أن لقينته بعد نشرها فقال لى : أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ قلت :
نعم ، وابتسمت . فضحك رحمه الله وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة
الصحف ؟ لقد أغرم كتابها بكلمة (شغوف) فهى لا تنفارق أفلامهم ، ولا تنجلي
عن شفافها ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلت مكانها كلمة (ولوع)
وانتهى الامر .

رحمك الله يا حافظ وأحسن اليك

مرثية مطران لحافظ

عظمَ اللهُ فيكَ أَجَرَ المَناذِرِ وبنيتها من حاضره أو بادِرِ
 راعَ آفاقَها نَعْبُوكَ حتَّى لكَأَنَّ التَّوْبَى بُوْقُ التَّنَادِرِ
 كلُّ قَطْرٍ مِثْلَهُ فَتَى عَرَبِيٌّ فِيهِ عَيْنُ شُكْرِي وَقَلْبُ صَادِرِ
 حَدَّثَ النَّهْبَ الصُّدُورَ التِّيَامَ حَيْثُ دَوَّى وَفَتْ فِي الْأَعْضَادِ
 مِنْ سَمَاءِ الْأَهْرَامِ جَلَلٌ قَيْسُو نَ وَالنَّاقِ السَّوَادِ فَوْقَ السَّوَادِ
 وَعَلَى بَهْجَةِ الْمَرَايِرِ فِي لُبِّهِ إِنْ أَرْتَى سَحَابَةً مِنْ حِدَادِ
 لَيْسَ بِدَعَا أَنْ يُنْمِىَ الشَّامُ وَالْأَحْزَ إِنْ فِيهِ مُتَقَضُّ كُلِّ وَسَادِ
 مَا تَرَاهُ يَقْضَى الصَّدِيقَ الَّذِي بِأَدُّ بِالْفَضْلِ مِنْ حَقُوقِ الْوَدَادِ

كَيْفَ حَالُ الْأَخْوَانِ فِي مِصْرٍ يَا حَا فَظُّ مِنْ وَحْشَةٍ لِهَذَا الْبَيْعَادِ ؟
 أَيْنَ زَيْنُ النَّدَى مِنْهُمْ — وَهُمْ فِي الظَّرْفِ مَا هُمْ — وَأَيْنَ أَنْسُ النَّادَى ؟
 كُلُّ حَفْلٍ شَهِدْتُهُ كُنْتُ فِيهِ قِبْلَةَ السَّامِعِينَ وَالْأَشْهَادِ
 يَأْخُذُونَ الْحَدِيثَ عَنْكَ كَمَا يَشْتَفِي مَنْ يَرْتَوِي مِنَ الْوَرْدَادِ
 فَإِذَا مَا تَنَادَرُوا وَتَنَادَرِ نَ فَاغْجَبْ بِوَرْدِي تِلْكَ الزَّوَادِ
 فَطِينَ تَشْرَحُ الصُّدُورَ وَمَا تَوَّ ذِي دُعَابِهَا سِوَى الْإِنْكَادِ
 رُبَّمَا كَانَتْ الْعِظَاتُ الْغَوَالِي فِي شَطَايَا ابْتِسَامِهَا الْوَقَادِ

كَيْفَ حَالِي وَأَنْتَ أَدْرِي بِمَا خَلَّفْتَ لِي مِنْ خَجِيعَةٍ وَسَهَادِ ؟
 أَسْعَدِي بِأَهْوَانِ الْإِيكَ نَوْحِي أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْعَادِ
 أَبْنِي الْبَتَّ وَالشَّجَا غَضٌّ مِنْ صَوِّ نِي وَحَرُّ الْأَمْسِ أَجْفٌ مِدَادِي

وَبَيْحُ أُمِّ اللُّغَاتِ مِمَّا دَهَاها فِي طَرِيفِ الْفَخَّارِ بَعْدَ التَّلَادِ
 ذَاكَ الشُّكْلَ فِي بُنَوَّاتِهَا الْأَجْجَادِ بَعْدَ الْأَبُوتَةِ الْأَجْجَادِ

في رفاقِ ردّوا على كلّ أصلٍ من عَلاها نِفارةِ الاعوادِ
نَصَرَ اللهَ عهدَهُم وسقاَهُم ماسقِ الاولين صَوْبُ العِهادِ

نَجْبةٌ فلَمّا أُتِيجَ لعَصْرِ منلِ بمَجموعِهِم من الافرادِ
أيقظوها من الرقادِ وقد جا زَمداهُ أَقصى مَدَى للرقادِ
وأعادوا جاهلًا في زُهاءِ يترأى قديمُهُ في المعادِ
أبنِ سامٍ وأبنِ صبري وحَفَنِي ورفاقُ جارِهِم في الهَوادِ ؟
لحقَ اليومَ حافِظُ بالمجلينِ وما كانَ آخِرًا في الطرادِ
شاعِرُهُ لم يُبَارِهْ أَحَدُهُ في الأَ خذِرِ بالمستحبِّ والمستجادِ
يُحْكِمُ الصَّوْغَ في القِلادِ فابأَ قى صَناعُ بَملها في القِلادِ
ناثِرُهُ تنفَتِ الرِاعةُ مِنْهُ نَشوةُ الحَرِّ في مجاجِ شِهادِ
لَمْ يَكَدْ في مَصيدِ اللؤلؤِ الفَا خَرَّ يُبقي فريدةَ لاصطِبادِ
في تراكيبهِ وفي مفرداتِ اللَه ظَ حارتِ تقاسمُهُ الحُسادِ
كانَ في سَمْعِهِ رَقِيبٌ عَلَيْهِ يَقيظُ من جَهايزِ النُقُادِ
يقعُ الزَّيْنُ مِنْهُ في مَوقِعِ الرُّي نـ وَيَنبُو بالشَّيْنِ نَبو سَدادِ
فالْمَعانِي تَنبِيهِ بَينِ المَعانِي بَسْنَى الحُلِيِّ والابْرادِ
والمَبانِي تَعزُّ بَينِ المَبانِي بِمَنينِ الاسبابِ والاونادِ

عَدُّ عن وصفِكَ الأَدِيبَ وَقَلِّ ما شَتَّتَ في الفاضلِ الوَفَى الجَوادِ
مَنْ يَعْزِي عَنْهُ المَروءَةَ أَمَسَتْ وبنوها الابرارُ غيرَ عَدادِ ؟
شِيعَةُ لا يَطِيقُ كَلَفَتِها غِيسِرُ أُولى العَزمِ والحَماةِ الجِعادِ
مَنْ يَعْزِي عَنْهُ الوِفاءَ وَقَدِ كا نِ يَري تَقَضُّهُ من الإِحادِ ؟
خُلُقُهُ لَيسَ في الضَعافِ وما يَحِمُّ لُ أَعْباءُهُ سَوى الأَجَلادِ

لم يساورم به فينعم بالاً
 من يعزى عنه الصراحة ؟
 لم يسعة وفي الضمير خلاف
 ما فتوح الآراء والجن يطوي
 من يعزى القصاد — علماً توخوا
 ذي الأيادي من كل لون، واغلا
 لا، ولم يزع فيه جانب آد
 ن الغرم فيها والفنم في الامهاد
 أن يرى الاعتدال في المناد
 ها كطى النصال في الاثمداد
 أو نوالاً — عن مسعف القصاد
 هن في المائزات بيض الأيادي ؟

من يعزى كنانة الله عن را
 عن فتاها الشاكي السلاحين والماضيها في شواكل الاضداد ؟
 مى عداها بسهم المصاد ؟

انما حافظ فتاها ومنها
 نشأته وأبدته بروح
 بعد أن كان حاكياً وهو يشدو
 بها نغره على الأنداد
 عبقرى من رُوحها مستفاد
 جعلته المحكى بين الشوادي

نظم الشعر في الصبي نظم واع
 باديء ضوغه وفيه فنون
 ما تعاصى عليه عن عفوة طبع
 لقين ناشيء على استعداد
 بارعات لا يتسقين لبادي
 ردة طوما له بفضل آجتهد

غير أن القريض لم يك في مضطرب العيش معنياً من زاد
 أوجب الرزق فانتأى حافظ بكدرح في بيئة من الأجناد
 موحشا في مجاهل النوب والسودان بين الأغوار والآنجاد
 تنقضى أيامه في ارتياض وعلى أهبة لغير جلال
 ولياليه في الخيام ليالى وسن رازح من الإجهاد

في الصميم الصميم من نفسه الحرَّ قَوْمٌ مُصْرَوحٌ ومُغَادِرُ
أَيَّ جيشٍ يدرَّبون لمصرٍ وولاءُ التدريب فيه الاعادي ١٩
وَلَمَنْ تَمَلَّأَ الفضاءَ وعيداً 'عَدَدٌ من حديدِ الرِّعَادِ ١٩
ذاك ما ظلَّ فيه حيناً وحَسْبُ النفسِ شغلاً به عن الإغراء
غيرَ بَثٍّ يَبْنُوهُ إِنْ أَنَاهُ طائِفٌ من خياله المعتادِ

للعقادي في شئون الجماعات تصاريْفُ رائحاتٍ غَوَادِ
فُتِنَ الجيشُ والبواعثُ كُثُرُ فتنَةٍ لم تكن بذاتِ امتدادِ
طاستَ طار السُّؤاسِ واضطربتْ أحلامُ زُرُقِ العيونِ في القوَادِ
راهم حافِظٌ فعُوِقبَ في جِلْسَةٍ من عاقبوه بالإبعادِ
أخذوه بالظنِّ من غيرِ تحقيقٍ وما آخذوا على افتادِ
فتولَّى ، وما لمؤتنفِ العيشِ بعينه من ضياءِ هادِ
والجديدانِ يضربانِ عليه كلَّ رَحْبٍ في مصرٍ بالأَسْدَادِ
موغراً صدرُهُ لِمَا سِمْ في غيرِ جُنَاحٍ من جَفْوَةٍ واضطهادِ
عاطلِ الثوبِ من كواكبه الزُّهْرِ ومن سيفهِ الطويلِ النجادِ
فهو في مصرٍ والبعادُ من الرِّقَّةِ في الحالِ غيرِ ذاكِ البجادِ
لَقِيَ البؤسَ ، والاديبُ من البؤسِ قديماً فيها على ميعادِ
حائراً في مذاهبِ الكَسْبِ لا يفرقُ بين الإصدارِ والإيرادِ
عائفاً خطَّةَ الجُدادةِ وفيه طَبْعٌ حُرٌّ بجودِ لا طَبْعٌ جادِ
ولقد زاده شَجَى أَنْ سُوِّقَ العلمُ كانت في مصرِ سوقَ كسادِ
وسجايَا الرجالِ رانتِ عليها لَوْنَةٌ من قديمِ الاستبعادِ
فهمُ وادعوتْ لاهُوتَ بالزِيناتِ والتَّشْهَاتِ والأعيادِ
عَبَّرَ مرَّةً في جوانحه ما لَاحَ منها مرَّةً التَّصالِ الحِدادِ

فَتَعْنَى — أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ — بَلْ نَاحَ نَوَاحًا يَذِيبُ قَلْبَ الْجُمَادِ
بَاصِكًا شَجْوَهُ تَرْنُ قَوَافِيهِ رَنِينَ النَّبَالِ فِي الْاَكْبَادِ
ذَاكَ وَالْقَوْلُ لَيْسَ يَعْدُو شَكَاةً لَوْ جَرَتْ أَدْمَعًا جَرَتْ بِجَسَادِ
وَعَتَابًا لَوْلَا الْبَرَاءَةُ مِنْهُ عَاجِلًا كَانَتْ سُبَّةَ الْآبَادِ



بَرِئْتُ مَصْرُ مِنْهُ بِالْحَقِّ لَمَّا نَشْطَتْ مِنْ جَمُودِهَا الْمَتَادِ
طَرَأَتْ حَالَةً تَبْقُظُ فِيهَا لِدُعَاةِ الْمُدَى ضَمِيرُ السَّوَادِ
فَإِذَا حَافِظُهُ وَقَدْ بَشَّرَ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ جَهَامَةٍ وَارْتِدَادِ
وَبَدَأَ لِلْمَنَى الْجَلَائِلُ فِيهَا أَفْقٌ وَاسِعُ الْمَدَى لَارْتِيَادِ
مَا تَجَلَّى نَبُوغُهُ كَتَجَلِّيهِ وَقَدْ هَبَّ (مُصْطَفَى) لِلْجِهَادِ
يَوْمَ نَادَى الْفَتَى الْعَظِيمُ فَلَبَّى مِنْ نَبَا قَبْلَهُ بِصَوْتِ الْمَنَادِ
وَوَرَى ذَلِكَ الشُّعُورُ الَّذِي كَانِ كَيْفًا كَالنَّارِ تَحْتَ الرَّمَادِ
فَنَاشَتْ بَعْدَ الْقَنُوطِ الدَّجُوجَى رَجَاءً لِلشَّاعِرِ الْمُجَوَادِ
مَسَّ مِنْهُ السَّوَادُ فَانْبَجَسَتْ نَارُهُ وَنُورُهُ مِنْ طَى ذَاكَ السَّوَادِ



أَكْبَرَ الدَّهْرُ وَثَبَةً وَثَبَتْهَا مَصْرُ مُفْتَكَةً مِنَ الْأَصْفَادِ
وُثْمَاءُ غَدَا هَزِيمًا فَالْتَقَى رُعْبُهُ فِي مَرَابِضِ الْأَسَادِ
مَا الَّذِي أَخْرَجَ الشُّجَاعَةَ مِنْ حَيْثُ طَوَّهَتْهَا قُرُونُ الْأَسْتَبْدَادِ
وَجَلَا غُرَّةَ الصَّلَاحِ فَلَاحَتْ تَزْدَهَى مِنْ غِيَاظِ الْأَفْعَادِ
فَإِذَا أُمَةٌ أَيْبَةٌ ضَمِيمٌ مَا لَهَا غَيْرَ حَقِّهَا مِنْ عِتَادِ
نَهَضَتْ فَجَاءَةً مُتَنَافِحُ فِي آ نِ عَدُوِّينَ أَسْرَفًا فِي الدُّدَادِ
أَجْنِبِيًّا أَلْقَى الْمَرَامَى حَتَّى تَقْلَعُ الرَّاسِيَاتِ فِي الْأَطْوَادِ
وَهَوَانًا كَأَنَّمَا طَبَعَ الشَّعْبَ عَلَيْهِ تَقَادُمُ الْأَخْلَادِ
حَلَبَةً يُعَذِّرُ الْمُقَصِّرُ فِيهَا وَالْخَوَاتِيمُ رَهْنُ تِلْكَ الْمُبَادِي
لَيْسَ تَغْيِيرُ مَا يَقُومُ بِسِيرًا كَيْفَ مَا عَوَّدُوهُ مِنْ أَمَادِ

غير ان الايمان كان حقيقاً لقلوب الطبيعة الانحاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه ، غير باغين ، من بعيد المراد

لم يَطْلُ عهدُ مصر بالوثية الاولى ودون الوصول خَرَطُ القتاد
فتراحى فيها وثيقُ الأواخي ووهى الجَزَلُ من عرى الانحاد
آيةٌ اخفقت فقبضَ أخرى اثرٌ من عناية الله باد

فزعت دنشوايُ تحمى حاماً من مُلَمِّين كالذئاب الاوادي
فتصدى للذود عنه جفأةً من شيوخ بها ومن اولاد
حادثٌ روعَ العبيد — ايلخاء وسلطانهُ وطيءُ العباد
لا ، ولكن عزّةً اخذته عن غرورٍ بئسه واعتاد
سقه جرأ العبيد المناكبة على معتقهم الاجواد
فخلق بهم اشدّ قصاصٍ حلّ بالآبقين والمراد
ساقها مثلةً توهمها خيراً وكانت عليه شرّ نادر
ذاع في الشعب وصفها ففشت آلامها في القلوب والاجساد
وكان السياط بحزرت في اجلاله والحبال في الاجساد

اى على الجبين فى الرّوع قاضى ظالمهم بجاره الهداد
كان ترجيعُ حافظٍ نوحَ مو نوره فدوى كالليث بالايعاد
فى قوافٍ بهنّ تنطقُ لو او نيتُ النطقِ ألسنُ الاحقاد
علّمت خافضى الجناح لباغٍ كيف شأن الحمام والصباد

وعد الصابرون بالفوز وعداً حقّقته أنباؤهم باطراد

انما الصبر في النفوس جنين
 كيف يأتي به ارتجال ولم يأ
 خلق عز في الجماعات من قر
 مالمّا خان في النضال الجاه
 يرهق الحاملات قبل الولاد
 ت ارتجال يوماً بقول مجاد
 ط تكاليفه وفي الآحاد
 ير فألقت لغاصب بالقياد

بعد وثب في إثر وثب عفيف
 ساور الأمة التردد والتا
 وتبدى الاحجام في صورة زلا
 بالدعائيات والسعيات حاموا
 لا تسل يومذاك عن جلد القسا
 كلما ازدادت الصعاب ابوا إلا كفاحاً وعزمهم في ازدياد
 يبذلون القوي وفوق القوى غير مباين انها لنفساد
 والزعيم الأبرّ أطيبهم نفساً
 يسّ الشعب هل ينجّبه إلا
 مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ
 مصطفى مصطفى ليهنك أن أحيت قوماً بذاك الاستشهاد
 دبّ فيهم روحٌ جديدٌ له ما
 تنقضى الحادثات بعدك والرؤ
 كاد يوم شيعت فيهم يورهم
 صدروا عنه بالتعارف فيما
 واستشفوا لبأسهم فيه مرّاً
 وارتداد في الشوط غب ارتداد
 ث عليها في السير وجه الرشاد
 جرّت إقدام أهل الفساد
 حولها للسّوام أو للرواد
 دة في ملتقى الخطوب الشداد
 عزمهم في ازدياد
 مباين انها لنفساد
 عن النفس في صراع العوادي
 حدت من خوارق المعتاد
 كسر فداء أن كنت أوّل فاد
 قوماً بذاك الاستشهاد
 بعده في القلوب والاخلاد
 وح مقبم فيهم على الآباد
 لحة من جلال يوم المعاد
 بينهم وهو قوّة الاعداد
 كم تحامى أن بدر كوه العادي

هذه مصر الفتية هبت
 رجل مات خلفاً منه جيلاً
 في صفوف قنبلة للذباد
 رابط الجأش غير سهل المقاد

إن دعاهُ الحفاظُ أقبل غلما نَّ مراعٍ من القرى والبوادي
أحدثوا في البلاد عهدَ لجاجٍ في تقاضى حقوقها وعنادٍ

* * *

عهدُ بثٍّ من أنفُسٍ تلتطَّى بعدَ طول الخمودِ والاحقادِ
تَخَذَتْ عبقريةُ الشعرِ فيه سُلماً للعروج والإصعادِ
أبلغت حافظاً من الحفظِ أوجاً راد منه العلياء كل مرادِ
مَنْ رأى الشاعرَ المفعوَّ يوماً وحواليه أمة في احشادِ
مُوفياً من منصفِ القولِ يرنو بانثادٍ ولحظه في انتقادِ
واسع المنكبين منفرج الحق وين يخطو خطاهُ كالنهادِ
باسماً أو مقطباً عن محبِّ بارز العارضين فوق الهادي
عزٍّ منه العذار إلا تفارق خفافاً في الوجنتين بدادِ
بنشد الحفلِ فائتاً كلُّ لبٍّ يبدع الأيماء والانشادِ
وبشعرٍ لا يطرف الجفنُ فيه صادرٍ عن حميةٍ واعتقادِ
من رأى حافظاً نذيراً بشيراً جائلاً صائلاً بغير انتقادِ
غَرَدَا كالهزارِ آناً وآناً حَرَدَا كالحِصَمِّ ذى الازبادِ
ينبر النبرة العزوفُ فما نس مع إلا أصدائها في الوادي
وكانَ الأثيرَ يحمل منها كهرباءَ نهز كلَّ فؤادِ
فهى عزٌّ للأرَّيحيِّ المفادى وهى ذلٌّ للخائس المنقادِ
وهى خفقُ اللواءِ بحدوه من إيقاع أبطاله إلى المجدِّ حادِ
ذاك أن الرُّوحَ المردَّدَ فيها روحُ شعبٍ والصوتُ صوتُ بلادِ

* * *

أيها الراحلُ الذى ملأَ العصا ر بآثاره الرغائبَ الجيادِ
أعجزتني قبل التمامِ القوافي والقوافي نضنُّ بالإمدادِ

قَدْ كَمْ مِنْهَا بَيَانٌ مَفْخَرَةٌ وَاءٌ
بِتَ قَرِيرًا فَإِنْ ذَكَرَكَ فِينَا أَجْدَرُ
الذِّكْرَاتِ بِالْإِخْلَادِ
فَلْيَلِمْ مَطْرَارَهُ

حَافِظُ

فِي رَأْيِ مَطْرَانِ

— ١ —

بين الشعراء والنقاد اليوم معركة حادة عنيفة غير حازمة ، تجاوزت الانصاف والفن وعدت على الخلق ، وخرجت من هذه الدائرة السامية دائرة التهميز والابتكار إلى نوع من المهاترة يضر الشعر والفن وينفسد الصلة بين الادباء جميعاً : فكل فريق سئ الظن بصاحبه يتهمه بالعجز والقصور ، هؤلاء النقاد لا يكادون يعرفون للشعراء كفاية أو جهداً ، ويقولون ليس عندنا شعراء يستطيعون الاضطلاع بما تستلزمه النهضة الادبية المعاصرة وبسدون فراغ هؤلاء الذين أدركهم الموت وكانوا أبراراً سابقين .

وأما الشعراء فلا يبالون بهذا كله ، فهؤلاء النقاد جاحدون وهم أعجز عن تقدير الشعر ، وتلوث قبحه ، واستبطان دخائله وأسراره ، وقد خرجوا من ذلك بقاعدة عدوها أو حسبوها جديدة : هي ألا ينقد الشاعر إلا شاعر .

على أنك إذا نظرت إلى رأى الشعراء بعضهم في بعض رأيت شراً مستطيراً ، واختلافاً كبيراً ، وسوء ظن يربي على ما بين الشعراء والنقاد . فالمسألة في الحقيقة ليست مسألة شعراء ونقاد وإنما هي مسألة طبيعية ، ونتيجة لازمة لاختلاف الأذواق والشخصيات ، واختلاف طرائق النظر والتفكير ، ثم هي بعد ذلك مسألة هذه الصلات الاجتماعية والخاصة التي تصل بين الناس جميعاً ، وتعرض روابطهم إلى الاستقامة أو الاضطراب . فإذا نحن حمدنا هذه الشخصيات ونزعناها إلى الاستقلال فقد يكون حمدنا أكثر إذا وُجِّه هذا الخلاف إلى الشعر وخدمته دون هذا التنابد والمهاترة .

وأما نقد الشاعر صاحبه وعرفانه ذلك فهي مسألة قديمة عرفها السابقون وحاولوا صرف النحلة واللغويين والعلماء الخلف عن نقد الشعر ، وقالوا لا يعرف الشعر الا من دفع به الى مضايقه ، فالناقد في الاصل نصف شاعر بل ويجب أن يكون نصفه شاعراً ونصفه الآخر مالماً ، فالشاعر وحده يحكم إلى ذوقه ومذهبه الفني وفي هذا جور واعتساف ، والعالم وحده يحكم إلى الافكار والمذاهب العلمية فيفسد الفن وجماله . ولكن الناقد يجمع بين الذوق الفني الجميل والمقياس العلمي السديد ، ويلازم بين هذين العنصرين ويسكوّن منهما أحكامه التفسيرية او الابتكارية الخالقة . وكل ما يمينني اليوم من هذا الصراع أنه دليل الحياة والشعور بالحاجة الى نهضة إن لم تصل بالشعر الى أسمى درجاته فهي محاولة تضع الاسس وترسم السبيل الى مستقبل وطيّد زاهر .

— ٢ —

ومع ذلك فأحب أن أقرب من جماعة الشعراء ، ولكنه قرب لا يفيدهم شيئاً ، أحب أن أعرض عليهم صورة من نقد شاعر لشاعر ، بل من نقد شاعر زعيم ، نقد مطران لحافظ ، ولا يظن هؤلاء الشعراء أن هذا فناء في مذهبهم واعتراّف بتفصيله . كلا ، فليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وإنما هو طراز جديد في الشعر العربي ، هو شاعر العقل والشعور جميعاً ، وقبلما نجد هذا النوع بين السابقين وإن سأل بعض المعاصرين أن يكونه . مطران فيما أرى عالم وأديب معاً ، وهو إذن ناقد ، وإذا كان لا بد من الافصاح فيجب أن نلاحظ أن هذا الثالوث المقدس — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحد المزاوج والطبيعة وإن تجانس في الدرجة والتسامي ، فهم شعراء كبار يتفقون في ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك في كل شيء أو في أغلب الأشياء ، فإذا كان لحافظ سرعة البديهة ، وحلاوة النفس ، وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فإن لشوقي براعة الغناء ، وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وإن لمطران صحة الفكرة . ووحدة القصيدة ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة وسماحة الطبع وسمو الأخلاق ، ومعنى هذا للمرة الثانية أن مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق ، وخيال ، وخيال عام ، وأفكار سديدة . فإذا التمس عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمس عند مطران والتمس معه اللذة .

العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة أو غذاء النفس جمعاء . مطران هو الخطوة الموفقة السابعة أمام شكرى وأبى شادى والعقاد والمازنى وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة .

أليس مطران شاعرا فذاً في بابه ؟ ألسنت أنا محققاً في اعتبار مراثيته دراسة نقدية لزميله فوق أنها قطعة شعرية بأكية ؟

الحق ان هذه المراثية مظهر صادق لرأى مطران في حافظ فهي تاريخه أو ترجمته ، ومظهر صادق لشعور مطران نحو حافظ فهي تمثل عاطفة الشاعر نحو الشاعر ، وهي عاطفة مزدوجة فيها حزن الصداقة الشخصية ، وحزن الربطة الأدبية ، . فكيف أرشح مطران زميله ؟

— ٣ —

لدارسى الشعر مذاهب ثلاثة مشهورة . ومن العجيب أن مطران يلم بها جميعاً في قصيدته ويوفق في ذلك توفيقاً بارعاً ، نعم هو توفيق بارع يجمع بين هذا التقرير العلمى الصحيح ، وهذا التصوير الفنى المؤثر الجميل :

فهذا المذهب التاريخى الذى يعد الشعر مرآة الحياة الاجتماعية ، ولا بد لفهم الشعر من فهم هذه الحياة ، ومذهب السير ذلك الذى يعد الشعر مرآة حياة الشاعر ، ولا بد إذاً من درس سيرة الشاعر حتى يفهم شعره فهماً صحيحاً ، ثم هذا المذهب للفنى الخالص الذى يقف عند النصوص الشعرية ويتبين خواصها الفنية شارحاً معللاً . ولكل مذهب أنصاره ومحاسنه ، وهى كلها فى رأى مطران — وأنا أوافق على ذلك — لازمة لفهم الشعر ونقده نقداً منصفاً سديداً ، وقد فعل . نعم فعل وزاد — كما قلت لك — حرارة العاطفة وبراعة التصوير .

ولست الآن أدرس مطران حتى أقف عند فنه وشخصيته ، ولكنى أدرس حافظاً فى رأى مطران ، فلا أستر فى طريقى وليعذرنى القراء إذا عرضت لمطران فيما مضى أو فيما يلى فذلك لانى أحببت أن أشركه مع النقاد أو أضعه حيث يجب أن يوضع فى استواء تفكيره واكتمال نواحيه ، وذلك لانى قد اتفق معه فى الآراء عن حافظ وقد أخالفه . فهو إذاً ميمرى وزميل فى هذه الدراسة ، بل هو أساسها كما علمت . وقد عرض لى أن أذهب هذا المذهب المدرسى فأرتب القصيدة ترتيباً علمياً ، أبداً بهذه القطع التى تدرس العصر ، وأنتى بسيرة الشاعر ، ثم بفنه ...

ولكننى اعتبرت ذلك مدواناً على أسلوب مطران فاحتفظت به ووقفت عند استعراض أبواب المراثية وتمجيد ما يعنى من الملاحظات .

أما مطلع القصيدة فعاطفة عامة تنظم حزن الشرق العربى لوفاة حافظ وتمثل الرابطة اللغوية ، وهو مطلع لا يوازيه فى صدق العاطفه إلا مطلع رثاء مطران لشوقي على فرق بين عاطفة الأخوة هناك وعمومها هنا ، فتلك عاطفة حادة باكية ، وهذه عاطفة جميلة حزينة ، حافظ له هذه المنزلة الأدبية فى بلاد الشرق العربى التى فقدته ماتمها جميعاً ، ثم نرى شخصية حافظ الفكهة المحبوبة تأتلف حولها القلوب ونرى فى أفأكيه حافظ مسرة النفس ، ومرارة النقد ، وخالص الموعظة ، ولكن مطران أشد الناس حزناً لفقد صديقه ، واللغة ذهبت بموته بعد أصحابه السابقين الذين يمتاز منهم بحسن اختيار الألفاظ وضوع العبارات وحسن التأليف ومراعاة مقتضى الحال .

حافظ وفى كريم ذو مروءة وصراحة ، مخلص لأمته :

بعد أن كان حاكياً وهو يشدو جعلته المحكى بين الشوادي

نشأ حافظ يمرن على قرض الشعر معتمداً على الطبع والمرانة جميعاً ، يوفق أحياناً ويخفق حيناً ، ولكن الشعر لا يقوت صاحبه فاذا بحافظ بين الجنود فى السودان يضيق بقيود العسكرية الصورية التى يدرب مصر فيها أطايتها ، وينفس عن نفسه بالقرىض ، ولكن فتنة ثور فى الجيش ويبعد حافظ على أثرها من السودان . وتضيق به سبل العيش ويشمله البؤس ويحترق بين فقر مدقع وعزة نفس عزيزة فيبكي ويكون شعره باكياً حزيناً يصور نفسه المتألمة :

باكياً شجوه نرن قوافيه رنين النبال فى الأكباد

ثم تكون الحركة الوطنية بزعامه مصطفى كامل . وإذا بنهضة تكافح عدوين : أجنبى محتل ، وداخلى هو ذلك الهوان الذى طال مداه على البلاد فصار كالطبع الذى يصعب انزاعه ، والذي يستلزم من الزعماء صبراً ودهاء وبراعة وإيماناً وطيداً . كانت حوادث دنشواى وعسف الانجليز وازدراؤهم بالمصريين ، فكان حافظ لسان مصر الغاضبة الحاتقة ، وحافظ موزون لنفسه ولمصر معه .

وكرثت فى تلك الايام السعاليات وكثر المارقون ، ولكن الخلفاء بزعامه مصطفى

صبروا وصابروا وبثوا في الامة روح التألف والتعارف ، وامتدت آثاره إلى اليوم ،
فكان حافظ شاعر مصر الناهضة .

— ٤ —

أرأيت أن مطران استطاع أن يؤرخ عصر حافظ وأن يلم بسيرة حافظ ، وأن
يدرس فنَّ حافظ فيجمع بذلك بين هذه المذاهب الدراسية الثلاث ؟

نعم استطاع أن يبين أهم الحوادث السياسية والاجتماعية الاولى التي أثرت في شعر
حافظ وإنشائه ولا سيما شعره في الشباب والرجولة ، ثم صور لنا حياة حافظ وبؤسه ،
ومزاجه وخلقه وطريقة تكوينه الشعري . ثم هذه الاطوار الشعرية التي امتاز بها
شاعر مصر الكبير ناعثاً ، وشاكياً ، ومتوجهاً روح مصر ونهضتها الاولى ، وأخيراً
هذا الرثاء الحار الجليل .

وأنا لا أحب أن أزيد على ذلك شيئاً ، إلا أن هناك أموراً ثلاثة يجب الوقوف
عندها :

فأولها أن مطران لم يتناول جميع الحوادث التي تتصل بشعر حافظ ، ولم يذكر
كلَّ الرجال الذين اتصلوا به وبشعره كالشيخ محمد عبيده والشيخ أبي خطوة وغيرهما .
ولا بأس في ذلك فما كان الشعر مجال الاستقصاء الشديد وإلا فسد وذهب جماله ،
وحسب الشاعر الإمام والايام وكفى .

وثانيها أن مطران لم يستكمل حياة صاحبه واعتذر بالقافية ، وفي رأي أن ليس
هذا عذراً كافياً ولا سيما لدى مطران فيستطيع تغيير القافية ويستطيع تكرار
القافية . . ويستطيع غير هذا . . ولكن هل أستطيع أن أرد ذلك إلى أسباب أخرى
سوى ما ذكر ؟ أليكون السبب أن مطران لم يشأ التورط في هذه الفترة الأخيرة
التي تضطرب حولها السياسة الحاضرة والتي قد يكون أكثرها سراً مكتوماً ؟ مهما
يكن من الأمر فعذر مطران هنا ضعيف .

وثالثها أمر يتعلق بفن مطران نفسه ، والحق أنه فنٌ عجيب : فيه كما قلت لك
شخصية علمية أدبية مزدوجة لم تتوافر لغير مطران بهذه السعة والقوة والجمال ،
وأرجو أن أفرغ لدرس مطران نفسه في فرصة أخرى .

رحم الله حافظاً ومدَّ في عمر مطران ما

حافظ ابراهيم

ناحية من أثره في الأدب

حقاً لقد جلت مصيبة مصر في حافظ أديباً وكاتباً وشاعراً ، ومحاضراً ومفكراً ومندراً . وحافظ في هذا كله حقيق من مؤرخي الأدب العربي بأن يعقدوا له الأبواب ، ويسبقوا الفصول . ولست أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدل على موضعه في الأدب العربي ، وأثره بمنظومه ومنشوره فيه . فذلك شيء قد فرغ منه ، أو هو شيء لما يثن بعد الحديث فيه ، على ما يظهر . أما أنه قد فرغ منه فذلك بأن أديباً أو متأديباً في العالم العربي لا يجمل حظ حافظ من هذا أو يقدره حق قدره . وأما أنه لم يثن بعد ، فلقد تظاهر صدر من صفوة العلماء والشعراء والكتاب على أن يدونوا في حافظ ضخم الكتب يحصون فيها شعره ، ويستقرؤون نثره ، ويطلبون المأثور من كلمه ، وكل طريف من بدائنه في مناقلانه ومناذرانه ، وكلها حلول طريف ، وبعد أن شمر القوم في هذا واجتمعوا له وجعل يستحث بعضهم بعضاً فيه ، طاف بهم أوبنا على الصحيح (فإبرؤ نفسي) طائف من السكون والفتور ، والجود والركود ، فما عدت تسمع من أحده فيه حساً .

وأكبر الظن أن السبب في هذا يرجع الى السياسة ، فأخواننا من السياسة في شغل لقد صرفهم عن كثير ، حتى عن الوفاء بما اجتمعوا له واستحمسوا من خدمة الادب العربي في ذكر حافظ ابراهيم !

وبعد ، فانما أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدل على ناحية واحدة مما أجدي به على الأدب العربي هذا الشاعر العظيم :

رُزِقَ حافظ ، رحمه الله ، الى الطبع وإدراك المملكة ، خلافاً ثلاثاً لا تستوى لكثير : سلامة الذوق ورهافة الحس . والثانية قوة الحافظة . والثالثة نفاقة اللسان .

وكان حافظ رجلاً يبره حسن الصياغة ، ويأخذ فيه جمال التعبير ، فإسقط في قراءته في فنون الشعر والنثر ، على لفظ شريف أو صيغة ناصحة مشرقة ، كمل بهاؤها وترقق ماؤها ، الانهاقت نفسه عليها وراح يلتمها التهاماً ، وهي آخذة منه مأخذ أحلى الأصوات في أدق الآذان .

ولقد قلت لك إن حافظاً كان قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً .

ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم ، فلم نشهدهم ونلاشهم لأحلتنا ما يروى عنه في هذا على ما يتزيد به القصاص : ويسرفون في المبالغة فيه طلباً للافلاق والاغراب . ولقد كان ، رحمه الله ، يناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير ، أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزا حتى يأتي على غايتها . ثم يطرح الصحيفة ، حتى ما تشك في أنه إنما كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعه بعد أيام ، بل بعد شهور ، بل بعد سنين طوال ، إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال ، فإذا حافظ يروى ، يظهر الغيب ، أنغر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والاسفاف !

على أنني شهدت أن حافظاً لم يكن يعلق بحافظته مما يقرأ إلا ما يستجيد ويستملح ، وأحياناً ما يستسخف ويستقبح إذا كان لبعض من بكرهم ويرتصد لتشهيرهم والزراية عليهم .

والمعجب أن الشائع في الاعتقاد أن من كان سريع الحفظ كان سريع النسيان فإذا صحت هذه القضية فقد حق أن يستثنى عليها هذا حافظ إبراهيم !

وقبل أن انحول عن هذا الموضوع من الحديث أقول إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس في داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغاني (طبعة بولاق القديمة) وكتاباً أو اثنين في الفرنسية ، وأثارة من الأقاصيص (الروايات) العصرية المترجمة إلى العربية في لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهرأ بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دسها في (جيبه) ليقرأها كلما تهيأ له ذلك .

وتسألني : كيف أنه على كثرة محصوله ووفرة محفوظه من بارغ الشعر ورائع النثر لا يجمع من الكتب إلا ما أحصيت ؟ فأجيبك بأنه لم يدع ديواناً لشاعر متقدم إلا قرأه ، وكذلك قرأ كثيراً من كتب أعلام البيان ؛ على أنه ما قرغ من قراءة ديوان شعر أو كتاب تحول فيه ألوان البلاغات إلا خلاه ودفعه عنه باهداء أو طرحه مطرحة حيث كان تغنياً بما أصاب منه وشكته حافظته العاتية . ولقد أذكر أنه من نحو اثنتي عشرة سنة دفع إلى كتاب (المكافأة) لأحمد بن يوسف الكاتب المصري ، واستحفي على قرأته وتقليب الذهن فيه تروياً من ناصح بلاغته ، فقرأت الكتاب مرة بعد مرة ، وتعلقت بحافظتي منه كلمات وصيغ مرطان ما تخاذل أكثرها وتماقت عنها مسقط البقلة الذابلة . ثم إذا صاحبتنا بعد السنين التوالى ينتظمه المجلس ،

فيروي القصة من الكتاب برمتها كما جرى بها قلم الكاتب ما تسكاد تنشر عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه ، ونبهجت ديباجته . وما شاء الله كان !

ولقد زعمت لك أن حافظاً كان نطفاً ذرب اللسان ، وكان الى هذا رجلاً يألف ويؤلف فكان يطاب مجلسه المنادبون ، وكان هو عظيم النفقذ لمجالس الاسمار كثير الاطلاع عليها فلا تراه قط الا جياشاً بلسانه في المجلس ، يقتقل في خفة وظرف ، بين جد القول وهزله ، وهو أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضاً ، ويأبى إلا أن يدفع في حديثه بأحلى ما وقع له من رائع الصيغ .

دعك مما أفاذ حافظ نفسه في هذا الباب ، في شعره ونثره جميعاً ، وما أجدى به على من قرؤوه شاعراً ومن قرؤوه كاتباً ، فذلك مما يخرج عن حدود هذا الحديث . وإنما الذي أريد أن اقله إن حافظاً ، رحمه الله ، كان مجلة ادبية حبة متحركة يُنفى فصيح العربية حيث كان ، ويصلح للمتادين أخطاءهم البليانية ما وقعت له . وكثير من الشعراء لقد كانوا يعرضون عليه قصائدهم قبل ان يطلعوا بها على الناس فيثبت لهم المتجمل ، ويقوى المنخزل ، ويرفع المسف ، ويدكي الخابي . فحافظ من هذه الناحية كان قوة قوية في إشاعة فصيح العربية وإظهار المتأدين على كرائم المحفوات من ألوان بلاغاتها . فكان أثره واضحاً فيما نشهد اليوم من إشراق الديباجة ، وتلاحم النسيج ، وفحولة الكلام . ولا يذهب عنك بعد هذا ان حافظاً قد استظهر صدرأ صالحاً من الصيغ والتعبيرات الجميلة أدت في صفاء وسلامة كثيراً من متخير المعاني التي جاءت بها الحضارة الحديثة .

وقبل ان أختم هذا الحديث اذكر عن حافظ خلة من خلاله إنصافاً للحق وأمثاناً لصحيح التاريخ : ذلك بأنه مما انعم الله به عليه انه كان قليل الصبر على النظر في كتب العلم والاجتماع في حفظ قواعده والمطالوة في تفهم قضاياها واستخراج مسائله . علوم اللغة وغيرها عنده في هذا بمنزلة سواء ، بل لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما ينعم عليه من مفرداتها ، ولعل الامر إذا تكرره في بعض هذا تقدم الى غيره به فرجع اليه بما اصاب . أوكد ان حافظاً قد ثوى وليس في داره معجم واحد من معاجم اللغة . ولكن لقد تهيأت للرجل فرصة لم تنهياً لكثير ، فقد عاش من اول شباب السن الى غاية العمر اعلام العلم واللغة والادب في عصره ، وداخلهم ولا بسهم وحضر بمجالسهم وحاضرهم ونادرهم وأخذ عنهم . فانسقت له بهذا مجموعة

قيمة من علوم اللسان وسواها من قضايا الدين وعلوم الحياة. وناهيك عن طوى المعركة في مصاحبة الشيخ محمد عبده والأشباح حزة فتح الله، وإبراهيم اليازجي، ومحمد المهدي، وحفني بك ناصف، وسامي باشا البارودي، وإسماعيل باشا صبري، وسعد باشا زغلول، وأخيه فتحي باشا، وأحمد حشمت باشا، وإبراهيم بك المويلحي، وولده محمد بك، وعمه عبد السلام باشا، وإبراهيم بك اللقاني، والشيخ علي يوسف، وأستاذنا أحمد لطفى السيد بك، وعبد الحميد بدوي باشا، وأحمد بك أمين، والمرحوم عبد الحميد باشا مصطفى، وأستاذنا العظيم الشيخ أحمد بك إبراهيم، وأصدقائنا الدكتورين هيكمل وطه حسين والأستاذ الجليل خليل مطران وغيرهم، وسواهم من كل من يجرى في أبواب العلم والأدب على عرق كريم، حتى وهو ضابط في المودان، لقد لازم أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ الخطرى بك، وراجعته كثيراً، وروى عنه في قوانين اللغة كثيراً، ولعله كذلك قد اتصل هناك بأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار وأخذ عنه وذلك مما لا أتيدنه إلى الآن.

ولعله قد تعاضك بأدى الرأي ما زعمت في بعض هذا الكلام من أن مما انعم الله به على حافظ رقة الصبر على الأكباب على كتب العلم، وفيها علوم اللسان ولعله لو قد فعل لما كان منه كل حافظ إبراهيم!

حافظ إنما طلب العلم في أصنى موارده، وحصله من أكرم مناجه. وانت خبير بأن العلماء إذا أقبلوا في اعمارهم على مذاكرة العلم، تخيروا اللب والمصاص، واصطفوا من مسائله ما جلّ معناه وقويت أسبابه، وخاصة ما اتصل منها بوسائل الحياة، وأطرحوا ما لا غناء فيه مما يكظ الذهن ولا يكاد يجدى في تطبيق قضاياه الكثيرة، وقواعده الوفيرة في دنيا ولا في دين. وحافظ كان رجلاً متسقى الذكاء، صافى الذهن، جوهرى الطبع، قوى الحافظة، كما أسلفت عليك، فأصاب مع هذا من محبة من ذكرت من أولئك العلماء، وطول مذاكرتهم ومراجعتهم من الفوائد العلمية في شتى العلوم ما لا يكاد يدركه الحساب.

وإن تعجب فمجب انتى ان عدم إكباب حافظ على مراجعة معاجم اللغة قد أجدى عليه في صنعته كثيراً! ذلك بأنه — وأرجو أن يعى هذا الناشئون في الادب بوجه خاص — ذلك بأنه ليس كل كلمة في المعجم تصلح للاستعمال دائماً، في المعنى الذى وجهها عليه، فان الكامة قد تصلح في هذا المقام ولا تصلح لذلك،

وقد تنسق لهذه الصيغة وتحلو وترق ، إذ هي تنسج على تلك وتسنصب .
لهذا أثر حافظ أوشاء له القدر ألا يأخذ مقررات اللغة إلا من اكرم مناجمها ، وألا يطالعها إلا وهي في عقود نظامها ، فيما حصل من رائع الشعر ، وما استظهر من طاقن النثر ، فعرف في شعره ونثره كليهما ، كيف يضع كل كلمة في موضعها ، وكيف يضم الجنس الى جنسه ، ويضيف الشكل الى شكله . ومهما اختلف النقد في شعر حافظ وفي شاعريته فانهم لم يفتروا قط في أنه كان أمهر الصاغة في هذا الزمان .

وخلة أخرى تتصل بهذا المعنى ، وهي أن بعض الشعراء إذا أعوزتهم القافية فزعوا الى المعاجم حتى إذا سقطوا عليها استكروها على النظم فخرجت ، في الغالب ، غريبة شامسة ، أو قلقة نابية . أما حافظ فقد سلم من هذا ، وإنك ما تكاد تطالع صدر بيته حتى تراك قد أطللت من تنسك على القافية .

هذه ناحية من جدوى حافظ إبراهيم على اللغة والأدب . أسأل الله تعالى أن يرحمه الرحمة الواسعة ، وان يعوض الادب العربي عنه خير العوض .
عبد العزيز البشري

حافظ إبراهيم

بين ظرفه ومجونه

وماذا أقول عن حافظ إبراهيم ، وأي جانب من جوانبه أتناول بالنقد والبحث والتحميص ؟

إنما أود أن أقرر في هذه العجالة على ناحية مع نواحيه البارزة الممتازة التي أتبع لي أثناء اتصال به ردحا من الزمن أن أنبينها وأعجب بها : تلك هي روحه الفكرة الطروبة ، بل نفسه المرححة الضاحكة ، بل قلبه العامر بالظرف والايمان مما كان يبدو في نظر بعض الناس استهتاراً وقلة اكتراث .

أتحدث في هذه الكلمة القصيرة عن ظرف حافظ ، ومجون حافظ ، وخفة حافظ ، وكرم أخلاق حافظ ، بل سعة نفسه إلى أبعد مدى وأقصى حد .

كان حافظ في أخلاقه ومزاجه وروحه ونقسه وسخائه وشجاعته ومنطقه وحديثه بل في كل حركاته وسكناته وسائر مزاياه أدبياً كل الأديب .

وإني لا أذكره في جلسته في « بار اللواء » وقد التفّ من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله في شبه حلقة وحافظ لا ينقطع « الجرسون » عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة فإذا ما انتهى مجلسه كان حصابه غير يسير .

وإني لا أذكر صحفياً يُعتبر الآن من ذوى اليسار راهن حافظاً على أمر من الأمور فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الحسين جنباً ، وكان موقفاً عجيباً كاد يُخيّل إلى بعده أني لا أعيش في هذا العالم المادي العنيف !

وأذكر أني دعوتُ حافظاً إلى القناطر الخيرية حيث كنت أسكنها عام ١٩٢٣ إلى غداء متواضع وقد جاء إليها في بعض أصدقائه كلهم أسير منه حالاً وأوفر مالاً ، وكانوا يركبون في ذهابهم وعودتهم سيارة « تاكس » وقد دفع لسائقها مائة وخمسين قرشاً وهي تربو على تكاليف غذائي . فلما أظهرت له دهشتي أظهر لي دهشة أشد منها وعجب كيف أني أود أن اعلمه الاقتصاد في آخر الزمن !

وإني لا أعلم انه جنى من آخر طبعة لكتابه « البؤساء » حوالى ألى جنبه أنفقها جميعها في نفس الشهر الذي استولى عليها فيه !

أليس عجيباً أن تتاح لحافظ فرص عدة للثراء ثم يموت دون أن يقتنى منزلاً يسكنه في حياته أو كفافاً من المال ينفع من بعده من ذوى قرابته ؟

وشهدت حافظاً في داره بحلولان في رمضان وقد استوى للافطار على مائدته جمع من أصدقائه وألوان الطعام تغدو وتروح من كل شهي الطعم جيد الصنع ولكن في أطباق من الصاج ، والتمر الهندي يقدم في بواق من الصاج أيضاً .

وإني لا أذكر في تلك الجلسة أدبياً كبيراً وقد قال : « لا ينقص هذه الأكلة الشبهة إلا الثلج وهو لا يتكلف ملائم » فبادره حافظ : « فلتفرض أنك في بيتك ! »

وأذكر أنه سُئل عن صديق من أصدقائه الأفاضل وكيف أن صديقه هذا يفضل الولائم والتردد على الموائد وهو والله الخلد في عيشة وارفة راضية بل كيف أن صديقه على ضعف صحته شديد النهم فقال : « إنه قضى أربع عشرة سنة يأكل (اردفر) في الأزهر ! »

وأذكر ان اصدقاءه أرادوا ان يعبثوا معه ويماجنوه في ليلة من ليالى رمضان ويختبروا مائدته وكانت مضرب المثل ومهبط الأدياء والعطاء فاقسموا فريقين وقد دخل فريق منهم في ساعة الغروب فلم يكادوا ينتهون من إفطارهم حتى هاجمه الباقون، ومع ذلك فقد استطاع حافظ ان يستمر موقفه وان يرد كيدهم ويدحض غلة من مجونهم وان يقدم لهم الوفير من الطعام في أصنافه التي كان يولع بها ويحبدها طاهيته الماهرة .

وخرج حافظ الى مقهى الجندي في الاوربا — وكان يتردد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم ، يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً وجيئة ليندخن نرجيلته هناك في حوالى خمس دقائق ، ثم يدفع عنها لخدم القهوة وينفقه أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف — والتقى به إذ جلس في ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الأسبوعية وقال له : « إنما كنت أنفقك لاقترض منك جنيتها أنا في أشد الحاجة اليه » فضحك حافظ وقال له : « عمرك أطول من عمرى ا »

إني لن أنسى له رحمه الله جلسات رائعة في دار المغفور له محمد عثمان أباطه باشاً برعاية من أعمال مركز منيا القمح ، فقد كان مجلسه فيه ندوة أدبية معدومة النظير أذكره وقد رأى شايفين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها فقال من فوره للدميم مشيراً لصاحبه الوسيم : « هكذا أبناء الامهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم ا » كما لن أنسى طرفة لأحد أدبائنا الافذاذ إذ بادره بقوله : « وعلى هذا القياس نكون المرحومة والدتك قد دفعت (دوتا) للمرحوم والدك ا »

ودعاه صديق له ليطلعه على مقبرة بناها لوالده فقال له حافظ : « كم كلفتها ؟ فقال الصديق : « مائة جنيه بالميت ا » فقال حافظ : « دى رخرة تبة تردّ الروح ا » وسمع حافظ أن امام العبد لايفتا يذكر أنه هو الذى خاق حافظاً فلما التقى امام بحافظ دلف اليه في شأن مادي فقال حافظ : « والله يا مولاي كما خلقتنى ا »

ورأى حافظ اماماً يكتب والقلم يتساقط منه المداد فقال « جفف عرقك يا امام ا » ورأى اماماً في بذلة بيضاء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء فقال له : « زرّ قيصك الا فرنجى ا »

وكان حافظ رحمه الله كثير التشكك في صحته مشغولاً بها، يتوهم في نفسه الأمراض

كلها ، لا يسأل عن علة إلا سأل عن عوارضها ليرى أهى منطقية عليه أم بعيدة عنه ، ثم يعيل في النهاية إلى الأخذ بأنه مريض ليجرد تشخيصه في شعوره بعارض من عوارضها . وقد ينتهى بالأحاساس بها فيتداوى منها ويتحدث طول وقته عنها . التقي بطبيب من أصدقائه فبادره بشكواه من الأعور وأشار إلى أعلى نخذه الأيمن فردّه صديقه الطبيب بأن وهمه بعيد عن الواقع الذى يعترف به الطب لأن الأعور يكون في الجملة اليسرى فعارضه : « وانت مالك يا أخى يمكن يكون أعور يمين ! »

ولو حاولت أن أسرد كل نوادر حافظ لامتدّ بي الوقت فلا ترك المقام لغيرى يتناول بقية جوانبه الممتازة وكلها بارزة ، فقد كان حافظ رحمه الله رجلاً بكل معانى الرجولة ، أديباً بكل معانى الأديب ، وكان طيب القلب طاهر النفس صافي الروح لا يحمل لأحد حقداً ولا يحاول الكيد لأحد .

وكان حافظ يعنى على أهل هذا الزمن وهذا البلد بوجه خاص ذلك القتال العنيف من أجل تلك الحياة القصيرة الرائلة ، بل ذلك النضال القوى من أجل ذلك العيش التافه المحدود ، وكان لا يرى المال إلا وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة .

وكان رحمه الله يعرف الشيء الكثير عن رجالات هذا البلد ماضيه وحاضره فقد أدرك أكثرهم في صدر شبابه ويده صباه ، وكانت صلته بالمرحوم الشيخ محمد عبده تمكنه من الاشراف من كتب على تصرفات كثير من الناس وحرركاتهم وسكناتهم ومحاولاتهم ، لهذا لم يكن يرى واحداً منهم بالعين الأخيرة الكبيرة بل كان ينظر لهم دائماً بالعين القديمة الصغيرة ، يذكر عن كل واحد من البارزين حادثة أو موقفاً أو مناسبة ثم يعلق عليها بطرفة من طرفه أو فكاهة من فكاهاته ويتندر بذلك فكان حديثه لا يعيل وكلامه لا يرغب عنه .

وكان حافظ يتبرم بعيل طائفة كبيرة من جبهة الناس هنا إلى المبالغة : فالعرب كل واحد منهم « شيخ عرب » ! وأين العرب أنفسهم ؟ علم ذلك عند الله ! والنبوغ لا يتسع إلا لواحد : فالدكتور على باشا إبراهيم جراح وكل من عداه « حمار » وسامى الشوا موسيقار وكل من عداه « حمار » ، ومحمد عبد الوهاب « المطرب الوحيد » وإذن فليس مطرب سواء ، وهذا المهندس ليس في مصر غيره ، وذلك

الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التي تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول !

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعنيههم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء في ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيها وأبلهها ! وقد سمعته يقول إن انجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بإدارة دفة سياستها . أما مصر فإن بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة في المواقف السياسية وفي المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشيء الكثير .

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونته إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر في خلقه ولا في رأيه في غيره من الخلق بل ولا في الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزّى عنه أسرة الأدب وأهلهم السداد والتوفيق في القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له في الأدب المصرى الوطنى من أثر ما

من العظيم



حافظ واللغة الفصيحة

كنت وعدت الصديق العزيز محرز (أبولو) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوف ، ولّى أعذارى في التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر في التحلل من ذلك الوعد ، فأتى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بدّ من إنجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهيجنى في كل لحظة ممثلة في بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائد^ة ولا قيل أين الفتى الالمى

ومرّ بالبال أنى شُغلت عن شهود جنازته ، فمن المروءة ان لا أشغل عن شهود ذكراه .

وأنا أقف في موكب هذه الذكرى عند نقطة صغيرة : هي عمل حافظ في انهاض اللغة الفصيحة .

١ — كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ كثيراً من الماويل والازجال ، وكان ينشد محفوظاته تلك في حماسة وإعجاب ، ولكن اتصاله بالامتاز الامام محمد عبده حوَّله الى قوة طاغية في مناصرة اللغة الفصيحة ، وصداقته للوزير المصلح احمد حشمت باشا دفعت به الى التفكير في رياضة تلامذة المدارس على فهم لغة القرآن ، فانشأ قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية :

أنا البحر في أحشائه الدر كامنٌ
فهل ساءلوا الغواصَ عن صدقاتي
وأخذ يخلق المناسبات للسخرية من أقطاب الأدب الحديث الذين عجزوا عن وصف ما جدد من المخترعات على حين استطاع البدوي ان يسبغ على ناقته ابلغ الصفات واشرف النعوت ، واليك قوله في مقدمة ترجمة البؤساء :

« تباركت اسمائك اللهم اأبدعي البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التي تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والسكرباء لانكاد نجد لأسمائها مرادفاً في هذه اللغة ؟ فاعسى ان تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه :

الايضاظ أبردا عظامي الماء والفتُّ بلا إدام
وهو فوق راحلته ظالع على قتب يكاد يدمى عجانته تحت شمس تكاد تأكل ظلها في مفازة .

تمشى الريحُ بها حيرى مولهةٌ حسرى تلوذ بأكتاف الجلاميدِ
اذا أردته على ان يصف تلك الراحلة العجفاء ، وأردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخواص ، وتقبوا أريكة الأوتيميل
تحت ذلك الظل الظليل ، في مخارف ضفاف النيل ، على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الدلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ، ولا مرادفاً في اللغة يؤدي معناه انخذوا ايها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين ايديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه ، وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم

يصيبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منها آمنين .

وخلاصة هذه الكلمة أن تخلف اللغة عن وصف المخترعات الحديثة ليس من عيوبها ، وإنما العيب عيب الكسالى العاجزين الذين لم يخلقوا من الألفاظ والتعابير ما حقق البدوى الضالّ في الصحراء . وسخرية حافظ التي قذف بها الأدباء منذ عشرين عاماً لا يزال لها مكان : فعمدنا بحمد الله مئات من الأشباح الجبيلة ترمى اللغة بالضعف والتخلف ، كأن اللغة تخلق نفسها خلقاً ثم تتقدم طائعة خاشعة لخدمة الأدباء سكان القهوات !

٢ — ومن أجل ما قرأت لحافظ رأيه في قوة الاصطلاح ، وهو رأى نشره في مقدمة كتاب الاقتصاد الذى اشترك فى ترجمته مع الأستاذ الجليل خليل بك مطران . وهو يرى أن الاصطلاح ليس بأوهى قوة من النقل ولا هو بدونه فى مراتب الهيمنة على اللغات « فإمن كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى الا وللاصطلاح يد فى حفظها من الموت أو الحياة » .

وكانت حياة حافظ نفسها دعابة لقوة الاصلاح ، وإن كنا لاحظنا أنه كان يخالف بين قوله وفعله ، فكان فى مجالسه من أوسع الناس صدرأ ، وأعرفهم بحجة الرأى ، فإذا نظم قصيدة أو انشأ رسالة تكلف وتمذلق واستوحى المعاجم واغلق الباب فى وجه الاصطلاح !

٣ — وأتم خدمة قدمها حافظ فى حياته الى اللغة الفصيحة هو تمكنه من الأدب القديم ، فقد كان يشعر بحجوة محفوظه وتنوعه ان العرب أفصح الناس وابلغ الناس ، وكان يتدفق فى انشاد الشعر القديم تدفع السيل ، ثم يطوف بمحذلق الملح والفكاهات البدوية والحضرية ، فلا تنصرف الا وانت أشوق الى دراسة الأدب الفصيح الذى يمكن مثل هذا المحدث من ناصية اللباقة والظرف وحلاوة الحديث .

وبعد ، فهذا ما سمح به المخاطر المكشود ، ولنا عودة فى الذكريات المقبلة ، فلن يكون هذا آخر العهد بشاعر مصر والنيل

نكى مبارك

صفحة مجهولة

من حياة حافظ

من أوليائه

في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأشمدي بطنطا وقد سافرت في أيام العطلة الى بلدنا القرشية ؛ ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة الى طنطا ، فاذا باخواني واصدقائي يلوذون بفتى غص الاهاب جديد الشباب وقد أمرعوا بتقديمي اليه وتقديعه الى باسم الأديب الشاعر « محمد حافظ ابراهيم » ولم تمر الا عشية أو ضحاها حتى أحضرت من تقمى ميلا اليه بمجاذب من الأدب القدي كان نعمة تقمى حتى آل ذلك الى غرام بأذيه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

وكان دأبنا في رمضان تلك السنة أن نصلي المنرب والعشاء والتراويح معاً ثم نلبث في سمر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر الأدب وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتي وقت السحور . ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه الى انبثاق الفجر فتؤديه ثم يخرج بغلس الى خارج المدينة حتى نصل الى قرب بلدة فحافة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلع فيذهب كل واحد منا الى بيته ثم نعود الى مثل ذلك إذا جن الليل .

وكان الذين اعتادوا الخروج معنا الى ما نخرج اليه هم :

(١) محمد حافظ ابراهيم (٢) محمد حلمي الجيزي أفندي عمدة الجيزة سابقاً (٣) السيد محمد ابراهيم صلاح التاجر بطنطا الآن (٤) الشيخ محمد ابراهيم البيومي من مدرسي الازهر الآن (٥) كاتب هذه السطور عبد الوهاب النجار .

ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفي أواخره بصرنا ببشروش جميل الصورة في حديقة مدرسة الفرير ، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه فكان المنظر جيلاً . فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال . ولكن جماعة الفرير ظنوا تعمد ذلك لافلاق راحتهم ، فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس وأمرعنا الخطأ حتى أتينا إلى مدرسة الفرير والظلام لم يقوض خيامه ، وما أن تقدم واحدنا لتجريبك حلقة الباب حتى هب جماعة من الفلاحين قد أكنهم جماعة الفرير للقبض

علينا فعلقت حباتهم بمحمد حافظ ابراهيم شاعر النيل ومحمد حلمي الجيزي افندي .
أما أنا والشيخ محمد ابراهيم البيومي فاسلمنا أرجلنا للريح وطرنا مع البازي عليه
سواد ولما أمنا الطلب وقفنا ننتظر اخوينا الى ان فضحنا النهار ولم يبق للانتظار
فأثد فذهبنا بحمرة ما بعدها حسرة — وكان السيد محمد ابراهيم صلاح قد
تخلف عن الذهاب معنا في هذه المرة .

ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك وقد
اتفقت مع السيد محمد ابراهيم صلاح والشيخ محمد ابراهيم البيومي على أن يكتبنا
إلى بما يتم من أمر حافظ ومحمد افندي حلمي وأن يلحننا لي لحناً أعرفه ، وذهبت وأنا
على آخر من الجمر — وفي اليوم الثاني من أيام العيد وافتنى تذكرة بوسنة من المرحوم
حافظ بك بماتم :

وذلك انه لم يرفع النهار حتى ذاع الخبر وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا .
وعلم كل من المرحومين نيازي افندي مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ
محمود الجيزي شقيق حلمي افندي ، فذهبا إلى جماعة الفرير وكلهما في هذا الشأن
فرضوا باطلاقها (وكانوا قد سلموها إلى الضبطية) بشرط أن يعودا إلى المدرسة
ويستسمحا ، ففعلا وانتهى الأمر باطلاقها .

وبما حصل لحافظ في ذلك العهد أن خاله أغلظ له القول مرة في شأن من الشؤون
وزجره ، فكتب إلى خاله :

نقلت عليك مؤونتي إلى أراها واهية
فأفرح فاني ذاهب متوجه في داهية

وكان كثيراً ما يشكو الدهر ويندب سوء حظه ويتبرم بأحداث الزمن ويتمنى
لو يوافيه حمامه — فمن ذلك قوله :

حببت لعمرى كيف مده فطالا وما أثرت فيه الموم فزالا
وللموت ما لي قد أراه مباعداً وجل مرادى ان أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلاً ، وكنت السيد المفضلا

ولقد أوردت عليه هذه الأبيات قبيل وفاته فتمعجب أن يكون هذا الشعر
صادراً منه .

ومن آيات ذكائه أنه كان يسمع الفقيه في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التي قرأ بها الفقيه !

وكان إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع يبادر إلى قبل أن يُسمعه انساناً آخر ويسمعي ما أعجبه ، وكان لا يُعجبه الا كل مرقص مطرب .

حافظ المحامي

كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، وليس للمحاماة قانون مسنون ، ولا توجد شهادات حقوقية في طائفة المحامين ، ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث ، فكل ذي قضية جاء بشخص وقال إني وكلته فقبل منه .

وقد ضجر حافظ من فراغه ، فذهب إلى المرحوم الشيخ محمد الشيمي المحامي بطنطا (بك فيما بعد) واشتغل عنده في مكتبه ، وكان يسافر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويرافع في القضايا ويكسبها .

وخلاف حصل بينه وبين محمد الشيمي بك ترك كتبه وترك له هذين البيتين :

جربابُ حَظِّي قد أفرغته طمعاً بباب أستاذنا الشيمي ولا عجباً

فعاد لي وهو مملوء فقلت له : ممّا ؟ فقال : من الحشرات واحرباً !

فأسف المرحوم الشيمي بك لخروجه وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل معه في مكتبه فلم يقبل .

انتقل بعد ذلك حافظ إبراهيم ليشغل في مكتب محمد إني شادي بك بطنطا فكث معه مدة كان فيها مغتبطاً كل الاغتياب ، وكان أبو شادي بك يرى نفسه قد عثر على كنز ثمين فكانا يتنادران بالأدب ويتطارحان الأشعار إلى أن خرج حافظ من مكتبه إلى مكتب عبد الكريم فهم أفندي المحامي فكث فيه مدة من الزمن يشتغل عنده . وكان مكتب عبد الكريم فهم أفندي ومكتب إبراهيم الهلباوي بك متجاورين ومحلها كان بالوكالة التي جُمعت فيما بعد المعهد الاحمدى ، وكان كثيراً ما ينتقل إلى مكتب إبراهيم الهلباوي بك الذي يسمّى بمجديته وأدبه .

﴿ مرثية حافظ ﴾

لاستاذه وصديقه القديم محمد ابى شادى بك

كان المرحوم حافظ ملولاً فكان قليل الكتابة بل نادرها ، وكان لا يأنس إلى تدوين شعره مكتفياً بإملائه عن ذاكرته القوية ، ولذلك نجد نماذج خطه نادرة وخاصة شعره . بيد أننا نجد حافظاً يشدّ عن هذه القاعدة في مرثيته البليغة المؤثرة لاستاذه في المحاماة وصديقه وزميله في الأدب المرحوم محمد ابى شادى بك . وإليك نصّها الكامل كما كتبها ، وهى منال من وقائه الرائع :

عجبتُ أن جعلوا يربوا لذكر اكا
 كأننا قد نسينا . يوم متعاكا
 اذ كنت يا ابا شادى طوقه
 ذكر الراحل شق أنا شعوناكا
 لاجبة النيل والوادي رسا كينه
 جمع لصوصك موصول بذكر اكا
 بد عشت قينا نيمرا طاب موردا
 أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا
 فما كأدراكك ، بتر ذرى كرم
 أولى كريم ولا عقبى كعصباكا

فضيلة الوضوء المعبود من ملائكة
 أنحاء فمكة شغلوا عنه فضاياها
 أبدلت بيل نادر المحلص إلى
 ديار سر ملك أنى شئت فتأما
 أجهت ما فصلوه في تصايدهم
 متى لقد نظروا بالحد مشوا كما
 لم يبق لي قيد شبر صاحب دلم
 يمسح لي القود لا بعد ولا ذاك
 يا ندم من الذكر والنسب كمشا
 ها اسد والخلد قد جادرت مولانا
 لو لم يكن لك دسا لك فخر
 سوى ركني لقد جملت دسا كما
 مفضا

رحل بعد ذلك حافظ ابراهيم الى مصر ودخل المدرسة الحربية وكان دخولها منتهى ما يتمناه . وعقب ذلك رفعت دعوى على خاله محمد نيازي افندي بمحكمة طنطا الاهلية وحُكم عليه بسنتين . فنظم حافظ قصيدة للخديوي المرحوم محمد توفيق باشا يستعطفه بها على خاله ، فوفقت قصيدته من نفس الخديوي موقعا حسنا فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرسا للامراء أحمد سيف الدين ومحمد ابراهيم وشويكار هاتم ، وبقي بعد مفارقتها عهد الدراسة يستولى على مرتبه الى وفاته .

وأما حافظ فقد تخرج من المدرسة الحربية سنة ١٣٠٩ هـ . وتقلبت به الاحوال الى أن صار شاعر النبل غير مدافع . فرحمه الله رحمة واسعة وعوض مصر والعربية فيه خيرا ما

عبر الوهاب النجار

حافظ لسان عصره

أصبحت أجفل من الشعر وأفرق من الكلام فيه وأستجير منه بالحذر ، وأحسب ذلك لاثني طائفت أزم التعبير به زمناً فأخفقت ، وعدت أندم على ما أضعت فيه من جهد وعمر ، وأعجب للفرور الذي كان يزين لي الزهو به . ولست أتكلف التواضع ، فإن هذا ما أنطوى عليه الآن من احساس ورأى ، وقد يتفق لي أحياناً أن تقع عيني على جزء من ديواني فأفتحها وأقلب صفحاتها وأقرأ ابياتاً هنا وأخرى هناك ثم أطوى الكتاب وأرده الى حيث كان مدفوناً وليس بي الا الدهشة من أنى كنت أعدت هذا كلاماً يستحق النشر والاذاعة . وكنت قديماً أنطاول على الشعراء وأنناول بالنقد واقسو في ذلك عليهم واعنف ، بل لقد افتتحت — اوعلى الأصح كان مما افتتحت به — سيرتي في الكتابة بأن تقدمت حافظاً رحمه الله في سلسلة مقالات كنت أعز بها واعتدها شيئاً ثميناً لجمعتها ونشرتها في كتاب بيع من نسخة القليل وتسكدهس أكثرها عندي فبعته لبقال رومى — لعله أمي أيضاً — ليلف في ورقاته ما شاء من جبن وزيتون أو يفعل بها ما هو شر من ذلك . وقلت

وقد خلصت أنفاسي واستراح قلبي : هذا خيرٌ ، فما يستحق مثل هذا النقد الا هذا المصير .

ولم يتغير رأيي في الشعر ولكنني صححت موقفي من حافظ ، فهو عندي لسان العصر الذي عاش فيه ، وصوت الشعب الذي انجبه ، ولم يكن العصر يحتاج الى ارفع من هذه الطبقة ، ولا كان الشعب يقدر ان يحسّ روحه الا في مثل شعر حافظ . نعم ظهرت المدرسة الحديثة في الشعر والأدب على العموم منذ أكثر من عشرين سنة ولكنها لم تكن مدرسة « شعبية » فلم تستحوذ على الجمهور استحواذ حافظ عليه ، ولم تستول على هواه مثل استيلائه ، ولم يتصل ما بين هذه المدرسة الجديدة وبين الشعب الا بعد أن أخذت دائرة الثقافة في الاتساع .

لحافظ شاعر شعبي ، ولست أقصد الى الاضرار به أو الغضب منه ، فإريد أكثر من ان اقول انه بصور روح الشعب الموجه الحزين المتجملد في شيء من الوجوم والدهشة والحيرة : الحيرة في امر نفسه ، والحيرة في امر هذه المقادر التي لا تجري الا بالدواهي والأرزاء . وما قرأت شعراً لحافظ الا أحسست ذلك منه . واكبر ظني ان غيري من القراء مثلي . وليس بالقليل ان يكون رجلٌ لسان امة والهاتف بنجوى ضميرها وسر روحها ، مهما كان الرأي في قيمة الشعر من حيث هو شعر وبغض النظر عن بواعثه وعن الروح التي صدر عنها الشاعر والغاية التي اعتمدها وقصد اليها ؟

ابراهيم عبر الفادر المازني



موكب الذكريات

أو

الناي الباكي . . .

(مهداة إلى روح المغفور له محمد جافظ ابراهيم شاعر الجبال والذكريات)

مالك اليومَ واجماً يا خيالي كيف لا ترسمُ الدموعَ الغوالي ؟
سقطتُ فوقَ صفحةِ الخلدِ دُرّاً ونهادتُ فضيضةً كاللآلي

هبطت : كلُّ دَمْعَةٍ كوكبٌ نَفِمْ ، عَظِيمُ الضِيَاءِ ، ساميَ الجِمالِ
وبروحى أفديك من ألمِ الوجْدِ ، حَيَاتِي ، ومن ضَيِّ وهزالِ

« ٠ »

وعجيبٌ يا فنتى أنْ نلوحى ثَرَّةَ الدَمْعِ ، وهو من قَبسِ رُوحِي
كان خيراً — لو ترأفين بحالِ — حُبُّهُ ، إني كَثِيرُ الجُروحِ
أفلا تعلمين أنْ فؤادي مَنبِعُ العشق والهوى والطموحِ ؟
أوهل تُتكرين أنْ دموعاً منك تُعْرِى شِغافَ قلبي الطليحِ ؟

« ٠ »

ولربُّ ابتسامةٍ منكِ بالأُمسِ أضأتْ بِبِسْمَةِ السَّعَادَةِ
وأحاطتْ رُوحِي بهالةٍ حُسْنٍ طالما قد خَصَصْتُهَا بِالْعِبَادَةِ
وفؤادي يا طالما عندها صاغَ قَصِيداً مُنْقَضِداً فَأَجَادَهُ
صاغه من نسائمِ الفجرِ شعراً وسقاه وجدانه ووداده

« ٠ »

والذى يقتل الشعورَ أدْكارِي زمنَ الوصلِ إذ وقفتِ جِوَارِي
والعبورُ الظُّلُمَةُ تُوحِي مع الصمتِ كلاماً يهيجُ منه أَوَارِي
والشفاهُ الرقاقُ تهفو على القُربِ لرشفِ مَحَبِّبِهِ واعتصارِ
ولهيبٍ من وجنتيكِ مَضَى خَمَةَ الليلِ ... يا له من نارِ !

« ٠ »

كيف أنسى النخيلَ في جانبِ الجدولِ طالَتْ ترومُ لَمَسِ السَّمَاءِ
ترسلُ اللحنَ ، حينما تخطرُ الرِّيحُ حَزِيناً وَمُشْجِياً كالرثاءِ
شربتُ من دماءِ قومٍ تولَّوا فاستطالتْ فروعُها في الفضاءِ
وكذاك الحياةُ تُقْنِي لِتُعْطَى وعطاءُ الحياوِ بابُ الفناءِ

« ٠ »

كنتُ يا طالما أُصوّبُ طرفي في فضاء الوجود أنشدَ فَنَها
لم أجِدْ غيرَ أننا في وجودٍ يُذْهِلُ العالمَ البصيرَ فيمعى
كلُّ ما فيه مُلغِزٌ ، لستَ تدربه ، ولو كنتَ قد تمكنتَ عِلْمًا
بَيِّدَ أننا ، هُنا ، نحاولُ بالشعرِ بيانًا لكلِّ لغزٍ مُعَمَّى

« . »

وإذا ما التوى على الفهم شئٌ فابعثْ الشعرَ صوبَه يَنهَادِي
إن بالشعرِ ينجلي كلُّ غِيبٍ وبه تُصْبِحُ الوهادُ مهادًا
أرغى العيش ، مزهرُ الروح : نجواه سدادٌ لمن أراد السدادَ
يرسم الكونَ كبها شاء ، لا يتبع رأياً ، ولا يلين انقيادًا

« . »

يا عزاء النفوسِ في ساعةِ اليأسِ ، وساقِ النفوسِ راحَ السرورِ
فَمُ ، تَحَدَّثُ عن الفؤادِ ورجَّعْ نغماتِ الآسى ولحنَ الجبورِ
لا تُفَرِّقْ بالله بين شجونى وسرورى ، فكلُّ ذاك شعورى
مُلهمَ الروح .. فَمُ أبا شعرٍ واهتفِ أنتَ خدنى ، وناصحى ، وأميرى

« . »

ما الغرامُ الذى به نَتَغَنَّى كلَّ يومٍ في نثرنا والقصيدِ ؟
أهو حُبُّ الجمالِ والعقلِ ، أم هل هو حُبُّ الغنى وحُبُّ الخلودِ ؟
الغرامُ الغرامُ نورٌ من الروح ، سَبوحٌ بروحِ طيرٍ شريدِ
ساربٌ في سماوةِ الكونِ يرنادُ فضاءَ مُنْزَهاً من حُدودِ

« . »

يُذْهِلُ الناسَ طائرًا ، فإذا حطَّ بقلبٍ ، أصابه فاعْتَلَا
هو نورٌ ، لكنه حينما يطرق القلبَ سَعيَرٌ في نارها القلبُ يَصْلى
هو روحُ الحياة ، يستعذب الخلقُ الأمانى متى بدا وأهلاً

يخلق العلم والنوع ويُفنى كل فن إذا طغى وتولى

« . »

يا فتاوى ، أعذ على غرامى ونحدث عن شقوى وسقامى
بث في الشعر ما عرفت عن الغيد ، ولمنى إذا رأيت ملاهى
علم الله كم قصرت بيانى وقربضى على الهوى والتسامى
ولكم كنت أنفع الغيد بالشعر ، فما كن يستسفن كلامى

« . »

كيف بالله يستنبح جهول آية من بلاغة وبيان ؟
كيف بالله نفهم الشعر أو كيف تحب البيان هذى الغواني ؟
هن برزن في مغازلة الناس ، وقد فتن في صنوف الدهان ...
ولقد كنت كيفما شئت دهرآ ذا مجون وخبرة بالחסان ا

« . »

وسقى الله ذلك العهد ، قد كنت سعيداً به وكنت طروباً
حيث كنا نزعى للكواكب زهراً ونرى في السكون سحراً عجيباً
غمر الحسنى كل شيء فبقنا نحسب الخلد في الحياة قريباً
بارعى الله في ترى (أجل) كوخاً صغيراً لقيت فيه الحبيباً ...

« . »

ضرب الدهر بيننا ففدا الجسم تحيلاً كدارس الاطلاع
ونرى الشوق بالفتاد ففنى باكى الشوق في القوافي الطوال
وله العذر ... كيف ينسى التلاق في ضياء الهلال والعيش حال
والسكون المقيم أرخى سدولاً تحجب الحب من أذى العذال

« . »

والنسيم البليل من جانب الجدول ، يهفو يعانق الأرواحا
هب يذكى الغرام في خافقيننا ثم ينفض عن النفوس الجراحا

يدفع القلب لاهتـ الشغـر للرشف ، فيجسو من اللـمى أقداها
والعناق العنيف كم جمع القلبين في سورة الغرام فناها

« . »

مَن يقول الغرام اثم وعار قل له أنت جاهل لست تدري
أنظر الحب في الحائل يا غر ، عنيفا ما بين زهر وزهر
وانظر الحب في الربى كم تبدى عاصف الشوق بين طير وطير
إنما آبه الحيا هو الحب ، فن لم يحب ماش كصغـر

« . »

رُبَّ حُسْنٍ في الروض أبـظـجـى وأهـاج الكـين من أفـكارى
كم مـشى القلب صوبه يتغنى بنشيد ممت به أشعارى
حبذا وقفـى مع الزهر في الروض ، أقول القصيد في الـابكار
والطيور الخفاف تطفر نشوى وسكارى ، وما انتشت من عقار

« . »

آو .. ما غرّـر الجـال بقلـبـى فدهانى وصرت منه المـعنى ؟
أهو أنى نفحتـه وجدانى ودمائى مـراقـة ، فتجنى ؟
أهو أنى بكرت كالبـلبـل الصـداح في الروض ساجعا أنغنى ؟
أهو أن الدموع مـنى حـررى صـغـنـها في مـديـحه خـير معنى .. ؟

« . »

وأنا شاعر المـلاحـة مذ كانت ، وفي أى صورـة تنجلى
أجنليها بخاطرى وفؤادى وبفكرى ، بما ترى العين ، أـحلى
نظرة القلب بعدها نظرة العين ، وشتان بين علـيا وسـفلى
رُبَّ أعـمى العـينـين ينظر للـشـئ بقلـبـه منور بـتـعلـى ا

(روضة الشعر) كيف أزهارك اليوم ، وكيف الطيور في عذباتك ؟
 كيف حال (البحيرة) الضحلة الماء ، وكيف (النخيل) في جنباتك ؟
 كيف (دوحاتك) البواسق أسدلن شعوراً ، وكيف حال (مسباتك) ؟
 تمتلئ (الفلك) في (البحيرة) جذلي وتشم العبير من زهراتك

« . »

تبعث الشجوة في الفؤاد بمجداف إذا صافح (البحيرة) رتل
 وتغنى فينصت الطير في الدوح ، ويُسبى الغناء أرخم بلبل
 زهرة الروض في الاصيل وفي الفجر ، وريحانة الفؤاد المبلبل
 طالما صُغت في هواك قريضاً زاهياً كالورود ، بل هو أجل

« . »

وحينني إلى لقائك يدوي بفؤادي دوى حيران جائر
 يرسل الدمع والأتين هباءً وإذا هم ، أقعدته المقادر
 حزبه الأيام في ميعه العمر ، وقدته بالسيف البواتر
 حطمت كوخ حبه ونفته عن فتاة الاحلام أخت الجاذر

« . »

رب ، ماذا جناه قلبي فيشتي وبخمر الصدود والهجر يُسقى ؟
 ماوني الدهر عن هواه ، فأرداه وشيكاً وسامه الخسف رقاً
 رب إني جُنت من وثبة الدهر ، واني أكاد أزهر عشقا
 وترسى عائدته حبيبك يا قلبي بـ مُننياً ، أم عاف حُبك حقاً

« . »

وتعالى يا طير واسمع شكائي آخر الليل في خفوت وهمس
 أرقب النجم في الدجى رقاً كفوادي إذا طغى بي يأسى
 وأقول القريض فيه عزائي وبه راحة لقلبي وجسى

وإذا عَضَّكَ الأَسَى ، فالتقوا في عند جاماتها شرابُ التأمي

« . »

وإذا ما أردتَ نظمَ القوافي فليكنْ في المروج والأزهارِ
إنها — لو عقلتَ — أظهُرُ روحاً من ملاحٍ ، غرامُها كالقمارِ
وقلْ الشعرَ في جمالِ الأماصي وتونم بحسنِ شمسِ النهارِ
حَسَنٌ كُلُّ ما على الأرضِ من زهرٍ ومن أنهرٍ ومن أطيارِ

« . »

ولماذا الأثينُ ؟ حطمتَ نفسَكَ وعلامَ النحيبِ والعيشِ زَهْرُهُ ؟
أتمدُّ الحياةَ خلواً من الخيرِ ، وفي كلِّ ما ترى العينُ خَيْرُ
لا تُحَقِّرْ مستصغراً وضعيفاً ربما منه قد يُصيبك بِرُ
رُبَّ كلبٍ أطمعته ، يمنع الضَّرَّ إذا ما أصاب بيتَكَ ضُرُّ

« . »

وعزاةَ النفوسِ أن تُرسلَ الدَّمرَ ، إلى باري الدُّنا قُرْبانا
يَعمرُ الروحَ عند نجومِها نورُ يُنعم القلبَ رحمةً وحنانا
ويشيع الهدوءَ في كلِّ فجٍّ وتُعنى قيثارتى الإيمانِ
تَنشُدُ الخالدةَ الجلالةَ والحُسْنَ نـ ، فَمِنْ حُسْنِهِ قَبَسْتُ البَيانا

فخنا الوكيل



حافظ كما عرفته

حافظ — ومن أسماء فقد كنَّاه — يظلمه من ينظر إليه شاعراً فقط ولم ينظر إليه « رجلاً » كاملَ الرجولة . يعلو عن قشور النثر إذا ما ذكر الأدب بشعره الفعل في الشعر ونثره الفعل في النثر ، وبقوة بيانه وبلاغة لسانه وبعدوبة حديثه إذا حدث وسعة ذاكرته إذا روى كأنما تلك الذاكرة الواسعة دواوين عن الشعر ومؤلفات

جمعة من روائع البلاغة والحكمة ومعجم عربى لا نقصان فيه ولا أخطاء .

أما اذا ذكر صفاء الذهن ورقة الخلق وبسطة الكف والسماحة وصدق الود والوفاء وسذاجة الحلم والقناعة والوفاء وكل ما عدا العرب في شعرهم وحكمهم وبلاغتهم من الفضائل فان حافظاً — رحمه الله — كان الأول فيه والأخير أو بعد الأخير في ما يذم ويستنكر .

أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها الا دينه المحمدى المتين . فلك من حافظ ما شئت الا أن تنال من هاتين الخليتين دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية الا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيدهما ، وقد طبع على ألا يتقيد بشيء حتى التقاليد والنقل ومتابعة الناس بعضهم لبعض في ما يجمعون عليه اما بعد البحث والتروى واما بالتصديق والمتابعة بلا بحث ولا تدقيق . فالناس جميعاً معجبون بحضارة أوروبا وتقاليد الاوروبيين ، أما حافظ فانه طاف مدن أوروبا فلما عاد منها عاد ساخطاً على تلك المدن والتقاليد « التي تجعل الناس سجناء وتحرّمهم الحرية باسم الحرية » في ما يسمونه أوطانها .

هكذا كان يقول لنا حافظ الذى كان يكره التقيد في ما تواطأ الناس على التقيد به سواء أكان في مأكلهم أم مسكنهم أم أفراحهم أم أحزانهم أم مجالسهم أم مسايرتهم أم معاملتهم ومع ذلك كان الشاعر الفحل المقيّد بالقافية والروى وكان الكاتب البليغ القذ المقيّد بالسجع والعبارات الموجزة كأنها في أوزانها قطع من الموسيقى بمقاطعها ومصارعها .

حافظ يظلمه من ينظر اليه من ناحية واحدة ولم ينظر اليه رجلاً بارزاً كل البروز من كل ناحية من نواحي نفسه وخلقه ، سواء اتفق ذلك مع خلقنا ونفسيّتنا أم لم يتفق وسواء أكان مما ألفنا مدحه لانطباعنا عليه أم لم نألفه ، وسواء اتفق الناس على عده حسناً موائياً أم لم يتفقوا ، حافظ كان شخصية بارزة وأول الأدلة على بروز شخصيته انك اذا التقيت به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع في ذهنك صورة جسمه القوي العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الاعضاء ورقة صوته وغنّته وحركة يديه الفصيحة وتهدّل جسمه اذا مشى على حركة يدين كنجذ في السفينة وارسال عباراته في التبسط أو في الجواب كأنما كل نبرة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلاً ولا حواراً . كذلك هبت الحكمة في ذهنه

يجرى على لسانه وكأنها قطعة من الوحي بعبارة وجيزة ولفظ جزل تنفذ كالسهم المطلق الرنان فتقفل باب الحوار والجدل وتكون الحجة الدامغة والبرهان القاطع .

حافظ شاعر ، والشعر قطعة من الموسيقى أو هو هي ، والشرقيون موسيقيون بطباعهم ومزاجهم يستهويهم اللحن والنغم ، لذلك غلبت الشاعرية في حافظ ووصفه وصفاته مع انى لا أجده مفصلة بين شعره المنتقى ونثره المنمق المتين البليغ العبارة فقيم كانت شاعرية حافظ غالبية على نثره اذا نحن لم نضع في احدى كفتى الميزان الى جانب الشعر او النثر طائفة القارىء العربى ونفسيته ؟

أما الخيال وأما التخيل في شعر حافظ فقد يكون أقل منه في شعر سواه من خول الشعراء ، وأما الحكمة وأما الديباجة وأما الحقيقة والواقع فهي في شعر حافظ أقوى منها وأمتن وأصدق من شعر كبار الشعراء ، فهو بشعره يتحدث الى النفوس بقوة الحجة حتى تخال البيت اذا تلاه حافظ يدوى كالقذيفة وينفذ كالسهم ، فاما أن يخلق في نفس السامع عقيدة واما ان يهدم إيماناً ، وهو في الحالتين يملك العقل ويغلب القلب ويتولد عنه الإعجاب والإقناع . وائى نفس لا تستنار بمثل قوله وهو يصف هلال غرة السنة وقد أطل على الألوان . . . ؟ وائى نفس شمس تنفلت من قوله وهو يرثى أحب الناس اليه الشيخ محمد عبده و«سلامه على الاسلام بعد محمد» ؟ وأية عقيدة لا تنزعزع وحافظ يقول في تعيين رجل الأمة سعد زغلول وزير المعارف « فادام في قصر الدويارة ربّه — فسمعدودناوب لعمرك واحد » فهل هناك خيال فتان ساحر أم هناك حقائق رائعة ليست انغم كساء من اللفظ الجزل الموسيقى ؟ ألم يقض حافظ ببنت من شعره على تلك الحملة الهوجاء التى أثرت على السوريين من أجل خطبة احدى الصحف بقوله عن الأمة السورية « فصاخوها نصافح نفسها العرب » ؟ ان الذين عاشوا تلك الحقبة يذكرون ان هذا الشعر من نظم حافظ كان كافياً لمحو مجلدات من أقوال الصحف ومجلدات من أقوال الخطباء فيمن نعتوهم يومئذ بالدخلاء

كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره بصقله ثم بصقله ثم بصقله ، حتى اذا ما تم صقله ووثق بأنه صار صمورة صادقة لما يريد تصويره تغنى به وردده فاذا أطرب واذا هو طرب لتلاوته عرضه على تحبة من الادباء الذين يخشون لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند بل يباحث فاذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يعز عليه هدم ما بنى

وتشيد سواه ، أو نثر ما نظم ونظم غيره . وأول مختاربه كان المرحوم اسماعيل باشا صبرى
وثانيهم خليل مطران الذى كان يقدمه على سواه ويخلص له فى السر والعلانية وينزهه
عن الغيرة والمزاحمة ويتمتد أنه اذا نظم « حلق بخياله الى جو مال يكاد لا يلحق
بنفسه فيه » حافظ على متانة نظمه ونثره وعلى سعة معرفته بلغته وعلى سعة روايته
التي لا يلحق به فيها لاحق كان أقل الشعراء والكتاب استثناء رأيه وأكثرهم
تساؤلا وسؤالاً واستفهاماً ، والأثرة والانانية بالادب أول دليل الفقر بالبضاعة والجهل
بالصناعة .

اذا لم يكن حافظ ممن ارتدوا فضيلة ضبط النفس فكان يقول للأعور يا أعور
بلا محاسبة ولا مصانعة فانه كان شديد العناية بالانتقاد فانظر اليه وهو ينتقى الفاظه للنظم
وعباراته للنثر تجده فيها الصائغ الذى يقلب جواهره ، وانظر اليه وهو ينتقى جلاسه
وعشراته تجده الحضيف الذى يبحث عن اللطافة والذكاء والانانية فلو أنه خير بين
معاشرة أكابر العالم ومعاشرة الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلي لما تردد فى
نبذ الأكابر واختيار هذين العشيرين وأمثالهما ليرشح عن نفسه ما يمكنه وليجد
فى هذه النكتة مظهر الذكاء والفطنة والطف ، واذا ثارت نفسه لأمر امتحال عليه
أن يضبط جواهرها ليجامل أو يصانع .

واذا هو لم يوهب حب النظام والأناقة حتى شعره ونثره كان يكتبه على تنف من
الاوراق تذويب بين أصابعه ، فانه أوثق قوة الذاكرة حتى يستطيع أن ينشد :

علمى معى حينما يمت بتبعنى صدري وطأ له ، لا بطن صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

فليس اذن من العجيب إلا يجدوا شعر حافظ بين أوراقه . وليس من العجيب إلا
يجدوا بين مخططات حافظ ورقاً فكل ما نظم حافظ كان مطبوعاً فى ذهنه ، وكل ما
حفظه حافظ كان مصوناً فى ذاكرته ، والمخفوظ من نظمه هو القليل النادر كالفصائد
التي أملاها على صديقه محمد ابراهيم هلال قطبها فى مجلدين كالفصائد التي نشرتها
الصحف . وأما ما نظم ولم ينشر — لأن نشره غير موقوف على بلاغته — فكثير ورواياته
قليلون لأنه كان يكتفى أن يرضى نفسه بنظم ما هو فيض منها وغنو السجعية دون
أى اهتمام بحفظه أو تدوينه ولا تأخذ بالسيئة هوادة ولا بالحسنة مصانعة خصم
أو صديق . ولا أخشى أن أشبهه بالبحر ركوداً إذا لم يطب له الكلام أو الموضوع

الذى يعالج، وبالبجر فيضاً وتدفعاً اذا طاب له الكلام أو الموضوع الذى يعالجه .

• • •

عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ وقد جاءه من السودان أو بالأحرى جىء به منه حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشرة مع الخديوي عباس باشا الثانى ومكانبته سرا بعد افتتاح الخرطوم عرفته وشوق يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالأهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحبلوا الى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكبل الدولة الانكليزية وكان يطلب من الخديوي فوق ذلك اعلان استنكار عملهم والخديوي ياطل ويتردد فلما أحبلوا إلى المعاش اهتم الخديوي بأمرهم ليجدوا مرتزقهم .

وهذا ما أوصل حافظاً الى الخدمة بدار الكتب وكانت قبل هذه التسمية الحديثة تسمى المكتبة الخديوية لأن الخديوي اسماعيل أنشأها، ومع اهتمام الخديوي عباس بأمره التحق حافظ بالشيخ محمد عبده وأصدقائه كسعد زغلول باشا وقاسم أمين واللقاني وأمثاله لان حافظاً لم يؤت فضيلة ضبط النفس كما قلت فاطاع نفسه الى حيث مالت مزديراً بمنفعته . وباستطاعنى أن أقول إن أواصر الصداقة تمكنت بيننا وازدادت مع الايام تمكناً فعرفت منه خوالج نفسه واطلعت على كل بيت نظمه وسطر كتبه قبل إذاعته ونشره . وتعب الكثيرون من أصحابه فى ان يحملوه على التداوى من داء السكر فلم يفلحوا ووفقت الى ان افنعه بالتداوى ولكنى لم اوفق إلى حمله على الاستمرار لانه كان ملولاً نفوراً بطبعه .

أكتب اليوم هذه الكلمة عنه وأكاد أحس بروز شخصيته بروزاً يطبعها فى كل ذهنى كأنه مائل امامى ، وكان يلقانى كلما وقع نظرى عليه فى أواخر أيامه بهذه الكلمة : « اقدمشنا طويلاً وعمرنا . أفلا نحس مثلى بدبيب الفناء وقرب الموت ؟ »

إن حافظاً أحس بدبيب الموت فى جسمه قبل أن يصل اليه ففاجأه وهو ينتظره وذهب إلى ربه بحجة ناضرة وعين ناضرة ؟

داود برطانت

حافظ كما عرفته

لعل في أعناق بني أباطة واجباً كبيراً نحو الذي قال فيهم :

بني أباطة لا زالت دياركمو أفقّ البدور وقاباً للصناديد

فقد طوّفهم حافظ بمدح الخالد ، وفلدهم من جيل شعره الرصين ، بما سوف يبقى على مر السنين ، وليس فينا من لا يشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء ولكن شعوراً آخر يقعد بنا عنه هو : العجز عن حسن الاداء .

ولكنني دعيت لتخليد ذكرى صديقي بعد أن هجرت الصحافة للفلاحة ، والطرس إلى القاس ، لا تبرماً بالادب ، ولكنه الملل والبأس ، وجئت اليوم متناقلاً ، بهمة متداعية فائرة ، ألقى الدلو في الدلاء ، وأزاحم بئسبى الادباء والشعراء ، تلبية لداعى الوفاء .

عرفت حافظاً من ثلاثين عاماً ، يزورنا فيملاً بيوتنا بهجة ويشيع فيها المرح ويصرف أبناء الأسرة وشبابها إلى معالجة الادب والرياضة العقلية والمفاضلة بين الشعراء وتذوق النكات اللاذعة حلوة أو مرة ، ويرجع الفضل في ارتباطنا به للإمام الشيخ محمد عبده فقد كان صديقاً حميماً للمغفور له سليمان باشا أباطة أحد وزراء المعارف السابقين ، وكان الباشا أديباً كبيراً وشاعراً مجيداً . فأعجب حافظ به ، وافتتن هو بشعر حافظ وأدبه . ووجد الشاعر في عميد أسرتنا ما يصبو مثله له : الأدب والشعر والجاه والوفاء وكرم الاخلاق . فلم لا يتعلق به وكفى بالادب وحده صلة بين الرجلين تجمع بينهما وتوثق بين قلوبهما العلاقة مع امتناع المنافسة ١٩

لقد والله سمعت حافظاً غير مرة يشد بيتاً لسليمان باشا أباطة من قصيدة له في رثاء أخيه المغفور له السيد باشا أباطة :

ولو أن إبلازم الليالى من الاسى ووقع الخطوب السود ما طلع الفجر
ويقول وددت لو أن لي هذا البيت من الشعر بنصف ديوانى كاه .

وسمعته يردد مع شديد الاعجاب قول الباشا في الفخر :

سيوف ثباتى في قراع الشدائد تجردها أيدي التجلبد لا يدي
يقولون سالمين إن كنت ذا نهى وعزى يقول الحزم قع المعاند

ثم مات سليمان خمل صديقه الشاعر قيثارته يرسل من نغماتها أشجى عبارات
الأمى ويبكيه بقصائد تلمس خلالها الحزن الصادق ذا اللوعة المحرقة .
هل قرأت قوله :

أنى حلتُ أرى عليك مآتما فلن أوجّه فيك حسن عزائى ؟
لبنيك أم لذويك أم للكون أم للدهر أم للجماعة الجوزاء

« • »

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما حملت من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعوادُه مذ لامسته لأورقت للرائى

« • »

خلق كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالخمر أو كالماء
وشمائل لو مازجت طبع الدجى ما بات يشكوه الحب النائى
ومناقب لولا المهابة والتقى قلنا مناقب صاحب الاسراء
وهزائم كانت تفلّ عزائم ال احداث والايام والأعــداء

« • »

شوقتنا للرب بعدك واشتهى فيه الإقامة واحد العذراء

« • »

وهل قرأت قوله :

أيهذا الترى إلى مَ التماذى بعد هذا أأنت غرثانُ صادي
أنت تُروى من مدمع كل يوم وتُبغذى من هذه الأجساد
قد جعلت الانام زادك فى الدهر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده الهجرة وردا وتزوّد من النجوم بزاد
لست أدهوك بالتراب ولكن بقدود الملاح والاجياد

C + D

A + B

• • •

8 + 2

اتصل حافظ بـسليمان باشا ثم بأبنائه وأفراد الأسرة جميعاً ونشأت بينه وبينهم صداقة كانت تزداد مع الأيام رسوخاً ومناقة حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحس في بيوتهم بوحشة الاغتراب . والتفوا به بـكـرمونه ويشيدون به ، ويتغنون بشعره ويشجعونه ، فكثرت فيهم شعره ، وما نشر في ديوانه منه إلا القليل ، وإذا كان لكل شاعر شيطان أو ملاك مثليهم فإن ملاك حافظ كان مشغولاً « ببني أباطة » يلهمه في مديحهم المعجزات ، أما شيطان الدكتور طه حسين فلا يقربه إلا بالظعن والتعريض والهجاء . فهو يقول « بأن شعره في رثاء أصدقائه « الـبابـاطيين » متكافئ لا يدل على حزن صادق ولا لوعة وانما دفع اليه بواجب المجاملة وانك تحس عند ما تقرأه كأنك تقرأ شعر طالب وضع أمامه نماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معاني القدماء وذهب مذهبه في

الغلو السقيم » ، ويشبه الدكتور تعزيبته « للأباطيين » بتعزيبته للأنجليز في فقد ملكتهم

ولست أدري لم يكون الامر كذلك وقد حدثتُ القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ، ولم يُشبَّهنا الدكتور طه بالانجليز غفر الله له وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والنيات والنضحية ، ولم نعبد اليوم ما كنا نحرمه بالأمس ، ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولا اتخذنا السياسة تجارة ؟ والسبب في هذا كله ما وجدته في رثائه من الغلو ا فهل استكشف الدكتور شعراً عربياً له أو لغيره في الرثاء أو المدح خالياً من المبالغة والاغراق وهل أقدم الأمثلة أم أترك القراء يبحثون ؟

أما ما يعجب به الدكتور طه ومحبذه فهو رأيي للأستاذ « لطفى السيد بك » في الشاعرين الكبيرين فيقول في كتابه حافظ وشوقي : « كنت مرة عائداً مع الأستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقي ، وكنا نتحدث في أمر الشاعرين فقال لطفى بك : لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شوقي عنها ا كنت ألقى حافظاً أول عهده بالشعر وكان يسمعى كثيراً من شعره فلا يعجبني ، فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لنكون شاعراً ا ولكنه لم يقبل نصحي وحسناً فعل ، فما زال يمجده ويكده حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً ، وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة تكاد تشبه الفتنة وأثنى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في نعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ا »

وأكتفى بأن احتكم للقراء في رأيي استاذنا لطفى بك وموافقة الدكتور طه عليه . فان الأجماع يقول غير ذلك ... يقول بضعف شعر حافظ في السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقي فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة « مجنون ليلى » وقد أخرجها في آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع ، والدليل الناصع القاطع . فما تلوتها مرة الا أخذتني هزة الطرب ونشوة العجب ، واكبرت لغة العرب ، وشعرت بأن شوقي أراد أن تنهزم كل اللغات أمام الضاد ، فتم له ما أراد ا

وفي الحق لقد جعلت « مجنون ليلى » الكثيرين مثلى تكبر في غيوتهم اللغة العربية

والشعر العربي القصصى ، وكنت أقرأ لهيجو وكورنيل وراسين ولامارتين ، وأقرأ للشعراء الحداثيين من الفرنسيين فتطلع فؤادى الغيرة والحسرة ، وكنت أحسب أن لغتنا تعجز عن المجارة ، وتقف عن المباراة ، ولا تصل لما فى الفرنسية وشعرها القصصى من روعة وحلاوة وطلاوة وعذوبة ومرونة حتى قرأت « مجنون ليلى » فغيرت اعتقادى وامتلأت نفسى غبطة .

وقد حدثت حافظاً عن « مجنون ليلى » فحبذ وأثنى ، وكنت فى العادة اذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقي ينور محاولاً أن يثني عن الثناء بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى ، أما رواية « مجنون ليلى » فقد سلم معى أنها معجزة المعجزات وآية الآيات .

فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة ، ان أشك فى اسناده هذا الرأى لاستاذنا الكبير لطفي السيد بك .

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالاً ثم يافعين ، وزى فيه زعباً من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين ، تنغنى بشعره وتفضله على سائر الشعراء لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ، ويهيب بالشباب ويلهب العواطف ويحفز الهمم ، ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والامل .

وكان شوقي فى منصبه الرسمى لا يستطيع أن يخوض غمار السياسة بحرية وصراحة فانمرد حافظ يستولى على القلوب وأحرز مكانة لا تدانيها مكانة .

فأى أديب لم يتغن بقصيده فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب لم يهرع إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع والقائه البديع الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحراً وتغامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة ؟
وان عهدنا بحافظ لقریب وشعره مازال طالقاً بالاذهان، فلست أحب أن أعيد عليكم قصائده الخالدة فى البارودى ، وعثمان أباطة ، والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمولى بلحى ، والاخيرة خربة بذ فيها أبانواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد :

أوشك الديك أن يصيح ونفسى بين همّ وبين ظنّ وحسـ
يا غلام المدام والكاس والطا سـ وهـي لنا مكاناً كأمسـ

واطلق الشمس من غياهب هذا الد
وأذن الصبح أن يلوح لعيني
وادعُ ندمان خلوتي واثناسي
واسقنا يا غلام حتى ترانا
خمرة قيل إنهم عصروها
مذ رآها فتى العزيز مناماً
أعقبته الخلاص من بعد ضيق
نّ واملأ من ذلك النور كآسى
من سناها فذاك وقت التحسّي
وتمجّل واسبل ستور الدمقس
لا نطق الكلام الا بهمس
من خدود الملاح في يوم عرس
وهو في السجن بين همّ ويأس
وحبّته السعود من بعد نحس

« . »

وقد نزع في الجزء الثاني والثالث من ديوانه إلى الاجتماعيات فاهتز لشعره
العالم العربي كله وتبوأ المكان اللائق به تحت الشمس وأخذ بعض الناس يفاضلون
بينه وبين شوقي ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد .

هل قرأت « غادة النابان » ؟

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبي
رب ساع مبصر في سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا

« . »

وفي « الامبراطورة أوجيني » :

أين يوم القتال ياربة التاج وبأشمس ذلك المهرجانات ؟
أين مجرى القتال أين مميت المال أين العزيز ذو السلطان ؟

« . »

وفي « الزوجية » :

حطمت اليراع فلا تعجبي وعفت البيان فلا تعني
فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب

« . »

وفي « فيكتور هيجو » :

أعجبي كاد يعلو نجمة في سماء الشعر مجم العربي

مناجح العلياء فيها والتقى بالمعري فوق هام الشهب

« ٠ »

وفي « دنشواي » :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولائنا والوداداً
خففوا جيشكم وناموا هنيئاً وابغوا صيدكم وجوبوا البلاداً
وإذا اعوزتكم ذات طوق بين تلك الرُّبى فصيدوا العباداً

« ٠ »

أما قصائده في تأبين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسامي البارودي وفي عزل السلطان عبد الحميد فقد جاوزت حدَّ الابداع وجرت مجرى المثل . فعظم خطره ، وتأتى نجمه ، ووجه خصمه وأصبح شاعر النيل غير مدافع .

وكان إذا خلونا به يحمل على شوقي وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره . ولا يسلم له بالامامة ولا يعترف له بالزعامة . وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب في مدحه ، ويذكر الاساتذة محرمات الكاشف ونسيماً بالخير ، ولا يذكر بالخير الكاتبين المازني والعقاد وله فيهما وفي الدكتور طه حسين رأى معروف .

وكان فيما ينشره عفاً للسان جمّ الأدب ، ولكنه كان هجاءً شديدة القسوة على خصومه فيما لا يمدّه للنشر . هجى المرحوم سعد زغلول باشا متهماً بإياه بالانانية ومغرياً به سمو الخديوى السابق فقال :

أنا ! أنا ! منه كل يوم لها صدَى بيننا يرن

أدرك أنا ونهى في صباها ان لم تقل نحن ... قال نحن !

وغضب على المرحوم السيد توفيق فقال :

وليلتي بتُّ بها ساهراً أجز ذيل الفعش والفجر

حتى ظننتُ وليلتى عجبٌ أنى بيت السيد الـ

وحمل على شاعرين كبيرين فقال :

لى عدوان لن يناما عنى ولو نامت الخطوب

مُخَنَّتْ كُلَّهُ قُيُوبٌ وَمُدْمَنٌ كُلَّهُ عِيُوبٌ !
وَقَالَ يَسْبُ كَاتِبًا مِنْ أَكْبَرِ كِتَابِ مِصْرَ :

أَخْسُ مِنْ دَبٍّ عَلَى ظَهْرِهَا وَدَبْتُ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا !
وَقَالَ يَهْجُونِي فِي عَقْرِ بَيْتِي وَيَمْدَحُ خَادِمِي أَحْمَدُ :

إِذَا جِئْتَهُمْ طَالِبًا لِقَاءَ رَأَيْتَ مَظَاهِرَهُ قَادِمَةً !
أَلَا بَارِكُ اللَّهَ فِي أَحْمَدٍ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْخَادِمَةِ !
ثُمَّ سَأَلَ مَا اسْمُ هَذِهِ الْفَتَاةِ ؟ قَالُوا فَاطِمَةُ ، قَالَ حَسَنُ ! فَلَیْكَ الْبَيْتُ هَكَذَا :
أَلَا بَارِكُ اللَّهَ فِي أَحْمَدٍ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى فَاطِمَةَ !

وهكذا كنا نتمتع بحمدبته الشهي ونقضى معه أياماً لن تعود غفرله الله ، وطيب
نراه ، وجمل الجنة منواه

ابراهيم رسو في أباطه



حافظ الرجل وحافظ الشاعر

قال كارليل الفيلسوف الانجليزى العظيم في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) :
الرجل العظيم لا يزال المنقذ الوحيد لعصره من مهاوى الفناء والعدم ، وهو الشعلة
الأولى التى تمتد إلى سائر المواد فتشعلها .

والاخلاص العميق البالغ البعيد المدى الكريم في أصله هو أول خواص
الرجل العظيم سواء أكان إلهياً أم نبياً أم شاعراً أم كاتباً أم ملكاً ، ونحن نسمى
هذا الرجل رسولا . فهو رسول أرسل البنا من العالم المجهول الغير المحدود برسائله .
فلنا أن نسميه شاعراً أو نبياً أو ملكاً إذ ليس هناك فرق كبير بين النبي والشاعر ، فهما
في الاصل واحد . فكلمة Vates في اللاتينية معناها « نبى » ومعناها « شاعر » .
وكل ما في الامر ان النبي قد تناول ذلك السرّ الالهي من الجانب الأخلاقى كالخير
والشر والمختور والمباح ، والشاعر قد تناوله من جانب الجمال . فالأول يوصي البنا
بما يجب عمله ، والثاني يكشف لنا عن مواضع حبنا وسرورنا ، ولكنهما في حقيقةتهما
كعجزيين متداخلين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

هذا مجمل ما قاله هذا الفيلسوف عن العظيم والشاعر ، وهذا ما أراه جديراً بأن
أصف به حافظ إبراهيم الرجل العظيم والشاعر القدير كما وصفت به من قبل لورد
بيرون الشاعر الانجليزي العظيم .

أما حافظ الرجل وحافظ الشاعر فقد يتعذر علينا ان نفصل أحدهما عن الآخر ،
وهذا شأن كل رجل عظيم فقد نضنى شخصيته العظيمة بألوانها الزاهية على
كل شيء حوله وتصبغ شعره بصبغتها الخاصة وتطبعه بطابعها المعين .
فلا نستطيع رؤية أحدهما جيداً عن الآخر ، بل لا يمكننا فهم أحدهما إلا إذا
فهمنا الآخر . ولكنى ارى ان شخصية حافظ الرجل هي شخصية حافظ الشاعر ،
ولا ألقى هذا الكلام على عواهنه ، ولكنى أقوله وأنا واثق منه بكل الثقة ، مثبت
منه تمام التثبت ، معتمداً على ما أعرفه عن الرجل نفسه وما انطوت عليه نفسه
العالية من نبل وسمو وفضائل .

حافظ أكثر شعرائنا الحديثين اتصالاً بنهضتنا : فقد عمل على اذكائها بقلبه
وبيانه وروحه وماله ، لم يتطرق اليه اليأس ولم يشك أو يتامل شأن الرجل الضعيف ،
بل ثبت في ميدان الجهاد ثبوت الأبطال البواسل يذود عن وطنه الذي أحبه
وتفانى في حبه ، والذي من أجله عاش وفي سبيله مات بعد أن بعث فينا
روح الأمل وضرب لنا مثلاً صالحاً للجهاد الوطنى .

لم يكن حافظ مريض الأعصاب أو ضعيف الإرادة فينور ويهيج ، بل
كان قوى العود صلب القناة عظيم الصبر كثير الاناة فاستقل حمله القادح في
ثبات وصمت وواصل جهاده المضنى الطويل بين عواصف عاتية لم تقو على
زحزحته أو الرجوع به الى الوراء ، ووسط بحار هائجة لم يتهيأ أو يفرق منها بل
اندفع فيها وسار حتى أدى رسالته كاملة وبلغها إلى بنى وطنه وفصلها لهم تفصيلاً !

لم يعرف حافظ الاثرة egoism قط — والاثرة شر عيوب الرجل —
بل كان في كل حياته حلوها ومرها كريم الخلق رضى النفس حلو الحديث يستهوى
السامع ويأسره ويسر الناظر فلا يود أن يتركه ، ولكنه كان بجانب ذلك عظيماً منيباً
محبوباً : فهو عظيم في بساطته كما أنه بسيط في عظمته ، وربما كانت هذه ميزة تفرّد
بها حافظ بين شعرائنا المصريين ، فنجد في جانبه أنساً وفي الاستماع إليه متعة ولذة .

أما عيوبه فلا إخال أحداً يعرف عيباً لحافظ إلا اسرافه الكثير — إن كان هذا الاسراف عيباً — ومهما كانت عيوبه فإن حياته وما أتى عليها من صروف وما تلونت به من ألوان البؤس والفاقة ، ونفسه وما انطوت عليه من نبل وطهارة ، وطبيعته وما امتزجت به من عناصر الطبيعة والوداعة ، زعيمة بمحوها وكفيلة باظهار حافظ في أحسن صورة وفي أبهى منظر .

لقد كانت في حافظ قوة غريبة تدفعه إلى حب الآخرين وتسهرى الآخرين إلى حبه حتى يمكننا — بدون اعتساف في القول — أن نعد حافظاً أحب الشعراء إلينا ، لأننا إذا أحببنا حافظاً فأننا نقوى حبنا للطيبة والوداعة ونزيد ثقنا في صفاء الطبيعة الانسانية وطهرها ، زد على ذلك أننا نجلبنا حافظ لمحب شعره معه ، وشعره جزءاً من نفسه أو هو نفسه .

شعره

وما شعر حافظ إلا روحه تقمصت روح النهضة وبرزت للعيون في أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره ، فلم يصدر شعره عن ملكة خاصة فيه بل كان نتيجة حتمية عامة لدهن طبيعي جبار ، ومزاج قوى حاد . أفصح عن نفسه بهذه الطريقة الشعرية الرائعة ، لذلك جاء شعره صادقاً كل الصدق معبراً أفصح التعبير عن ذلك المزاج الحساس وتلك النفس المتألمة لوطنها الذليل ، فلم يكن أوهاماً ولا تخيلات بل كان شيئاً شعر به صاحبه وجاش في خاطره فألهب وجد انه فأفرغه في ذلك القالب الشعري الخلاب . فالصدق والاخلاص وحب الحق هي الصفات التي تميز حافظاً عن معظم الشعراء المعاصرين وهي التي صبغت شعره بصيغة ثابتة لن نزول ، وطبيعته بطابع الخلود . فوفاته إذن مأساة الاخلاص .

ويظهر لى من أشماره ان الرجل كان له عقل قوى ، وأعصاب سليمة ، وله قلب انسان يخفق بين جوانب صدره ، وانك لتسمع خفقاته في كل اشعاره ، وانه لم يكن مريض الشعور أو ضعيف الحس ، بل كانت له عين ترى ، وقلب يشعر ، واسنان يفصح .

انظر إليه يذكر بلاده وينعى على مواطنيه التفكك وضعف الاخلاق والامراف في اللهو واللعب في قصيدته « غادة اليابان » :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلاً ما بثُّ أشكو الشُّوبَا
أمةٌ قد فتَّ في ساعدها بُغضُها الأهلَ وحبُّ الغُربَا
تمشق الألقابَ في غير العلا وتفدِّي بالنفوس الرنبا
وهي والأحداث تستهدفها تمشق اللهو ونهوى الطربَا
لا نبالي لعب القومُ بها أم بها صرفُ الليالي لعبا

وانك لنجد معظم شعره قد وقفه على الافصح عن أمانى بلاده ، وإنك لتحسّ وأنت تقرأ هذا الشعر بأنات الشاعر المتواصلة وزفراته المتصاعدة حزناً على وطنه المعذب . فشعره قد صيغ من هذه الآلام ، وزفراته قد امتزجت بأنين الشعب كثيراً . وقضى ربك ان يجعل العهد الذي عاش فيه حافظ عهد آلام وجهاد ونصب وجلاد وحرب سجال بين العدو المغتصب والشعب الوادع المطمئن . إنك تحس وأنت تقرأ شعره عن حادثة دنشواي المشتومة بأنفاس الشاعر الملهبة وهي تتحرق وجداً على قتل الأبرياء ودموعه تهمي على خديه بكاء على بنى وطنه المعذبين وهو يتساءل في حسرة وأسى عن سبب ذلك التعذيب الشنيع الذي بصوره في صورة تستفز الشعور وتثير جوامد النفوس وتستدر العبرات من هول المصاب وفداحة الخطب إذ يقول :

أحسنوا القتل إن ضننتم بفقو أقصاصاً أردنمُ أم كباداً
أحسنوا القتل إن ضننتم بفقو أنقوساً أصبتمو ام جماداً
ليت شعري أنلك محكمة التف تيش مادت أم عهد نيرون ماذاً

ويقول أيضاً في موضع آخر مخاطباً العميد البريطاني :

جالدوا ولو منيبتهم لتعلقوا بحبال من شئقوا ولم ينهيوا
شئقوا ولو مننحو الخيارد لأهوا بلطى سباط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على المات وكأسه بين الشفاء وطعمه لا يعذب

ثم تراه وهو يبتّ روح الثورة في نفوس الشبان ويحفزهم إلى المطالبة بحقوقهم

ويذكرهم بمجدهم الثالث وتاريخهم المجيد حين يقول :

عارض على ابن النيل سباق الورد مهما تقلب دهره أن يُصَبَّحَا
فتدفعوا حُجَجاً وصونوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفعُفَا
ومن البلية أن تباع وتشتري مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقَا
وكذلك يقول :

رجال الغد المأمول ان بلادكم تناشدكم بالله أن تتذكروا
فكونوا رجالاً حاملين أعزة وصونوا حي أوطانكم تتحرروا

وإذا كانت حياة حافظ قطعة من قلب الطبيعة الخالدة فإن شعره فيثارة تلك الطبيعة الخزينة الباكية تشدو بآلام وطنه وأشجانه وتتغنى بمجد مصر وعزها الغابر فتبعث في النفوس همهً وتوقف فيها حلوة الأمانى .

وقد وهبه الله قوة وبراعة فائقين في تصوير الأشياء تصويراً رائعاً ، فلم يكن ينظر إليها من هذا الجانب أو من ذاك ، بل كان ينفذ الى لبها وصميمها وينظر إليها بعين نافذة شاملة فسرطان ما تذوب تلك الأشياء وتتحلل أمامه وتتكشف له دقائق أمرارها ، فيعمل فيها ريشته العجيبة ويصورها أبدع تصوير ... فما أبدع تلك الآيات التي قالها في وصف زلزال صقلية ، فقد تعد هذه القصيدة من غرر الشعر سواء العربي أم الغربي ، فقد كان حافظ في هذه القصيدة صادقاً كل الصدق ، دقيقاً في تصويره كل الدقة ، شاملاً في وصفه كل الشمول ، أضف إلى ذلك جمال الالفاظ وجزالتها ، وإحكام سبك المعاني الذي لا يتسنى لكثير من الشعراء ، إذ يقول :

أين رجبو وأين ما كاث فيها من مغائر مأهولة وغواني؟
هوجلت مثل أختها ودهاها ما دهاها من ذلك الثوران
رب طفل قد ساخ في باطن الأثر ض ينادى : أمي ! أبي ! أدركاني
وفتاة هيفاء تمسوى على الج ر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل الى النار يمشى مستميتاً تمند منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان

تأكل النار منه لا هو ناجٍ من لظاها ولا اللظى عنه وائى
 مغطت الأرض ، أنطم البحر مما طوياء من هذه الابدان
 وشكا الحوت للفسور شكا رددتها الذمور للحياتان
 أسرفا فى اللحوم قرأ ونهشاً ثم بانا من كظة يشكون
 لا رعى الله ساكن القم الشم ولا حاط ساكن القبعان

الرتاء

وإن كان الصدق لازماً للشاعر والشعر فى جميع فنونه فانه أشد لزوماً فى الرثاء بنوع خاص . وإذا عرفنا أن الصدق فى حافظ كان عنصراً من عناصر طبيعته فلا غرابة إن جاءت مرثيته كلها آيات رائعة ودرراً غوالى تسمو بصاحبها إلى مستوى شعراء المرثى العالميين . وان الذى يقرأ مرثيته المشهورة فى صديقه الامام الشيخ محمد عبده يتبين صدق ما أقول ويشعر بلوعة الصديق الذى فقد صديقه الوفى الأمين :

سلام على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات
 على الدين والدنيا ، على العلم والحجى على البر والتقوى ، على الحسنات
 لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حباتى
 فوالهنى والقبر بينى وبينه على نظرة من تلكم النظرات !
 كذلك شأنه فى رثائه لصديقه قاسم أمين ولمصطفى كامل ، فى هذه القصائد
 روعة وجلالة وتصوير قوى ساحر يأخذ بلب القارئ أو السامع ويستهوئ
 حسه وخياله .

وصفوة القول ان شاعرية حافظ كانت مزاجاً من الابتكار والتقليد : فقد قرأ حافظ أشعار ابن الرومى ، وتأثر كثيراً بشعر بشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وحفظ كثيراً من أشعار البحترى وأبى تمام والمتنبي والمعرى ، فجاءت دراسته هذه لأشعار العرب القديمة بثروة عظيمة له لا يشك فى قيمتها . أضف إلى ذلك دراسته للأدب الفرنسى وما فى الأدب الفرنسى من جمال وحسن ورواء ظهر أثره فى

شعره ، لا في روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعاني .

مسكين حافظ ! ما أنسى أيامك التي قضيتها وما أشقاها ! إن كنت لا فئت
منا جحوداً في حياتك فلن تعدم منا وفاء بعد مماتك . ان اسمك سيظل مذكوراً
بعد أن كتب في ثبث الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين ضحكك الأبرار ، فان معبد
شهرتك الخالدة يطل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التي ستعيش بعدك في قلوبنا ؟

نظمي خليل

حافظ

فنان كما يجب

الجمال في الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم .
والحياة في غموضها وإبهامها مظهر من مظاهر الجمال الزائع في الوجود ، والإنسان
— مذ كان — مدفوع إلى تصوير هذا الجمال بوحى روحى من احساسه في
أسلوب يشف عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .

فكان الموسيقى والشاعر المصور ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى
صارت قلوباً .

وهؤلاء رسل الجمال في الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم في الفن قد تلونت أساليبهم
بلون الشعور الذى حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فترى مصوراً مثلاً قد ملكه جمال الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة في
بلاغة من الصمت الناطق ، ثم ترى مصوراً آخر قد حيرته معاني الحياة ودقائق
الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصور هذه المعاني ويكشف عن
تلك الدقائق بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر في محراب
من محارِب الحياة يسبح لآله واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه

من مباء هذا المعبود . يجب أن يبرز في ناحية واحدة من نواحي الشعر تطنى على كل النواحي وتميزه عن غيره من الشعراء ، أى أن تكون له قيثارة واحدة يحملها دائماً ليعزف عليها كلما شاقه العزف حتى يصل بفنه إلى ما وراء الخلود .
... وهكذا كان حافظ .

عاد من السودان في شوق ولطفة الى مصر فرأى راية النيمس ترفرف على النيل وتداعبها نسيمات السيادة والسلطان أحياناً ، تزجيبها عواصف الطمع والاستبداد ، ورأى تحت هذه الراية أمة مكبلة بالاغلال الثقيلة مستكينة لهذه القيود تغط في نومها غطيط الهادىء في سرر البأس ووسائل القنوط . وكلما أحست وطأة السلاسل فتحت عينها وعولت على النهوض فتخونها قدمها وتتمتر في حبائلها ويخلق فوق جفניה طائر النذير والوعيد من وراء البحار فيثقلهما ويلاؤهما بالنوم مرة أخرى .

هذا المنظر دفع بحافظ الى ربوة من الهم والكآبة على ضفة النيل ، وهناك رمى في تيار النهر بالدف الهزيل الذى كان يضرب عليه وانتزع من بقايا قلبه المحطم فيثارة الوطنية والاجتماع . وأخذ يغنى فوق تلك الربوة قصيد الألم ونشيد الأتئين ، وجعل يرسل شعره ثائراً صريحاً في ثورته ، ثائراً على الأخلاق المصرية والرجولة المصرية وفي ثورته نصيحة واخلاص . وهل ترى أدعى إلى ثورة الشاعر الاجتماعى من أن يرى أبناء شعبه يهيمون بالانقلاب والشهرة العمياء وموالاة المستعمر العابت وكل هذه المظاهر التى ما تزال بيننا براقة خادعة الى ما بعد حافظ . وهو هنا يرمى في شعره الى الاغراض السامية وبصور المثل العليا ويكشف عنها في شجاعة فنية وموسيقية بارعة ، ثائراً في وجه المغتصب وهى ثورة الضعيف المبحوح وفي بحجة صوته وضعفه نبرات المؤمن بحقه الصليب . أقرأ شعره الآن فأتحيله وكأنى أسمع منه الأتئين المرء وأكاد أرى جراح قلبه والدم يسيل على جوانبها وهو واقف الى جانب مصر العاجزة النائمة ليوقظها بنحيبه ويمد ييدها الموثقة في ضراعة الى المغتصب الجبار رجاء ان يرحم ظلها وضعفها ويفك أغلالها ثم يدعها تضمد جراحها بنفسها . وقد يشير إلى القوة الكامنة في هذا الضعف ، والثورة الجارفة التى لا بد ان يخلقها القيد والاستعباد .

هذه الصور وغيرها تجدها حية في قصائده الخالدة — دنشواى — مصر فوق الجميع — غادة اليابان — وأشباهها .

« ٠ »

هذه هي رسالة حافظ الشاعر التي دعا إليها ووقف فنه على خدمتها طول حياته ، ولعله كان لا يصلح الا رسول وطنية واجتماع . فلقد حاول أن يجعل فنه باقة من مختلف الازهار ، ولكن شاءت طبيعته غير ما أراد . ولعمري ان الجبال الفرد الذي يشع من زهرة واحدة أبلغ تأثيراً في النفس من جمال حائر بين مجموعة زهرات . فهو حينما نظم في الغزل والمدح والخر لم يكن فيه — على قلته — الا مقلداً دفعته رياح تقليدية من جنوب العصر . عرب (البؤساء) وكتب (ليالى سطيح) فخذله الفن فلم يوفق في أسلوبه ، وإن كان قد وفق في الغرض وأحسن القصد لأنه لم يكن الا شاعراً وشاعراً اجتماعياً فحسب . ولا ريب أنه في كتابته هذا وتعريفه ذلك كان مدفوعاً بالزعة الاجتماعية المتركرة في طبيعته .

« ٠ »

بقي لنا أن نتساءل — ولا بد أن نتساءل بعد الذي قررناه — كيف ارتفع حافظ بمراثيه الى درجة من الدقة والفخامة تكاد تعدل مراثي أفحل الشعراء الذين هتف بنبوغهم الزمن في أبهى عصور الأدب العربي ؟

لا غرابة ولا عجب ، فهو إذ يرثي إنما ينظم أنات الشعب المفجوع في عظيم قدم نفسه قرباناً لآلهة الجهاد والتضحية ، أو مصلح كان يوقد عقله لينير الطريق التي تظللها أشجار التقدم والنهوض . فليس غريباً إذن أن يألّم حافظ وأن يرسل آهاته من أعماق قلبه الذي أذا به حب وطنه فتأني هذه الآهات فناً شاعراً رفيعاً — رثي محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين — وغيرهم من رجالنا نهضتنا فكان يرثي محمد عبده لانه يبكي محمد عبده كما يبكيه الشعب ، وهكذا لم يضرب على نغمة فائرة واحدة ، وإنما جاء شعره صدى ل احساسه المختلف ولا احساس الأمة نحو كل رجل وهذه هي القوة . وهذا هو الفن كما يجب وكما كان ؟

المهرى مصطفى

مختارات

من شعر حافظ

للهم والوطن

مالى أرى الأكام لا تُفَتَحُ والروضة لا يزكو ولا يَنفَحُ
 والطير لا تلهو بتدويمها فى ملكها الواسع أو تصدَحُ
 والنيل لا ترفس أمواهه قرعى ولا يجرى بها الأبطحُ
 والشمس لا تشرق وضائةً تجلو هموم الصدر أو تنزحُ
 والبدر لا يبدو على قعره من بساتين المين ما يشرحُ
 والنجم لا يزهر فى أفقه كانه فى غمرة يسبحُ
 ألم يجفها نباً جاهنا بأن مِصرًا حرّةً تفرحُ؟
 أصبحت لا أدرى على خيرة أجدت الأيام أم تمزحُ؟
 أموقفٌ للجد نجارُهُ أم ذاك للآهى بنا مَصرحُ؟
 ألمحُ لاستقلالنا لمعةً فى حالك الشك فأسنوحُ
 ونطمسُ الظلمة آثارها فأننى أنكر ما ألمحُ
 قد حارت الأفهام فى أمرهم إن لمحوها بالقصدير أو صرّحُوا!

معبر الحب

هَوَيْنَا فاهُنَّا كما هان غيرُنا ولسكننا زدنا مع الحب سؤددنا
 وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا بأيسر من حُكم الساحة والندى
 نفوسٌ لها بين الجنوب منازلٌ بناها الثقى واختارها الحب معبدًا

سجن الفضيلة

نعمن بنفسي واشقيني
خلال زلن بخصب النفوس
تعودن مني إياه الكريم
وعودتهن زال الخطوب
إذا ما طوت بلبل الشباب
فازلت أروح في قدهن
إلى أن تولي زمان الشباب
فيا نفس إن كنت لا توقنين
فهذي الفضيلة سجن النفوس

فيا لينهن
فرويتهن
ومبر الحليم وتية العيني
فا ينثنين وما أثني
أهن بزمي فبينهنني
ومرحن مني بروض جنى
وأوشك عودي أن ينحني
بمعقود بأمرك فاستيقني
وأنت الجديدة أن تُنجني

الربيا الضائعة

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا
كنّا قلادة جيد الدهر فانقرطت
كانت منازلنا في العز شاخنة
وكان أقصى مني نهر المجر لو
والشهب لو أنّها كانت مسخرة
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا
حتى غدونا ولا جاه ولا نشب

الابقية دمع في ساقينا
وفي عيني العلى كنا رباحينا
لا تشرق الشمس إلا في مغائنا
من مائلو مزرجت أقداح ساقينا
لرجم من كان يبدو من أطاينا
شزراً ونخدعنا الدنيا وتلمينا
ولا صديق ولا خلّ يؤاسينا

إلى الأمير الطاهرة أوجيني

(عند قدومها إلى مصر بعد زوال ملكها)

أين يوم القنال ياربة التنا
أين مجرى القنال أين عيتنا
جـ ويا شمس ذلك المهرجان
مـال؟ ابن العزيز ذو السلطان؟

أين هارون مصر ؟ أين أبو ال
 أين ليت الجزيرة ابن على
 أين ذا القصر بالجزيرة تجرى
 فيه للنحاس كوكب مُسرعُ السَّيِّ
 قد جرى النيلُ تحتَه بخشوع
 كنت بالأمس جنة الحور ياقه
 خطرَ الليثُ في فنائك ياقه
 وعوى الذئبُ في نواحيك ياقه
 وحبك الزَّوارُ بالمالِ ياقه
 كنت تُعطى فمالك اليوم تُعطى
 إن أظافت بك الخطوبُ فهذى
 ربُّ باني نأى وربُّ بناء
 تلك سألُ الابوانِ ياربَّه التا
 فدطواه الرَّدَى ولو كان حيًّا
 وتولت حراسة الموكبِ الأُسْد
 إن يكن غابَ عن جبينك تاجُ
 فلقد زانك المشيبُ بتاج
 ذاك من صنعة الأنام وهذا
 كنت بالأمس ضيفاً عند ملك
 واعذرينا على القصور ، كلانا

أشبال رب القصور رب القيان ؟
 واهبُ الألفِ مكرمُ الضيفان
 فيه أروافنا ومحبو الأمانى ؟
 رر ، والسعد كوكب متوانى
 وانكسار وهابه الفتیان^(١)
 رر فأصبحت جنة الحيوان
 رر وقد كنت مسرَّحاً للحسان
 رر وقد كنت معقلاً للسان
 رر وقد كنت مصدرَ الاحسان
 أين بانيك ؟ أين ربُّ المكان ؟
 سنة الكون من قديم الزمان
 أسلمته النوى إلى غير باني
 ج ، فما حالُ صاحبِ الابوان ؟
 لمضى في ركابك النقلان^(٢)
 سنى نجومُ السماء والنيران
 كان بالقربِ أشرَفَ التيجان
 لا يدانيه في الجلال مُداني
 من صنيع المهيمن الديان
 فأنزلى اليوم ضيفاً في خان
 غيرته طواريء الحدان

مادرت دئسوی

أيهما القاعون بالأمر فينا
 خففوا جيشكم ، وناموا هنيئاً
 وإذا أعوزكم ذات طوق
 إنما نحن والحام سواة
 لا تظنوا بنا العقوق ولكن
 لا تقيدوا^(١) من أمر بقتيل
 جاء جئالنا بأمر وجئتم
 أحسنوا القتل إن ضننتم بغير
 أحسنوا القتل إن ضننتم بغير
 لبت شعري أهلك محكمة الله

هل نسيتم ولائنا والوداد ؟
 وابنفوا صيدكم ، وجوبوا البلاد
 بين تلك الربى ، فيصيدوا العباد
 لم تغادر أطواقنا الأجياد
 أرشدونا إذا ضللنا الرشاد
 صادت الشمس نفسه حين صاد
 ضعف ضعفيه فسوة واشتداد
 أقصاصاً أردتم أم كباد ؟
 أنقوساً أصبتم أم جداد ؟
 تيشر عادت أم عهد نيرون عاد ؟

« . »

أيهما المدعى العمومي مهلاً
 قد ضمننا لك القضاء بمصر
 فإذا ما جلست للحكم فاذكر

بعض هذا فقد بلغت المراد
 وضمننا لنجلك الإسعاد
 عهد مصر فقد شفيت الفؤاد

« . »

لا جرى النيل في نواحيك يامه
 أنت أنبت ذلك النبات يامه
 أنت أنبت بناعقاً قام بالأمه
 إيه يا مدرة القضاء ويا من
 أنت جلالنا فلا تنس أننا

ر ، ولا جادك الحيا حيث جاد
 ر ، فأضحى عليك شوكة فتاد
 س فأدنى القلوب والأكباد
 ساد في غفلة الزمان وشاد
 قد لبسنا على يدك الحيداد

(١) لا ناخنوا بالثار .

الظلم المزدب

حواشيه حتى بات ظلماً مُنْقَلَبَ
وَأَنْ أَسْبَحَ الْمَصْرُ خُرّاً مُنْعَمًا
فَانِي رَأَيْتُ الْمَنَّ أَنْكِي وَالْمَنَّا
فَأَغْلَيْتُمُ طِينًا وَأَرْخَصْتُمُ دَمًا
فَلَا أَطْلَعْتُمْ نَبْتًا وَلَا جَادَا السَّمَاءِ

أَقْدَكَانَ فِينَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهْدَبْتُمَا
نَمْنٌ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ أَخْصَبَ الثَّرَى
أَعِدْتُ عَهْدَ إِسْمَاعِيلَ جَلَدًا وَسُغْرَهُ
صَلَّمْتُ عَلَى عِزِّ الْجَادِ وَذُلُّنَا
إِذَا أَخْصَبَتْ أَرْضٌ وَأَجْدَبَ أَهْلُهَا

زلزال سيناء

مَادَّهِيَ السُّكُونُ أَيُّهَا الْفَرْقَدَانِ
ضُفٌّ فَأُخِجْتُ عَلَى بَنَى الْإِنْسَانِ ١٩
لَوْ وَلَكِنْ طَبِيعَةُ الْإِكْوَانِ
ثُورَانٌ فِي الْبَحْرِ وَالْبِرْكَانِ
عَلَى الْكَيْدِ لِلْوَرَى عَامِلَانِ ٢٠
رَاصِدٌ غَفْلَةٌ مِنَ الرِّبَّانِ
حَاطَمٌ حَوَانَا ، مُنَاءٌ مُدَانِي
فِي خَلَاقٍ : كَلَامَا غَادِرَانِ

نَبَّشَانِي إِنْ كُنْتُمَا تَعْلَمَانِ :
غَضَبَ اللَّهِ أَمْ تَعْمَدْتُمَا الْأَرْضَ
لَيْسَ هَذَا ، سَبْحَانَ رَبِّي ، وَلَا ذَا
غَلْبَانٌ فِي الْأَرْضِ نَفْسٌ عَنْهُ
رَبِّ أَيْنَ الْمَقَرُّ وَالْبَحْرُ وَالْبَرُّ
كُنْتُ أَخْشَى الْبَحَارَ وَالْمَوْتَ فِيهَا
سَابِجٌ مُخْتَبِئًا ، مُطِيلٌ عَلَيْنَا
فَإِذَا الْأَرْضُ وَالْبَحَارُ سَوَاءٌ

» » »

وَدَّكَاهَا مِنَ الرَّدَى دَاعِيَانِ
حِينَ تَمَّتْ آيَاتُهَا آيَتَانِ
قَضَى الْأَمْرُ كُلَّهُ فِي ثَوَانِ
نَكْبُ بِالْأَمْسِ رِبْنَةَ الْبِلَادِ
مِنْ وَدَاعِ اللَّدَاتِ وَالْجِيرَانِ

مَا (لَمَسَيْنِ) عُرِجَلْتُ فِي صَبَاها
وَمَحَتْ تَلَكُمُ الْحَاسِنَ مِنْهَا
خُصِفَتْ ، ثُمَّ أَغْرِقَتْ ، ثُمَّ بَادَتْ
وَأَتَى أَمْرُهَا فَأَضْحَتْ كَأَنَّ لَمْ
لَيْتَهَا أَتْمَهَلْتُ فَتَقْضَى حَقُوقًا

لحمةٌ يُسَعِّدُ الصِّدِّيقانِ فيها
بَعَثَ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ عَلَيْهَا
تِلْكَ تَعْلَى حَقْدًا عَلَيْهَا فَتَنْشَقُّ
فَتُجِيبُ الْجِبَالُ رَجْمًا وَقَدْ فَا
وَتَسوقُ الْبَحَارُ رَدًّا عَلَيْهَا
فَهَذَا الْمَوْتُ أَسْوَدُ اللَّوْنِ جَوْنُ
جَنَدَ الْمَاءِ وَالْثَرَى لَهْلَاكِهِ إِلَى
وَدِيمِ الشَّجَبِ عَانِيًا فَأَمْدَرُ
أَيْنَ (رَجَبِ) وَأَيْنَ مَا كَانَ فِيهَا
عُوجِلَتْ مِثْلَ أُخْتِهَا، وَدَهَاهَا
رَبُّ طِفْلٍ قَدْ سَاخَ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ
وَفَتَاةٌ هَيْفَاءُ تُشَوِّى عَلَى الْجَمْدِ
وَأَبْرَ ذَاهِلٍ إِلَى النَّارِ، يَتَمَشَّى
بَاحِنًا عَنْ بَنَاتِهِ وَبَنِيهِ
تَأْكُلُ النَّارُ مِنْهُ، لَا هُوَ نَاجٍ

بِاجْتِمَاعٍ وَيَلْتَقَى الْعَاشِقَانِ
وَطْنَى الْبَحْرُ أَيْمًا طَغْيَانِ
قُ انْشَقَّاقًا مِنْ كَثْرِ الْغَلِيَانِ
بَشَوَاطِئِ مِنْ مَارِجٍ وَدُخَانِ
جَيْشِ مَوْجٍ تَأْتِي الْجُنَاحِينَ دَانِي
وَهَذَا الْمَوْتُ أَحْمَرُ اللَّوْنِ قَانِي
خَلْقٍ ثُمَّ اسْتَعَانَ بِالنِّيرَانِ
هُ بِجَيْشٍ مِنَ الصَّوَاعِقِ ثَانِ
مِنْ مَقَانٍ مَأْهُولَةٍ وَغَوَانِي ؟
مَا دَهَاهَا مِنْ ذَلِكَ الثَّورَانِ
ضَرَبَ يَنَادِي : أُمِّي أَيْ أَدْرَكَانِي
رَرْتُعَانِي مِنْ حَرِّهِ مَا تُعَانِي
مُسْتَمِيتًا تَمْتَدُّ مِنْهُ الْيَدَانِ
مُسْرِعَ الْخَطْوِ مُسْتَطِيرَ الْجُتَانِ
مِنْ لَطَافِهَا وَلَا اللَّطْفِ عَنْهُ وَانِي

منزل الامام محمد عبده

فِيَا مَزَلًا فِي عَيْنِ شَمْسٍ أَظْلَمَنِي
دُعَاةُ التَّقْوَى، وَآسَاسُهُ الْمُهْدَى
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا لَكَ مَوْحِشًا
لَقَدْ كُنْتُ مَقْصُودَ الْجَوَانِبِ أَهْلًا
مُنَابَةً أَرْزَاقِي، وَمَهْبِطَ حِكْمَةٍ
وَأَرْغَمَ حُسَادِي وَغَمَّ عُدَاتِي
وَفِيهِ الْيَادِي مَوْضِعُ السَّنَاتِ
عَبُوسِ الْمَغَانِي مَقْفَرِ الْعُرْصَاتِ ؟
تَطَوَّفَ بِكَ الْأَمَالُ مَبْهَلَاتِ
وَمَطْلَعِ أَنْوَارٍ، وَكَثْرَةِ عِظَمَاتِ

النيل

النيلُ مرآةٌ تنفُ
سلبَ السماءِ مجوّمها
نُشرتْ عليه غلالةٌ
سُفّتْ لأعيننا سوى
وكاننا فوقَ السماءِ
تجرى الحوادثُ حيثُ نجمُ

سَ في صيفها النسيمُ
فهو بلجّتهِ تعومُ
بيضاءَ حاكها الغيومُ
ما شابهَ منها الأديمُ
وتحتنا ذاكَ المـــــــديمُ
ري لا تُضامُ ولا نُضمُ

عنقبر مصطفى كامل

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا
هنا جنانُ تعالى اللهُ بارؤهُ
هنا فهمُ وبنانُ لاحَ بينهما
هنا الشهيدُ ، هنا ربّ اللواء ، هنا

واقضوا هنالك ما تقضى به الدّمُ
ضاقتْ بأمالهِ الأقدارُ والهِمُ
في الشرقِ فجرٌ تحسّي ضوءهُ الأُمُ
حامي الدّمارِ ، هنا الشهمُ الذي علموا

« • »

إني أرى وفؤادي ليس يكذبني
أرى جلالاً ، أرى نوراً ، أرى ملكاً
اللهُ أكبرُ ! هذا الوجهُ أعرفهُ !
غُضُّوا العيونَ وحيّوه تحيتهُ
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئهِ

روحاً يحفّ بها الأكابرُ والعِظَمُ
أرى مُحِبّاً يُحيّينا ويبتسمُ
هذا فتى النيلِ ! هذا المفردُ العَلَمُ !
من القلوبِ إذا لم تُسعدْ الكَلِمُ
فنحنُ في موقفٍ يحلو به القَسَمُ !

لوعنة وأنيس

أنا في يأسرٍ وهمٍ وأمّي
مستهينٌ بالذي لافيتهُ
سؤدثٌ عندي له مكتوبةٌ
إنني لا آمنُ الرُّسلَ ، ولا

حاضرُ اللوعةِ موصولُ الأنينِ
وهو لا يدرى بما ذا يستهينُ
ودّ لو يمرى بها الرُّوحُ الأمينُ
آمنُ الكُتُبَ على ما يحثوبنُ !

ناحية في حافظ

نشكر للدكتور زكي أبى شادى خدماته الأدبية الكبيرة التى يقوم بها عامةً وإصدار هذا العدد لذكرى حافظ خاصةً . وإذا كان الحظ لم يسعدنى بأن أكتب عن شوقى فانى أجد الفرصة سانحة لأن أقول كلمة عن حافظ فى أهم ناحية من حياته ونقسيم حافظ من حيث هو فكرة التَمَعّت فى الوجود وحيوية لها ما للكائن الحى من مزايا هى :

١ — شعره الذى يصوّر فيه نفسه ونفسية الشعب ويعبر فيه عن آماله وآمال وطنه وعن الأمة وكل ما يتحرك فيها أو ما يتطلبه لها .

٢ — نفسه الهائجة النائرة العالية التى تبلغ عنان السماء فى الارستقراطية التى تصدّها عظمة المال والجاه فتزله بها الى الخفيض فتتطرف فى الديمقراطية الى درجة كبيرة ، ونفسه العابثة البائسة المتشككة .

٣ — حياته المتناقضة المملوءة آملاً وبؤساً وسعادةً وآماً وخوفاً وشجاعةً وحباً وكراهية .

وأظهر شىء فى حافظ من حيث هو كتلة حيوية تنقسم هذه الأقسام : نفسه وحياته وشعره . ونفسه هى القوة الموجهة لحياته من حيث عبوسها أو بؤسها فتظلم الدنيا ، ومن حيث أملها وانشراحها فتظهر العالم أمامه كله سرور وانشراح وبهجة وأنس . وشعره هو المظهر أو العارضة التى ترينا نفسه وحياته وتفاعل العناصر من أثر النفس فى الحياة ومن أثر الشعر فى هيجان النفس أو هدوئها وظلمة الحياة أو بهجتها . ونفس حافظ ليست مثل نفسى ونفسك ، فلو كانت كذلك لعدّ حافظ واحداً مثلاً ، ولكن نفس حافظ كقلبه وقلبه هو قاب مصر وحياته هى حياة مصر ، فكل حادث يؤثر فى مصر نجد أثره فى نفس حافظ وقلبه وحياته وشعره أيضاً . والآن الذى يساور نفس حافظ والذى يؤثر فى نظره للدنيا ويتأثر بالتالى به شعره هو ألم مصر ، والبؤس الذى يساور نفسه هو مظهر نفسه ومظهر حياته ومظهر مصر أيضاً . وهذا التألف بين حافظ وحياته وشعره ومصر فيه نصيب كبير من الحقيقة ، وهناك تألف آخر بين الشاعر والفنان فى حافظ تصبغه صبغة البؤس التى تلازم حافظ فمكون حافظ الشاعر المتوقد الرقيق والفنان النائر المتشكك الحرّ الذى لا يراعى القيود ولا يعبأ بها ، وهناك حافظ البأس الذى يدمت النورة على التقاليد والتشكك والهياج .

وهناك المصادمات ذات الأثر العميق الذي يبلغ من نفس الانسان — نريد أن نعرض في حافظ حتى نعرف كيفية تحول نفسيته وتكوينها على هذا الشكل الغريب . وأول تلك الصدمات التي صدمت حافظ هي موت والده وهو صغير مما جعل في نفسه أبلغ الأثر لأنه صار يتيماً لا أب له فأورثه هذا حزناً كبيراً تغلغل في قرارة نفسه وأثر في حياته أثراً كبيراً ، وكانت هذه أول صدمة له في حياته ومستقبل عزيمته .

أما الصدمة الثانية فهي تمكن النزعة الأدبية منه وهذه الروح الشعرية التي هفت به وتمكنت من صبغه بلونها والتي تبعث إلى نفس الشاعر عوامل الشاعرية من رقة الشعور واتصال هذا بالرائاء لآلام الناس ومواساتهم وتلازم هذا الشباب والنفس المتقدمة المرحلة النائرة في حافظ ، وفي اجتماع هذين معاً ما يجعله لا يرضى بالحياة العسكرية الخشنة من جانب لأنه شاب له أمل واسع ، وهو لا يرضى بالحياة العسكرية أيضاً من حيث أنها مذبحة ودمار ، وهذا مما لا تحمّل اليه نفس الشاعر ذات الحنان والرقّة .

فهاتان الصدمتان : تنازع الروح الشابة والروح الشعرية مع العسكرية من حيث هي خشونة وقتال دموي والألم الدفين الذي صادمه في أول ملامسته للحياة بموت أبيه — لها أثرهما البالغ ، وأثر هاتين الصدمتين كبير في نفس حافظ وبالتالي في شعره : فهو الذي صبغ نفسه بصبغة التشكك والنورة والبؤس ، وكان شعره صورة لهذا التفاعل في نفسه وحياته .

هذه الكلمة هي نظرة مريّة مختصرة في ناحية من حافظ ابراهيم الشامي الضخم الذي لا يمكن لقلمي الضعيف أن يوفيه حقه ، ولا أن ينصرف اليه بحكم شواغله وضيق وقته . وهناك نواح أخرى في حافظ عن شعره وأدبه وأثرهما في الأدب المصري الخاص والأدب العربي على وجه عام وأخلاقه ونفسه وأثر كل ذلك في نظراته الفلسفية الى الحياة .

وأعيد فأكرر شكرى للدكتور أبي شادي لهذه العناية وهذا التكرم لذكرى حافظ ابراهيم شاعرنا القومي ؟

اصمحر أنور الجندي

مضى العام والذكرى...

على الوتر الحثان قد وُلِدَ الشعرُ
لفائته في المهدي ظلُّ خيلةٍ
إذا ما بكى أشجى الزمان بكأوه
يُنسَق وجه الصبح والطلُّ ذائبٌ
ويُلقي شعاع الشمس في ميعه الضحى
وتنفج عنه في الأصيل نسائمٌ
فأما نسرٌ يا صاح في هدأة الدجى
وأما تجمدٌ حسن الحياة مشوهاً
وأما تجمدٌ ظهر الزمان محدباً
فذلك فاشع مائم الشعر والحجى

رضيع لبان السحر ما نثت السحرُ
على غصنها طيرٌ ومن تحتها نهرٌ
وأذرت له الدمع الملائكة الطهرُ
ويصبع لون الحقل والزرعُ مخضرُ
على الكون حيث الكون مبتهجٌ نضرُ
وفي الليل يزهو النجم أو يُشرق البدرُ
لدى حلك فيه غمامٌ ولا قطرُ
شنيماً وقد عاف ابتسامته الثغرُ
أناخت دواهٍ فوق كلِّه صفرُ
وكيف تناساهُ وفي قلبك القبرُ؟

« . »

خيلةٌ وادي النيل أزهر نبثها
سقاها غديرٌ ثم جف فغالها
فلادوح يأوى العاشقون لظله
نصوحت الأزهار بمدى أمطر
ملا ب زكى في الأنوف شميمة

فلما دهاها الصيف مات بها الزهرُ
حرورٌ من الرضاء بحراقة سحرُ
ولا طير يشدو بالفناء ولا قمرُ
خفت وماتت بينما بقى العطرُ
كشعر أبى في النفوس له سحرُ

« . »

مضى العام والذكرى تطوف بأرؤس
مباعد ما بين الجناحين بؤر
إذا جال عينا في النجوم فكراً
إذا فكر المرء القديم وفاءه
يظن له عذراً فيمضى يبتئ

كما طاف جُنج الليل أو وقع السرُ
بطير إليها من قوادم الدعرُ
تطير من أحداقها النظر الشررُ
يراجبه للمحب أعيا به الفكرُ
ولولا جحود الناس لاعتذر العذرُ

وَأَجَلَ قَوْمٌ ذَكَرَهُ لِمَوَاعِدِ
مَضَى حَافِظُهُ مَنْ كَانَ يَحْفَظُ قَوْمَهُ
فَتَى كَانَ بَأْبِي أَنْ يَخُونَ صَدِيقَهُ
إِذَا كَانَ فِي وَجْهِ الْفَتَى دُونَ ظَهْرِهِ
فَنَ يَصْطَاحِبُ يَحْفَظُ وَمَنْ يَنْسَ يَذْكُرُ
حَفَازُكَ لِلْأَصْحَابِ نَذْرُهُ نَذْرَتُهُ
وَلِلنَّاسِ أَخْلَاقُ شُكُولُهُ كَثِيرَةٌ

« ٠ »

رَعَى اللَّهُ شِعْرًا قَدْ غَذَيْتُ لِبَانَهُ
فَمَا كَانَ سَفَرِي غَيْرَ دِيْوَانِ حَافِظِ
مَزَامِيرُ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ
شَوَارِدُ كَالْعِيقِيَانِ مِنْ كُلِّ جَوْهَرِ
وَمَا النَّيْلُ إِلَّا رِبْوَةُ الْأَرْضِ أَنْبَتُ
وَحَافِظُ مَنْ قَوْمِ بَوَادِيهِ خُلِصَ
نِضَا السَّيْفِ مِنْ نَقْصِ بِسِيلٍ وَمِنْ دَمٍ
فَلَمْ يَكْ بَوْسًا حَظُّهُ بَلْ زَعَامَةٌ
فَفِي كُلِّ وَادٍ فَجَعَةٌ فِي صَحَابِهِ
وَفِي كُلِّ صَدْرِ لَوْفٍ قَلَابَةٌ

« ٠ »

جُنُودَ الْقَوَافِ وَالْمُخْطُوبِ كَثِيرَةٌ
لَقَدْ غَالِ رَبِّ الْمَوْتِ أَرْمَى شَبُوحَكُمْ
نَغِيبُ كَمَا غَابَ أَمْرُ الْقَيْسِ قَبْلُنَا
وَلِلشَّعْرِ فِي لَبْلِ الْمُحَاقِّ سَمَاقُهُ
أَلَا يَحْتَمِي فِيكُمْ مِنَ الْعَطْبِ الشَّعْرُ
وَلِلشَّعْرِ لَا لِلْحَائِكِينَ لَهُ الْعُمُرُ
وَنَبِي عُكَاظًا وَالزَّمَانُ لَهُ كَرُ
لِكُلِّ فَتَى فِيهَا كَوَا كَبُ الزُّهَرُ

فصوغوا البقوا في للخلود وللصبا
ولا تركنوا للخلف فالحلف فاضح
والرأى والأخلاق ما طلع الفجر
لما كان يخفيه التمامح والستر
إذا كان هذا الشعر قائد نهضة
فبالخلق المحمود يحلوه الفخر
عامر محمد بحبري



محمد حافظ ابراهيم

في كفتي البؤس والمجانة

يتوهم البعض أننا إذا قلنا إن حافظاً كان أبا بؤس — لازمه صغيراً ، وصاحبه كبيراً — أنه كان مملقاً ، وأن فقره علة العلل في ابتئاسه . وقد يكون الأول صحيحاً ولكن الى حدٍّ ، أما الثاني فهو موضع بحث ونظر ثم خلف وجدل ، فليس كل بؤس مسبباً عن الفقر ، وحافظ بألس ، فليس يحتم نشوء بؤسه عن فقره . وقد يكون هناك المنطق صحيحاً ، فنحن نرى بين ظهرائنا الكثير من المعدمين يروحون ويغدون ونضرة الطمأنينة تملو وجوههم ، وطار السعادة يرفرف فوقهم ، كما أننا نرى الكثيرين ممن جادهم المال بوفرته لا يكادون يستشعرون أن هناك سعادة ، بل لا يصدقون أن هناك سعادة فهي اسم لا مسمى له وإن هي الا وهم وخيال . . .

وقد نسمع أن كثيراً من رجالات الفكر وحملة الأقلام كانوا فقراء معدمين بئسين وأن الجبهة الأغنياء كانوا في يسر ورخاء وطالما أنشدونا :

رزقُ التيوس يحيتها بسهولة وأولو الفصاحة رزقهم مسجون .

إن كان حرماني لأجل فصاحتي فامتن على من التيوس أكون !

والمنطق في ظاهره يحيل هذا الذي يبدو غريباً في مظهره ، فليس بمسلم أن يعجز المفكرون — وهم المفكرون — عن أمر تناله الأغنياء المفاليك —

وهم هم ١

وربما نزول الغرابة إذا نحن فهمنا أن الفكر دائب الطموح لا يرضى لنفسه ما هو فيه وإن كان في العبث فهو متطلع الى العلو أبداً ناظر الى السماء دائماً ، يرى أنه

مغبون وليس بمغبون ، تمس وليس بنمس ، فقير وليس بفقر ، ومن هذا الباب وحده تهاجمه كتائب البؤس وترشقه بسهامها وترميه بنبالها ، وهكذا :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
هذا هو المعقول ، أما أن تقول — اطلاقاً — إن رجال الفكر وحلة الأقلام
معدومون بالأسون فتلك دعوى عريضة نسمعها كل آن وسيعلم الباحثون مكانها من
الحق والتاريخ .

على ضوء هذا الفكر نستطيع أن نقول — مع الفائلين — إن حافظاً كان فقيراً
بائساً . ولم لا يكون بائساً ؟ بل ولم لا يكون شيخ البائسين ؟

ألم يسع حتى كاد ينتعل الدم ثم لم يحظ من الحياة بما يريد ؟ ثم ألم يلبس
الدجى والليل هادئ « والنجم يحسبه ثامناً للسبعة الشهب » ولكنه مع هذا ،
ومع كل هذا غير محدود ، وما فتئت يد المقادير تقصيه عن الأرب ؟

واستلان الحياة فحمت ، واستعطفها فغلظت ، ولاطفها فلم تزد الا شحاً وبخلًا ،
وطرق على السعادة كل باب فلم تزد الا اياءً وشروءاً . ولما أعبته الحيلة مع الحياة ،
وقاضت الكأس ، وطفح الكيل ، جاهرها هو الآخر بعدائه ، وأعلن عليها
حرباً كلامية شعواء وشنها غارة حامية الوطيس ، فرماها بما رمى ، فهي العاهر البغي
اللعوب القلب ، ما سرت يوماً إلا أبكت في غده ، وأنها قد أضرت به فهم باختها
هرباً منها وفراراً ، واستحسن مذهب ماني صاحب نظرية تعجيل الفناء بقطع
النسل فقال :

لعل « ماني » لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشَّجَبِ ا

وحلق في الجو الذي خلق فيه أبو العلاء فانطلق يقول :

عليك جنيتُ يا نفسي وقبلي عليك جنى أبى فدعى عتابي ا

وعتب على نوح حمل الناس معه وقد كان في مكنته أن يتركهم يفرقون فيستريحون
ويريحون ، وهو لهذا لم يُخلص للناس النية ولم يمنحهم الودّ الصحيح :

ويا نوحاً جنيت على البرايا ولم تمنحهم الودّ الصحيحاً

علام حملتهم في الفلك ؟ هلا تركنهم فكنت لهم مريحاً ؟

ولا أريد في هذا المقام أكثر من أن يضع القارئ صورة حافظ العابسة التي ترسم في ذهنه بعد قراءته هذا الكلام بجانب صورته الأخرى : صورة حافظ الطروب الضاحك المداعب

حافظ الذي ذكرنا له من البؤس والتبرم بالحياة والضجر منها والثورة عليها ما ذكرنا هو حافظ الذي يملأ كل جو يحيط به بمجانة ودعابة وفكاهة ، هو حافظ الذي يتنادر الادياء بمحيطه ، ويتنادرون بنسكاته حتى قال العقاد على قبره :

أبكاء وحافظ في مكان ؟ ! تلك إحدى عجائب الحدائق

صورتان للرجل : أولاهما عابسة يائسة بائسة ، والثانية ضاحكة صاخبة ماجنة
صورتان متباينتان على لوحة واحدة هي الحياة
كيف هذا ؟

وهل هذا معقول ؟ الأمر لا يحتمل جدلاً ، فانه واقع وواقع لا يرتفع .
إذا فكيف تفسر هذا ؟ كيف تفسر البؤس بعنق المجانة ؟

لعل مجانته كانت ضرباً من التهكم بالحياة والسخرية وعدم الحفل بها ، فهو ينهكم بالحياة ويسخر بالدينا ، ويصوغ ذلك في قالب من الفكاهة تحمل على أجنحة الضحكات أقسى معاني الألم ، وأبلغ معاني البؤس ، فهو إذ يرسل لك نكاته يصور لك حالة نفسية في صورة بهجة تنقطع لها نياط قلبه في الوقت الذي تمتلئ الاشدق ضحكاً لها ، وسروراً بها .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا أن حافظاً الذي أعرفه لم يكن من فلسفة الالم الى هذا الحد بل ولا الى غير هذا الحد .

إذا فكيف تفسر المجانة تُؤالف البؤس ؟

ألا يصح أن يكون ألم الرجل البالغ نقله طفرة من طور البؤس الى طور المجانة ؟
النظرية في ذاتها من حيث هي نظرية سليمة ، فان انشئ اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، وانت تشاهد كثيراً من الذين يصابون بفادح الخطوب ينقلبون كعمومين هاذين ضاحكين بل وربما معربدين راقصين

إذا صح هذا فهل لا يصح أن يكون حال حافظ من هذا النوع ؟

معقول أن يكون ، ومقبول أيضاً ، لولا أن ابتأس حافظ لم يكن من هذا في شيء ولم يكن حافظ في ذاته من هذا في شيء .

إذا فكيف نستطيع أن نفهم أنه كان بأئساً ماجناً ١٢

ألا يكون الرجل لما نزلت به الهموم — وهي أثقل الضيوف — وضاق بها ذرعاً ، لم يجد طريقاً يرفه عن نفسه بها الا طريق المجانة فارتقى بين أحضانها يشرب من وردھا سائغاً يغسل الهموم ، وينفس عن القلوب ، ويرقّح عن النفوس .

وهذا هو الآخر معقول ، وربما كان مقبولا ، لولا أننا نتساءل لماذا لا ينفس عن نفسه الا حينما زوره المادة أو ثوابته ظروف المجانة ، ولو كان هذا صحيحاً لتطلبها الرجل كلما حزبه الهمّ وفدح ، ثم انه لو كان واقعاً لما كان مطبوعاً عليه بل لجاء متكلفاً ظاهر التكلف .

إذا فبماذا نعلل هذا ؟

أعلمه كان مطواعاً للظروف والأحوال : فهو بأئس يوم تنزل به ظروف البؤس ماجنٌ ساعة ثوابته ظروف المجانة ، فلهذا ظروفه وملابساته وتلك ظروفها وملابساتها . وقد كان يتفق لحافظ أن يقع في يده قسط من المال غير قليل ، فلا يكاد يستقر في حافظته حتى يتطاير الخبر الى وليجته والى وليجة وليجته ، فيجتمعون على ما يجتمعون ، ويقضى شاعرنا سويعات أنسه ، وأويقات مروره ، حتى اذا ما نصب المال وهو لا بدّ ناضب رجع الهزار الى وكره حزينا بأئساً مهيباً . إذاً لحافظ. بانس يوم بؤسه ، ماجن يوم أنسه .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا ... لولا ...

لولا ماذا ... ١٣

لا شيء ، لا شيء ، فان هذا هو الواقع ، وبه نستطيع أن نجتمع بين صورتيه المتناقضتين فيما يبدو للناظر ، وهي ناحية أهملها اخواننا الكتاب لانكبابهم على شعره وتركه هو فيما دون ذلك !

وبعد فقد كان يجدر بنا أن ندرس أمثال تلك المناحي في حياة الراحل العظيم ، وهي كثيرة لم يكتب عنها الكتاب الاعرضاً وتلميحاً .

ايها السادة الادباء ! لن نستطيع أن نفهم الشاعر من شعره حتى نفهمه هو حق نفهم ، وكـم كنت مستغرباً للدكتور طه حسين أخذه على العقاد أن يكتب عن ابن الرومي في غير شعره الى هذا الحد !

أحسب أنه أراد أن يأخذ عليه إهماله شعره ، وهل كان الشعر الاصدى
لامثال تلك العوامل ؟ والباحث العميق من نقد من القشور الى المصاص ، ومن
الأياف الى اللباب ؟

طاهر محمد أبو فاسا



مداهة حافظ

كان حافظ ، رحمه الله ، حاضر النكتة ، حلو الحديث ، طلق اللسان ، سريع
البديهة ، وهالك مثلاً على ذلك : —

زار حافظ — أيام بؤسه — مدينة السنبلاوين ، فأضافه كبير من عائلة
(سليط) وهو صادق افندى سليط — فلما دخل حافظ المنزل مع مضيفه ، جلسا
في بهو من الأبناء الفسيحة ، وكانت صورة صادق افندى الزيتية الكبيرة معلقة
على جدار من جدران هذا البهو ، فطلب منه صادق افندى أن يصف هذه الصورة
ووعده خمسة جنيهات على كل بيت يقوله ، واشترط عليه ان لا يستغرق في نظم
البيت الواحد أكثر من دقيقة واحدة ، ثم اختار له البحر والقافية ، وأمسك الساعة
تواً — فاذا بحافظ يتحلف الحاضرين بخمسة أبيات جميلة جداً لا أتذكر منها إلا هذين
البيتين وهما :

سألنا مجزىَ المجدِ اهداءَ صورةٍ تموجُ بها أوصافه والخلائقُ

فقال لنا لما رأى رسمَ صادقٍ : خذوا صورة الأجداد ، فالمجد صادقُ

فقال بذلك الجائزة ، وكما كانت دهشة الجميع عظيمة عند ما قال لهم صادق انه
استغرق في نظمها أقل من الوقت الذي أجازه اياه بدقيقتين — وليس يخفى على أحد
ما في البيت الثاني من التورية الطريفة أيضاً . وهذا مثل واضح على حضور ذهنه ،
ومرعة بديهته ، وذلاقة لسانه .

فلئن فقد الشعر والأدب فانَّ فقدته عظيم وزرعه جسيم ، ولئن بكاه الناطقون
بالضاد في أنحاء المعمورة فقد بكوا ملكاً متوجاً في ميدان القول نثراً أو نظماً ، رحمه
الله رحمة واسعة ؟

محمد سمير السمراري

حافظ الخالد

يا حسانَ القريض عهدَ الحدادِ قد أتى فارتدى ثيابَ السوادِ
شاعرُ النيل حافظٌ مات فاشدى بأغاني الأُمى على الأعوادِ
مات مَنْ شعرُهُ جدبٌ بتر ذائبٌ أن يُخَطَّ لا بالمدادِ
فأقيمى عليه ماتك الأَكبر وأتى اليه من كل وادِ

« . »

ربة الشعرِ ما فقدتِ كهذا م الشاعرِ العبقريِّ من عهدِ عادِ
مات من كان في رياضك لا يند فكَّ عَشَى مع الصبا وهو شادِ
فبكاه الهزادُ أيَّ بكاء في الرُّبى فوق غصنه الميَّادِ
وَعَشَى الغديرُ وهو من الأحزانِ م دوماً يئنُّ بين الوهادِ

« . »

ربة الشعرِ أنْ حافظَ أودى فإليه نادى بناتيك نادى
واضربى حولَ نعشٍ في رُبى ال خلدٍ نطاقاً من الحسانِ الخرادِ
ولتضعه يدا نسيم الصبا في كفن من ندبة الأودادِ
ولتسُجَّ كلُّ رائحٍ في السمواتِ م وفي الأرضِ ولينح كلُّ غادرِ

« . »

أيها الشاعرُ العظيمُ أينَ لي حالةُ النابغين في الأحادِ
أترى الموتَ غفلةً من بلايا ال عيشِ أم أنه نظيرُ الرقادِ
أترى في ضريحهِ جسدُ الشاعرِ يبلى ككسائرِ الأجسادِ
أم حسانُ القريض تكلؤه دوماً ونحميه من بلى وفسادِ
قف على منبرِ القبورِ وانشد شعركَ الجزلَ أيُّما إنشادِ
أيها الشاعرُ اشرحْ الموتَ لى لى م إلى الموتِ في شبابي صادِ

شبه الموت لا كما شبهوه من قديم بمنجل الحصاد
 ذلك المورد الذي منه ماعا دلنا وارد من المورد
 ذلك المنجع الذي ليس بهوا ه امرؤ وهو ملتقى الرود
 صف لي الروح كيف بالله بعدا موت تبقى على مدى الأباد
 وصف القلب هل يصير خلالا ترب خلوا من لونة الاحقاد
 أترى يستريح من السنن الوا شين في القبر أو من الحساد
 أترى في التراب يرتاح من كبر در الأعادي وطائرات العوادي
 إن نكن للنفاد طرأ ففسر لي معنى الحياة والايحاد
 أو تلك الروح للفناء فخير من هموم الحياة غيش الجاد
 أو يك الجسم للنشور فأني يتلاشى ويغتدى كالمداد

« • »

هل لنا من يُقيم بعدك في سو ق عكاظ على سرير زياد ؟
 هل لنا من يهز شعباً غدا بطى على الشرق تحت ستر الحبار ؟
 هل لنا من يبشنا العزم كي لا نتوانى عن رد كيد الأعادي ؟
 كنت هذا جميعه أيها الشاعر بل كنت شعله للبلاد
 فابك يا شرق حافظاً واندبى يا مصر من كان حافظاً للوداد
 وابك يا دهر شاعراً عبقرى لا شعر أعل لى لواء الضاد
 قد فقدنا من كان طول سنيه واقفاً للطفاق بالمرصاد

« • »

ملك الشعر قد ذهبت وما خلفت في ملك سوى أجناد
 هل نلاق خليفة لك يا (فر عون) يوما في قومك الایجاد ؟
 انما الأنفس الكبار سيوف ينتضيها الردى من الاغمار

مؤبر ابراهيم ابراهيم

(حيفا — فلسطين) :

في سماء الفن

إلى روح حافظ

أضاء بلبيل الحياة فأضحى نهاراً جميلاً بغير مماء
وأضحى هجير الخلود ظللاً وظل الخلود بديع الرواء

« . »

توارى ولكن سناه طريفٌ يُنير الحياة ويحلو السماء
ويحبو الوجود بسرٍ عميقٍ ويحمي الفنون رهيب الفناء

« . »

رأينا خلال الظلام بريقاً فجدد فجراً بليغ الصفاء
وبين الركون المميت تسمى فعلم موتى النفوس الاباء
ولكن هدايا الزمان رياء فأين عطاء حواه الوفاء ؟
وأين شعاعٌ نبيلٌ كنهادي يُذيب الغموض ويححو الخفاء ؟

« . »

توارى ولكن سناه طريفٌ يُنير الحياة ويحلو السماء
ويحبو الوجود بسرٍ عميقٍ ويحمي الفنون رهيب الفناء

المهرى مصطفى



تشكر سوربة يا حافظ

فارقد يسلم !

مات حافظ ابراهيم وكان أعظم الناس لوعة عليه أهل سورية . ولا غرو ،
فحافظ لم يكن لمصر بكليته ، بل كانت أفكاره أبداً تسير وتنطلق نحو ذلك القطر
الذي عرف في أبنائه خلاناً أوفياء ، ورفاقاً خلصاء .

بكته سورية ولم نشأ أن نتعزى عن فقد . بكت فيه صديقاً حقيقاً ، بكت فيه
حبيباً غالياً ، بكت فيه ابناً ثانياً ، وعزاؤها فيه صعب المنال . واني أجاهر بأن

لحافظ منزلة لدى أبناء سورية لا يدانيه فيها شاعر مصري آخر ، بل أقدر أن اصرّح
ان اجلالهم له يفوق اجلال أبناء النيل لشاعرهم !

كان حافظ مصرياً صميمًا ، يتعدله بحب مصر ، كثير الوجد بها . لكنه أحبّ
سورية حباً مائلاً لوطنه ، فخلع عليها من قصائده خيرَ بردها ، وجلّ لها من الخانة
بأشجاها ، ولم ير غضاضة أن يصيح :

لى موطنٌ فى ربوع النيل أعظمهُ ولى هنا فى حماكم موطنٌ ثانٍ

انى رأيتُ على أهرامها حُلَلًا من الجلالِ أراها فوق لبنانِ

حسبتُ نفسى زيلًا بينكم فاذا أهلى وصحبى وأحبابى وجيرانى

ولا يرى وجهاً للعلامة فى تعلقه بحب أبناء الشام ، وفرط ولائه لهم ، وانه ليجد
نهاية الفخر فى هذه المودة ، فيذيع على رؤوس الاشهاد :

إن يكتبوا لى ذنباً فى مودّتهم فاتما الفخر فى الذنب الذى كتبوا !

كان فذاً بين أقرانه شعراء مصر ، كان عالماً بين الدّاعين الى الوثام ، كان
فريداً فى نشره ألوية المحبة بين أبناء القطرين ، ولقد أجاد فى وصفه
العلائق بينهما :

إذا أملتُ بوادى النيل نازلةً باتت لها راسياتُ الشام تضطربُ

وإن دما فى ترى الأهرام ذوالم أجابه فى ذرى لبنان منتصبُ

وطالما أشار إلى ان السوريين هم دوماً عند حسن الظن بهم ، يجعلون همهم
الأوحد خدمة كل بلد نزله ، وكل قطر حلّوا فيه ، بذات الاخلاص وذات
المحبة التى يخدمون بها بلادهم . وطالما أشار الى جهادهم فى مصر :

إنّا رأينا كراماً من رجالهم كانوا عليهم لدينا خيرَ عنوانِ

كم فى نواحي ربوع النيل من طُرفٍ لا يازجى وصرّوفٍ وزيدانِ ؟

وكم لآحيانهم فى الصحف من أثرٍ له المقطم والاهرام ركنانِ ؟

ولم يكن ليقصر عند ذكر الصداقة والاخاء فصحب بين مصر والشام ،
فلكم افتخر بمفاخر السوريين كمن يفتخر بحامد آله وعشيرته . أنظر اليه يقول
فى حماسة وحمية وفخر :

بأرض «كولب» أبطال غطارفة
لم يحصهم علم فيها ولا تعدد
أسطولهم أمل في البحر مرئحل
لهم بكل خضم مربب نهج
لم تبد بارقة في أفق منتجع
أو ما صاح به ههنا :

عافوا المذلة في الدنيا فعندهم
لا يصبرون على ضيم محاوله
نيموا أرض «كولب» فاشعرت
سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها
في الكون مورقهم في الشام مغرسهم
إن لم يفوزوا بسلطان يقرهم
أو ضاقت الشام عن برهان قدرتهم

لا يرضيه ذلك فقط ، بل انه ليذكر يد سوية على العالم واثرها فيه حتى اليوم ،
وانه ليشير من طرف خفي الى عبقرية الفينيقيين — أولئك الاجداد الذين عركوا
الدهر وأبلوه ، ولم يقدر بنوائبه على محق مفاخرهم وآثارهم — وانه ليبدى صراحة
ان الغربيين من اميركيين وسواهم يفون ذمامهم نحو سورية بأنشائهم دور التعليم فيها :

أرى رجالاً من الدنيا الجديدة في
قد شيدوا آية بالشام خالدة
لش هدوكم لقد كانت أوائلكم
لاغروا إن أعجزوا في الأرض وابتكروا
فتلك دنياهم في الجو قد نزلت
دنيا القديمة تبنى خير بنيان
شتى المناهل تُروى كل ظمآن
تهدى أوائلهم ازمان ازمان
فيها أفانين اصلاح وعمران
أعنة الريح من دنيا سليمان

ما ذا أريد بل ما ذا أقتطف من نمار شعره الشهية ؟ لا أدري والله أى شيء
أختار وآيه أغفل ؟ وليس لي إلا أن أحيل القارئ على ديوانه وعلى قصائده المنشورة
هنا وهناك في الصحف والمجلات — التي لا يريد جمعها أحد . . . وأخاف على حظ

حافظ العاثر أن يفتنى في حظ شوقي المجدود ، فلا يُسَلِّفَتْ إلى جمع آثاره وحفظها !
 وقف حافظ في منتدى الجامعة الأميركية في بيروت يرثي نفسه في
 ذات القصيدة العصماء التي مدح بها الشام ، يرثي نفسه في ألم وحرقة . . . يرثي
 ذاته أمام من أحبّوه وأجلّوه ، ولم يجدوا كيفية يعبرون بها عن شعورهم العميق
 تجاهه سوى تلك الحفلة الأدبية الكبرى يشيدون فيها بما آثره وفضله ، وتلك
 الحفلات العديدة في دمشق وسواها إمعاناً في النكريم والشكران ، وذلك الوسام
 بعلقة رئيس الوزارة على صدره .

وقفاً يذكر بؤسه ، ويشكو زمانه ، ويتحسر على حياته ، ويتمنى
 لو أُتيح له انتجاع الصحة دائماً في رياض لبنان وجباله الشام ، فيصبح من كبد حري :
 يالبتى كنتُ من دنياي في دعةٍ فلي جميعٌ وأمرى طوع وجدانى
 أقضى المصيفَ بلبنان على شرفٍ ولا أحول عن المشتى بحلوانـ
 ثم يعود فيعرج على ذكر الموت ، ويحنّ إليه ، ويرتقب مجيئه ، وتكاد تشعر
 بقرارة نفسه تكاد تسيل أسمى بين كلماته المحزنة :

ولّى الشبابُ وجازتنى فتوّتهُ	وهدمَ السقمُ بعدَ السقمِ أركانى
وقد وقفتُ على الستين أسأها	أسوّفتُ أم أعدتُ حرّاً كفانى؟
شاهدتُ مصرعَ أنرابى فبشّرني	بضجعةٍ عندها رُوحى وربحانى
كم من قريبٍ نأى عني فأوجعنى	وكم عزيزٍ قضى قبلى فأبكاني
إنى مللتُ وقوفى كل آونة	أبكي وأنظم أحزاناً بأحزان !

لقد ملّ حياة لم تبذل له سوى مرارة وحنظل ، ولم تكشف له يوماً عن صدرها
 إلا لثريه إياه مدججاً بسهام النوائب والحنن . ملّ حياة وجهها بامم وقلبها غدار
 لا يكاد يفره منها سنايحها حتى تجابهه بنصاها المحددة ، تخرق كعبة آماله ، وتهدمها
 إلى الحضيض .. فاذا له بها ؟ وها قد جاءت المنية أخيراً ، فاخرمته ، وحرمت أهله
 وصحبه وخلانه صحبته الرقيقة ، ولم تكد تضمه تحت طبقات الثرى في ذلك القبر
 الموحش الحقيق ، حتى أخذت إليها شاعراً كصف بصينه وعبقريته : ذكرى
 شاعر النيل !

في الحياة والموت لم يصادف حافظ إلا حسكا وشوكاً . في الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً ونجاشاً ، فحق له وهو يعلم حظه المسكدود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المضادات تقنعم عليه عرين راحته ، وتكاد تسد عليه منافسه ، فتذيقه من علقمها الواناً واشكالاً ١

اي حافظ !

ان السوريين قاطبة ليكرمون فيك دائراً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التي يزفها اليك احدهم في هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيتها الرابضين في الوطن والمهاجرين في اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فإن ذكرك حيّة خالدة في أفئدة السوريين ، منقوشة ابدآ على صفحات قلوبهم .

وفى ذمة الله يا حافظ !

ميسيل سليم كبير



المدح والشكوى والرثاء

في شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة في مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقّب بالشاعر الاجتماعي ، وشاعر النيل ، شاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذي كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يسره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : « ولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عائر الجسد ، تجرد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس أو متسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بته ما يلدغ لدغ النار الكاتمة في غير متقد »

ان لحافظ أشعاراً في شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذي يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى أبد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والخلان صور لك روحه كأنها تنقلب على

الجمر فهي تعاني من الآلام ما تعاني . وما كان من أشعاره في الرثاء فهذا مما لا يجارى فيه ، فهي بجملتها دموع من قلبه تقطر دماً فلا عجب أن يجيد حافظ المراثي بعد أن نعلم أن ذلك الشاعر العظيم نشأ على اليأس والشقاء ، ولا زال يغالب الأيام وتغالبه حتى ألقى السلاح أخيراً ليرتاح الراحة الأبدية التي لا تعب فيها ولا نصب .

لنبداً أولاً بأشعاره في المديح : قال من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد عبده وهي في غاية الاحكام وحسن الانسجام ، وحسبك ان تنظر كيف ذلل القوافي وجعلها سلسلة الانقياد ، وكيف خلد ممدوحه في هذه الابيات الخالدات ، كما خلد نفسه في طليعة الشعراء الخالدين :

قالوا: صدقت، فكان الصدق ما قالوا	ما كل منتسب للقول قولاً
هذا قريضي وهذا قدر ممتدحي	هل بعد هذين إحكام واجلال ؟
اني لا أبصر في أثناء برده	نوراً به تهتدي للحق ضلال
حلت داراً بها تُتلى مناقبه	يبابها ازدحت للناس آمال
رأيت فيه بساطاً جلّ ناسجه	عليه فاروقُ هذا الوقت يختال
بمشية بين صفى حكمة وتقى	يحجبها الله لا تيه ولا خال
بيت من الشعر يرثى صداه في الآذان فيجاوزها فيعم الدنيا صارخاً :	
هذا قريضي وهذا قدر ممتدحي	هل بعد هذين احكام واجلال ؟
فيجيبه لسان الدهر قائلاً :	

لا ورب البيت ، لا أرى أكرم من هذا الاجلال . وأي اجلال أحكم من الذي يخلد في صحيفة لا تنسى إلى آخر يوم من أيام الدنيا ؟ فليهنأ قائله وليهنأ من قبل فيه بالخلود الأبدى !

أما ترى الرجل في الأبيات التالية من قصيدة يمدح بها ادوار السابع ملك الانجليز يوم تنويجه كيف حنكته نوائب الأيام فجعلته خبيراً بأحوال الانجليز وسياستهم الملك وتديرهم شؤونهم ودهاهم أكثر من غيره ممن اتصل بهم :

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا على مرافقهم والملك قد سهر
تشاؤروا في أمور الملك من ملك الى وزير الى من يفرس الشجرا

وكان فارسهم في الحرب صاعقة وذو السياسة منهم طائراً حذراً
بالبر صافنة داست سنايكاها مناجم التبر حتى طافت المدررا
وفي البحار أساطيل اذا غضبت تر البراكين فيها تقذف الشررا
وهن في السلم والايام باسمية عرائس يكتسبن الدل والخفرا
لا رب ان الرجل بعيد الفراسة ينظر لكل ما يحيط به نظر حصيف مدرب
لا تتعداه فائتة ولا تفلت منه .

لنجس خلال بؤسه وآلامه وانعابه ، ولننظر الى أى حد وصل به ذلك
البؤس المرهق الذى لا يصمد له من الرجال الا الأفذاذ القلائل :

وددت لو طرحوا بي يوم جثتهم في مسبح الحوت أوفى مسرح العطب
لعل (ما فى) لاقى ما أكابده فودت تعجبنا من عالم الشجب
هكذا فليكن فرض القريض مترجماً عما فى نفس صاحبه وما يساورها من
خوالج . لازمه البؤس والنصب من عهد الشباب الى أيام الشيخوخة الا قليلا منها ،
فأرسل الشكوى الحارة المحرقة تقطع نياط القلوب ونفت الأكباد وتناضل
عن العبقريّة وحقوقها عند الجمهور المستهين بها .

أوما تراه كيف بأسف على ما جثم نفسه من ركوب الأخطار والاعتاب ،
لولا أحكام القدر القاسية التى جعلته يكتسب رزقه مضطراً بهذه الحالة المضنية ،
وكيف عاد يعتذر لنفسه عما لاقته من اعتاب ، وان سبب انعابها راجع الى والده
الذى عمل على ايجاده فى هذه الدنيا ، وقد زاد على قول المعري :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

بأن أشرك نفسه مع والده فى الذئب إذ يقول :

رمى بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب

وما حملتها الا شقاء تقاضيني به يوم الحساب

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى

الى أن قال من هذه الشكوى المؤثرة :

سعت وكم سعى قبل أديب فأب بخيبة بعد اغتراب

وما أعذرت حتى كان نعل
وحتى صيرتني الشمس عبداً
دماً ووسادتي وجه التراب
صبيغاً بعد ما دبغت إهابي
وحتى قلم الاملاق ظفري
وحتى حطمت المقدار نابي

ولعمر الحق لو حاول أمهر المصورين أن يصور ما بسطه حافظ من شكوى في هذه الأبيات القلائل لما استطاع ، وكأني أراه خارجاً مع الجنود في بعض المهام إلى بلد بعيد وقد تقطع نعله من كثرة المشي ، فظل يسمى حافياً وقد بلل دم قدميه وجه الثرى ، حتى اذا أدركهم الليل نام ملتحفاً الأرض كغيره من الجنود فاذا أشرقت الشمس في صباح الغد ما ودوا المسير وقد تضاعفت حرارة الشمس بما يصبر الجلود ويفعل الأدمغة . ولم يزل هذا ديدنه في الأيام التي كان فيها ضابطاً بالسودان في الجيش المصري حتى أحوالت لفحة الشمس وجهه المشرق بالبياض ونفزة الشباب إلى وجه قد علاه السواد كما يعلو الصداً سيفاً لبث في غمده أعواماً — فيا لها من أقدار ساخرة لا ترحم ، تلك التي جعلت شاعر مصر الاجتماعي العظيم يتذمر من الحياة ويشكو من أتعابها يا لها من أقدار تلاعبت به كنتلاعب القط بالغار حتى قال :

فلو ساق القضاء إلى نفعاً لقام أخوه معترضاً شحيحاً

والآن فلننتقل من شقاء متواصل إلى أدمع من دماء سكبتها روح ذاق مرارة الألم وطعم العلقم .

قال من قصيدة يرثي بها المرحوم الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الإسلام بعد محمد سلامٌ على أيامه النضرات

على الدين والدنيا ، على العلم والحجاء على البر والتقوى ، على الحسنات

فأنت بمجرد قراءتك لهذه البيتتين في مطلع القصيدة تعرف مبلغ الحزن العميق الذي نال الشاعر بفقد الأمام — حزن من أحسن بعظم المصاب وفراغ المكان في وقت كان الاسلام في أشد الحاجة الى بقاءه لبخرس السنة الأفاكين . والقصيدة بأكلها تبرهن على حزن ناظمها حزناً لا تشوبه سائبة رياء أو مجاملة .

بماذا تشمر حين تقرأ الأبيات الآتية ؟ ألا تشمر معي بعظم الخسارة الفادحة وقد صور ذلك الشاعر تصوير مفعوج ناك كل فأبدع التصوير حيث قال :

تباركت هذا الدين دين محمد أيترك في الدنيا بغير حماة ؟

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات
الى أن قال :

فيا سنة مروت بأعواد نعشه لانت علينا أشام السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جرات الحزن منظويات

الى أن قال مصوراً للحزن الذى استولى على الشرق خاصة والعالم الاسلامى
علمه بفقد ذلك العالم الجليل :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضافت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر بالك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى القرس نادب وفى تونس ماشئت من زفرات
بكى عالم الاسلام عالم عصره مراج الدياجى هادم الشبهات

وهاك أبياتاً من قصيدة قالها فى حفلة تأبين المرحوم مصطفى باشا كامل يترجم
بها عن الحزن الذى استولى على الناس عند وفاته وشعورهم بخوف فقد زعيم الوطنية العظيم :

تسمون ألفاً حول نعشك خُشَّعَ يحشون تحت لوائك السيَّارِ
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ
آنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوَّارِ
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم عند المصلَّى ينصتون لقارى
غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كلج ولا اسفنتارِ
الى أن قال :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الافكارِ
سفرت تودع أمةً محمولةً فى النفس لا خبراً من الأخبارِ

لا ريب أن حافظاً أجاد تصوير الفاجعة على حقيقتها الواقعة تماماً . فهو بعد
أن تكلم عن ذوات الخدور وخروجهن فى جنازة الفقيد ليُشيعنه الى مقره الأخير
وقد مزقن أستار الحجاب وجاهرن بالسفور أمام الجماهير المشيعة للفقيد عاد فشه

الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطني يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق في هذا النشيه فكل من يسعى في تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الناقب إذا فقدته فلا حياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخود فكرها بعد توقده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دعاة يسمعون في تحقيق أماني البلاد فتُبعت من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة (الشاعر الاجتماعي) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر مفشداً بلسانه :

خالدة الآثار لا تحسّ البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلّد
الجزيرة ايا - السودان : بشرى السبر أمين



سيرة حافظ

الى الشاعر البائس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشعلة التي تذوب لتضيء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذي هدمت آماله وبذّدت أمانيه ، وبغرقت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع » الى روحه الطاهرة المرفرفة بمحاجبها في سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات في عالم الخلود ، اليك يا حافظ أهدي رسالتى

١ - مولده

في فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بدروط وأسرته في عيدها الأوحد تستقبل ابنها الأوحد الذي أبت الأقدار أن تبعت به من عالمها الزهيب المجهول إلى عالم الخلد بصوره وآياته الأفي ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الشاء العاطر والشكر الجميل » ١

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبيلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذي تركه بين أحضان أمه التي أضناها الأسمى وحزبها الألم وقضت من بعده وهي تتمنى لو أن نفتدى ما في حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال ببقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال

ومجدنها كأُم وقد امتلأ عافية ونضارة وجمالاً ، وكفله خاله ورباه وقد ضاعت نروة
أبيه وأضحى لا عائل له غيره .

٢ - طفولته

ليس أمامنا من المصادر والتحقيقات ما يشير إلى طفولة حافظ بكثير ولا قليل
غير حادث يتمه المبكر هذا الذي أثر في تكوين شخصيته إلى حد أن يقول التوفى
عنها : « ويظهر أن لذلك اليتيم المبكر أثراً في تكوين شخصية حافظ الدفينة الحزينة
فلقد كان حافظ في قرارة نفسه كما سيتبين بعد حزيناً ، فكان إذا خلا إلى نفسه أو
إلى صديق ظهرت خفائيفه ، وإذا قال الشعر كان عليه مسحة كبيرة من ذلك الحزن
الدفين ولذلك خلا شعره من الفكاهة وخفة الروح التي عرف بها المرحوم الفقيد
في المجالس والسوامر » . . .

أجل ، فالحزن قد طبعه بطبيعته الخاص حتى انه كان لا تستجيب إلى ندائه
آلهة الشعر إلا إذا ما بكى ، وفي ذلك يقول رحمة الله عليه : « لا يطيب لي نظم الشعر
إلا إذا ما كنت محزوناً » .

إذا حُرِمَ ذلك الطفلُ أبويه وأضحى يتيماً محزوناً ، محروماً تلك القبلات
الحلوة الأنوية ، وهذا العالم أمامه قطعة سوداء قائمة صاغتها يد الحزن والأسى .
أجل ، فقد قضى سنَى طفولته وهو ذلك الحزين اليتيم الذي لا يشعر بعطف
أب أو حنان أم ، ومدارسه التي جاس خلالها من الابتدائية حتى الجندية والشعرية
بمحوطها الحزن من كل مكان !

٣ - تعليمه

دخل المدرسة الابتدائية ثم لما نال جائزة التحفيزية ساءل نفسه : ماذا أصنع ؟
وبأى مدرسة ألتحق ؟ وأى الرجال أحذو حذوه وأنسج على منواله ؟ فلم يظفر
من نفسه بغير هذا الجواب : « الحربية والبارودي ! » لكنه عاد إلى نفسه وقال : لماذا ؟
فظفر بهذا الجواب : « ان قامنى المديدة الفرعاء وتركيبى القوى المتين هما الدليل الناصع
على صلاحيتى للحرب ، وروحي الشعرية الجميلة التي يزورنى طيفها في الامسية الحزينة
والأصيل الضاحك هي التي تمكننى من القيادة العامة التي أتوق إليها ، وبذلك أحمل
السيف والقلم عن جدارة واستحقاق » .

فكان له ذلك والتحق بالحرية وخرج منها برتبة ضابط وما لبث أن وزّع على السودان يحمل بين جنبيه قلباً مملوءاً بالآمال ينشد المجد وينظر إلى السماء .

لكنه تلفت حوله في السودان فرأى شمساً محرقة تلفح الوجوه بسعيرها وزملاء يغلب عليهم الجهل والجذب الروحي ، وإن ذلك الحلم الذي نشده طالباً أخذ ينهار ، وهنا تتفتح عيون شاعريته أو بعبارة أخرى مدرسته الشعرية .

٤ — حياته

رأى البد الانجليزية تسيطر على الجيش المصرى فزأر لكرامته المهدورة ، ورأى جهل اخوانه وشمس السودان المحرقة تحول بينه وبين نعيم الشاعرية الذى ينشده فى ظلال الجزيرة وأنديه العلماء ومجالسهم ، ورأى فى السودان برغم ما حبته الطبيعة من صور الجمال ذلك الجذب الروحي الذى يمحته ، وشكواه تراءى لنا من خلال أبياته التى بعث بها من السودان إلى صديقه بيرم وقال فى مطلعها :

زحنتُ عن الديار أروم رزقي وأضرب فى المهامه والتخوم
إلى أن يقول :

ولولا سورةٌ للمجد عندى قنعتُ بعيشتى قنعَ الظليم.

ومن كتابه إلى أستاذه الإمام محمد عبده الذى يسأله فيه انتشاره من وهدهته هذه فيعده خيراً ويرجع اليه ثانية يسأله : « مثل كتابي إلى سيدي وأنا من وعده بين الجنة والسلسيل » إلى آخر هذا السجع المملول المزوج ببعض المقطوعات الشعرية ازرقيقة ويعده الامام ثانية خيراً وظل حافظ متبرماً إلى أن قامت ثورة الضباط المصريين وأبعد حافظ إلى مصر مغضوباً عليه رهن المحاكمة مشدوه الفكر مبليبل الخاطر حتى صدر عفو الخديوى ورجعت اليه طأئنته وحرية . وكانت هذه الساعة هى أخرج ساعات حياته إذ أنه رأى بعينى رأسه فشل الثورة العربية وأستاذه البارودى معرضاً للمحاكمة ونفوذ المستعمرين قد ازداد وأمله الجندى ينهار والكرامة المصرية كأنها لم تكُ شيئاً مذكوراً .

ولما استقرت الأمور بعض الشيء رجع حافظ ثانية إلى الخدمة لكنه ما لبث أن طلق الجندية طليقة بائنة لا رجعة فيها مردداً هذه الانشودة : « أى يوم عرفت الحائم غير سماء الحرية ونور السلام ١ »

انقطع للشعر والترجمة والتأليف وعاش معيشة بوهيمية هي قطعة من خيال الشاعر الذي يأبى القيود والأقفاص ولو كانت من ذهب ! وعلى ما أذكر كان حافظ قد التحق بالمحاماة أمام المحاكم القديمة قبل اتصاله بالحربية وبعد ذلك واشتغل مع بعض أعلام المحاماة في ذلك العهد .

ومنذ ذلك الحين وهو يرسل آياته التي أفضت جانب الاستعمار تارة والرجعية تارة أخرى ، والتي عرفت بأنها آيات الوطنية والاجتماع من شاعر الانسانية ومن شاعر النيل قبل كل شيء .

ولما أن تقدمت به السن رأى الحياة الأدبية راكدة آسنة وأتبع له عطف ولاية الأمور حينئذ فالتحق بدار الكتب المصرية في سنة ١٩١١ وبقي فيها حتى أوائل سنة ١٩٣٢ فخرنا شعره جل هذه الفترة الطويلة حتى اذا ما انقضت وأُحيل إلى المعاش أرسل صيحاته التي اشتهر بها في وجه الاستعمار والرجعية في هذا العهد الأخير ، ولم تنقطع صيحاته هذي الابعونه في ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

٥ — بؤسه

خير من فطن من الكتاب إلى بؤس حافظ الأديب التوفى إذ يقول : « هذا بؤس نفساني روحاني ، وليس بؤس المادة والحاجة والطمع » .

أجل ! فبؤس حافظ ينحصر في آماله المهتمة ونمائيل مجده المحطمة وفصوره التي بناها في الخيال ولعبت بها الرياح الهوج !

شاعر من شعراء الانسانية يحمل القلم والسيف يهز بالأول أوتار القلوب بما يبغنه من الآيات الرائعة تارة ، وأخرى يبعث الدمع السخين من المآقي بأناته الشاكية من الظلم والظالمين والرجعية والمستعمرين وجهل أمة متأخرة تناوي المصلحين ونشايح الرجعية الجاهلة وتؤيدها ونوم شرق راكد لا يفيق ، فالاستعمار يخنق الشعب والأمة تعبد الأصنام والموتى والشرق يقدر الجود والركود !

يود لو أن سيفه يعمل في الدائرة التي خُلق لها كقائد عام فلا يمد جنودا بل يرى فلولا أثر فلول وهزيمة أثر هزيمة وما يتبع ذلك من المصائب والويلات .

فلما ذا لا يتملكه البؤس ؟ ولما ذا لا تهدم آماله ؟ ولما ذا لا يقول :

لكنني غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تعصيني عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرحة وفي أمورى ما للضب في الذنب
اى وربى ، كان له أن يقول :

وحتى قلم الاخفاق ظفري وحتى حطم الافراط نابى
بدلاً من قوله :

وحتى قلم الاملاق ظفري وحتى حطم المقدار نابى
الاخفاق اخفاقه كقائد عام ينشد حياة جديدة للجيل الجديد والاجيال المقبلة ،
والافراط افراط الشعب في جهالاته وضلاله وغبه وغفوته الشبيهة بالموت الابدى !
٦ — ملاحظه وصفاته

مديد القامة ، قوى البناء ، ذو وجه صبح ، وشاربين طويلين ، وعضل مفتول
وصوت عذب ، وجسم متين خلق للجندية والسكفاح .
وهو فى (مرآة البشرى) : يحب الجمال ويجمع له ويكره القبح وينعى على أهله ،
تجابه بذلك مجابهة ، لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو
الحديث ، حاضر البديهة : رائع النكتة ، بديع المحاضرة . إذا كتبك يوماً أن تشاهد
مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك انك فى بستان تمطفت جداوله ، وهتفت
على أغصانه بلبله : وأشرق زجسه ، وتألّق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تأنك عيناه وهذا
خده ! تنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشر هذا النسيم كيف يموت !
والبدر فى ملكه بين الهجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء ، فلا تدرى
أأمست السماء فى الروض أم أمسى الروض فى السماء ؟ كان متلاقاً إلى حد كبير : فقد
تجتمع له الالف ولا تمكث فى يده أسبوعاً ، متفنناً فى طعامه وشرابه إلى حد كبير .
فلنتقل الى رثائه ففيه مادة غنية خصبة تغنيك بعض الشئ يا صاحبي عن ثقل الرثاء
وفنه المرذول بجانب شعرنا العصرى الجديد ، ذلك الشعر الانسانى الناظر الى السماء .
ان قصيدته فى رثاء الامام محمد عبده هى وايم الحق كتمثال صامت له ، فانظر اليه
فى مطلعها :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات !
أليس فيه من المنعة الفنية ما يحجب اليك الشاعر وشعره المتمثل فى قوله :
لقد كنتُ أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى ان تطول حياتى !

فن جزالة في اللفظ وحصانة الى قوة في المعنى والصباغة تراها في هذه القصيدة
أو بعبارة أخرى في ذلك التمثال .

لكنني لم يرقني قوله :

فيا منزلا في عين شمس أظلني وأرغم حسادي وغمّ عداي
لان الشاعر في موقفه الانساني المشرف هذا ما كان يجدر به أن يهوى الى هذا
الخفض حيث الدنيا بما فيها من حقد وحسد وعداء .
وفداتهم الدكتور طه حسين في تقليده لمسلم بن الوليد . في قصيدته « لا ندع
في الشوق اني غير معمود » لقوله في استاذة البارودي « ردوا عليّ بياني بعد محمود » .
وانني رغم تسليمي ببعض نظرية الدكتور طه فان هذه القصيدة والحق يقال ليست
غير تمثال بديع للبارودي الذي أحبه حافظ ونسج على منواله في الشعر ، وانه — أي
البارودي — هو والمريها اللذان أورا على شعر حافظ بأكارهما التي أحبها
كلّ الحب .

وتتجلى الشعبية الخالصة عند شاعرنا في رثائه لرجال الوطنية كمصطفى كامل
وفريد وزغلول ، فاصم اليه في قوله يرقني مصطفى كامل :

أرى جلالا ، أرى نورا ، أرى ملكاً أرى محياً يحينا ويبتسم
الله أكبر ! هذا الوجه أعرفه ا هذا فتى النيل ا هذا المفرد العلم ا
وخير رثاء له عندي قوله في المرحوم قاسم أمين :

الحكم للابام مرجعه فيما رأيت فتم ولا تسل
وكذا طهارة الرأي تتركه للدهر ينضجه على مهل ا

ولك أن تنتقل معي من رثائه الى وصفه فتجده قد أجاد الوصف رغم اقلاله
وافنصاده . انظر اليه في قصيدته عن « الشمس » :

نظر (ابراهيم) فيها نظرة فأرى الشك وما ضلّ اليقين

تجده يستمر معك في نخامة معانيه وجزالته القاطعة الى أن يقول :

هي طلح الروض نوراً وجنى هي نشر الورد طبيب الياسمين

فيحملك على أن تتغنى بهذه القطعة كانشودة عذبة طبعت بطابع الخلود .
واقرا معي وصفه هذا الذي وجهه الى صديقه صمون بك :

قصورٌ كأنَّ بروجَ السما خدورُ الفوائى بأدوارها

فموجيل الى حد ما ، بيد أنك يا صاحبي لو ظلمت تنقب في صفحات الديوان فلن
تعثر على قطعة وصفية فنية ممتازة مما تغنى به الشعراء المعذنون .

ولكنك لو تلست لحافظ الاعذار في اهماله تلك الجوانب الشعرية الخالدة
فليس لك أن تلتبس العذر له في اهماله « النيل » ذلك الاهمال المزرى به كشاعر
النيل !

ألم يخلق بجناحيه أي يوم في سماء النيل في سياحة روحية ويرى آلهة الشعر
وعرائس الحب وبنات الجبال تشدو بجمله الخالد على بحر الدهور والمصور حتى يصف
لنا ما شاهد في ثوب جميل من أنوابه الغانية التي كان يحوكها من نسج فؤاده ١٩
بقولون إن حافظاً كان قوى الحافظة وخاصة في استظهار روائع الشعر العربي ، وقد يكون
هذا صحيحاً ... لكنني أشك في قوة حافظته لاسيما بعد أن تعدى طور الشباب الاول ،
ذلك لانه كان ضعيفاً في اللغة الفرنسية لدرجة انه لم يقدر على ترجمة البؤساء ، وكتيبه
الاخلاقي ضعيف كذلك لعدم احاطته بأسرارها ، ولأنه لم يتكلم بها ولم يقرأها كالادباء
الذين يحيطون بأحدى اللغات للاضطلاع بأدائها وعلومها ، وهو كما يقول مطران : « يقول
الشعر في كل مكان يتفق له أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخول حديقة الازبكية بعد
الظهر طلباً لتلك الخلوة » . وكان لا يهتم كثيراً بالنهضة العلمية وذلك لاختلاطه الكثير
بعضائنا الذين لاحظ لهم الا التندر والترجيلة والدعابة والمجون - أولئك الذين لا يتسع
وقتهم لمسيرة الثقافة . وكان حافظ كريم الخلق طيب القلب الى حد كبير ، وكانت
حياته الدراسية والجنسية والشعرية والحكومية حياة رجل يفهم الحياة في وضوح
وجلاء .

٧ - آثاره

ان تحليل آثاره ونقدها هو بيت القصيد في هذه الدراسة ، لكنني سأوجز في
ذلك حتى تنسج صفحات « أبولو » لمثل هذه الدراسة ، وابدأ الآن بالديوان .

الديوان في ثلاثة أجزاء وينقصه جزء رابع لم يطبع بعد . وأول شيء يطالعك فيه

المديح والرثاء تقليد للشعراء الاقدمين . وأنا من أشد أعداء المديح والرثاء ، ذلك لاننى لا أجد فيهما تلك الآفاق الرحبة التى خَلَقَ الشاعر ليحاق فيها ولأن آلهة الشعر يجب أن لا تنزل من سمائها حيث الحب والحقيقة والجمال الى ذلك الدرك الأرضى حيث المادة والعبودية والضلال .

لكننى ألتبس العذر لحافظ لانه كان يجد فى ذلك ما يعينه على حياته المسادية من جهة ، ومن جهة أخرى كانت يسير وراء العرف المتبع فى ذلك الوقت : « لبس الشاعر بشاعرا اذا أجاد المديح والرثاء » ١

أنظر اليه فى مديحه للجناب الخديوى : أنرى غير نظم لأروح له ، قاله صاحبه مجازاة للوقت والتقاليد ، ومنافسة للشاعر شوقى الذى استلب منه الامارة ١٢ وماذا كان يعنيه من قوله الى الجناب الخديوي (ص ٢٣ من الديوان) :

تشدو وترهف بالاشعار مرتجلا ونبرز القول بين السحر والعجب ١
وانظر اليه فى قوله من المديح :

تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا فا أثمت عيني ولا لحظه اعتدى !
ألبس يستوقفك هذا البيت إلى درجة أن تقرأ غيره كقوله فى المديح هذا أيضا :
ولو أنهم قدوا غداثر فرعها فأكوا له منها نقابا إذا بدا
إذا لبس لنا ان تقف وإياك أمام هذا المديح وغيره لأننا فهمنا أن الشعر غير المديح ١

ومن هذا الشعر الصناعى قوله :

خمرة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى ليل عرس -
مد رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين هم ويأس -
أعقبته الخلاص من بعد ضيق وحبته السعود من بعد محس -

وله قصيدة فى وصف أزمة نفسية ، جاءت له مهلهلة الاوصال مفككة الاوصال مبتذلة

من واجد منقر المنام طريد دهر جائر الاحكام

وقد نظمها وأفرغها من الروح الشعرية ففاضت روحها عند نظمها ١

« ٠ »

لبس يبقى أمامنا من ديوانه غير شعره الوطنى الاجتماعى ، وهو على حد قول اكثر

النقاد ميزته الواضحة التي عُرف بها في حياته كشاعر وطني ضرب في البحوث الاجتماعية بسهم وافر ، وسخر الشعر لأغراضه ، فكان له كل ما أراد من جزالة لفظ وقوة معنى .

رأى الشعب يستكين لظلم المستعمر الغاصب ، ويستكين للرجعية الجاهلة ، ويستكين للتقاليد الشائعة والخرافات الفاشية ، يعبد الاصنام ويقدم القرابين للموتى والمعتمدين ، بعيداً كل البعد عن الحرية والنور ، فقال :

ودأى كداء الدين عزّ دواؤه وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه
فباليت لي وجدان قومي فأرتضى حياتي ولا أنشئ بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رجة لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
وخاطب أستاذه الامام يشكو قومه الذين عبدوا الاصنام والموتى وما يزالون
يعبدون الأصنام والموتى :

رأوا في قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا
وباتوا عليها جانحين كأنهم (على صنم في الجاهلية عُكف)
وحده وعطفه يطلان علينا من خلال قصيدته « آلامنا وآمالنا » التي يخاطب بها
المرحوم الامير (السلطان) حسين كامل :

لعمرك ما أرقّت لغير مصر وما لي دونها أمر يرام
الى أن يقول :

أرى شعباً بمدرجة العوادي تمخّخ عظمه داء عقام
إذا ما مرّ بالبأساء عامٌ أطلّ عليه بالبأساء عامٌ

وانظر اليه في قصيدته « حادث دنشواي » ذلك الحادث التاريخي الذي تذكره
الانسانية المعذبة بقلب مليء بالحسرات وبدمع هتون أشبه بدمع الثناكلات ، تذكره
كنسبة في تاريخ البشرية الظلمة التي يفتك قوياها بضعيفها ، والتي اذا ما ذكرناها
ذكرنا قوميتنا المهدورة وحققنا المضاع :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولائنا والوداد ؟
انما نحن والحمام سوا لم تفادروا أطواقنا الاجيادا

الى أن يقول :

ليت شعري أنلك محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عاداد !
أليس هو وشعره المرأة الصادقة التي تنعكس عليها صور الشعب المتألم الراسف
في اغلال الاستعباد وفيود الهوان ، يئن وما لصونه من سميع ؟

بلا شك هو أول شاعر اجتماعي في الشرق العربي استطاع أن يضرب على الوتر
الحساس ويرضى العامة والخاصة ويصبغ شعره بصبغة تميزه عن غيره وتجعله أقرب
إلى جانب الحق والخلود .

وانظر اليه وقد ضاق ذرعاً بشعبنا المسكين الهاديء الذي جرحت كرامته ولم
ير في ذلك من حرج :

أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها بفضها الأهل وحب الغربا
والى قوله من قصيدة أخرى :

لقد غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم نفض
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو في ملعب
وشعب يفر من الصالحا ت فرار السليم من الأجر
وانظر اجتماعيته الخالدة التي قالها بمناسبة افتتاح مدرسة بورسعيد للبنات
ومطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلأق في حب مصر كثيرة العشاق
والتي جمعها في هذا البيت الخالد :
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

وانظر الى قصيدته في وداع اللورد كرومر إذ يقول :

رمى دار المعارف بالرزايا وجاء بكل جبار عنيد
بدل بحوله وبنيه تبهاً ويعبت بالنهى عبث الوليد
وإن أنس لا أنس عثبه على مصر في أبياته التي يقول في مستهلها :

ماذا جنيت وما جناه بنوك أظلمهم يا مصر أم ظلموك ؟
وندائه في سبيل الوثام بين مصر والشام :

لمصر أم لربوع الشام تنسبُ هنا الملا وهناك المجد والحسب ؟
وشعره الوطنى ينطق بصدق إخلاصه ووطنيته الجائشة الفياضة التى عُرف
بها الفقيه في حياته .

ومن شعره الوطنى الذى لم ينشر في المطبوع من ديوانه قصيدته التى نشرها «البلاغ
الأسبوعى» بعدده الأول و مطلعها :

قد غفونا وانقبننا فاذا نحن غرقى وإذا الموتُ أممٌ
وافى أنرك بقية شعره للكتاب الذى سيصدر عنه، واكتفى الآن بالتحدث عن
بقية آثاره ،ولكننى لا أعذر حافظاً بأى حال من الأحوال فى أهمله الثورة المصرية وعدم
ذكره أى شيء عنها يستحق أن يُشاد به .

(ليالى سطيج)

أنشأ حافظ (ليالى سطيج) فى مواضيع اجتماعية على مثال حديث عيسى بن
هشام للمولى جى الذى اشتهر به فى ذلك العهد شهرة واسعة . ولكن كتاب ليالى سطيج
يختلف كثيراً عن حديث عيسى ، ذلك لأن حافظاً باعد بينه وبين ذلك السجع المملول
الذى بنى عليه حديث عيسى ، وليس معنى هذا ان ليالى سطيج خالية من السجع قوية
الأسلوب ، بل انّ سجعها أقل من سجع حديث عيسى بكثير وأسلوبها أقرب الى
أسلوبنا الحديث

وهى نواة القصة المصرية الحديثة التى كنا نودّ من حافظ أن يفتح أبوابها لو
أنه راعى فيها الأسلوب والشكل والوحدة الفنية . ومنافشة ما جاء بليالى سطيج من
الآراء يحتاج الى أكثر من صفحات « أبولو » ، فعسى أن أوفق الى تقديمه
وتحليله فى فرصة أخرى .

(البؤساء)

قصة عالمية من الأدب الرفيع ليفكتور هوجو ، ترجمها حافظ — استغفر الله بل
اقتبس منها جزأين صغيرين ولم يستطع إتمام ترجمتها لما لاقاه من المشقة والعناء
لعدم تمكنه من أمراد اللغة الفرنسية من جهة ، ومن جهة أخرى لغرامه المنقطع

النظير باللفظ مما حشده بالترجمة العربية ، وبالرغم من أن هوجو واشتهر باغراقه في اختيار ألفاظه أغرق شاعرنا أيضاً في اختيار ألفاظ الترجمة العربية حتى بعدت عن الأصل الفرنسي . ولو قارنت بين الترجمة والأصل الفرنسي لظهرت الاختلافات التي نأخذها على حافظ وحدث به الى أن لا يقدر على اتمام الترجمة ، وسنبين ذلك كله في فرصة أخرى . أما كتابه في التربية والاخلاق أو بعبارة أصح كتيبه فقد نقله الى العربية في أسلوب سليم وعبارة سهلة تتفق ومشارب أطفالنا وللأسف لم يترجمه جيمه بل ترجم منه جزأين أيضاً . وترجم كتابه في الاقتصاد هو ومطران ترجمة دقيقة يرجع الفضل في دفنها واستيعابها لمطران لا لحافظ .

٨ - تجديد

بالرغم من نسجه على منوال الشعراء القدماء فله في الشعر نظرة أقرب الى نظرتنا ، ولو أنه لم يبرهن على ذلك الا بشعره الاجتماعي ومنظومته الصغيرة التمثيلية «غادة بيروت» التي لا يصح اعتبارها قطعة فنية تمثيلية كما تكون القطعة الفنية التمثيلية . بل هي عندى قصيدة جديدة لحافظ ومحاولة سيرة لتجديده لا أكثر ولا أقل ، وكانت سنحت له الفرصة الفنية بوجود تلك المادة الخصبة التي تسعف الشاعر الموهوب بما يتطلبه منه الفن من حق وجمال وتجديد يظهر لنا من قصيدته التي يقول فيها للشعر : « ضعت بين النهى وبين الخيال » .

٩ - شعره

من أنفخ روائع الشعر العربي ، تغلب عليه الجزالة والرصانة والقوة ، ولو كان له الخيال والخصب والثقافة الحقة خلق لنا من الآيات ما تنظر اليه الأجيال القادمة بعين الإعجاب .

١٠ - لمحة خاطفة

يعتب الرافعي على فن الترجمة خلوه من النقد التحليلي من جهة ، ومن جهة ثانية لانه لا يتمدى الشرح والتفسير ولانه ليس المثل الاعلى الذي ينسده الناقد الهادم النافذ البصيرة . ونحن من أشد أنصار النقد التحليلي ومن أشد أنصار الهدم متى

وجدنا أن الأساليب والمخازج الشعرية أو الأدبية أو الفنية التي تقدم إليها مهلهلة سقيمة لا تتفق والمثل العليا التي نتشبت بها فوق غرامنا بالترجمة التحليلية التي تساعدنا على فهم الشاعر أو الأديب أو الفنان لأنها بمثابة التحقيقات عند القاضي النزيه ١

ولابد أن تسألني يا صاحبي لماذا أغفلت هذه الناحية النقدية عند حافظ فاجبيك بأن شعر حافظ فيه من السذاجة والبساطة والصدق والجمال ما يجعل الناقد يقف معه موقف الصداقة والحذب لا موقف العداوة .

فإذا تطلب من حافظ وتقده وقد أجاد الرجل الرثاء ونبع فيه وشارك الشعب في آلامه وآماله وأضحت رسالته رسالة المصلح الاجتماعي الذي تحبه الإنسانية المعذبة والعدالة والقانون ؟

إذا ليس لنا أن نغلو في نقده كما نغلو في نقد شوقي أو العقاد أو الزهاوي أو أبي شادي لأن لكل منهم عوالمه التي حلق في مفاوئها ومثله العليا التي نشدها . ولابد لكل واحد منهم أن يدفع الثمن غالباً لأن المثل العليا لا تعرف الهوادة ولا اللين ؟

أحمد محمد عيسى

الشاعر الباش

حياته — الكتب التي قرأها — الشعراء الذين تأثر بهم — نظرات في شعره
مظاهر البؤس فيه — أسباب بؤسه — حسنات هذا البؤس وسيئاته

منذ نصف عام تقريباً أخرج الدكتور أبوشادي محرر « أبولو » كتاباً خاصاً بذكرى المغفور له أحمد شوقي بك حشد فيه شتيراً من الدراسات المستفيضة ، والقصائد الرائعة لكبار الكتاب والشعراء في مصر وفي غير مصر وسبغل هذا السفر القيم الذي أتيج لي أن أساهم فيه بنوع من هذه الدراسات خير مرجع لمن يريد الكتابة عن هذا الشاعر الخالد في المستقبل .

واليوم يسجل له التاريخ البد الثانية على الأدب حيث يخرج لنا عدداً خاصاً بحافظ : ذلك الشاعر المغبون الذي عاش بائساً ومات بائساً، ولا أود أن يؤنني الاشتراك في هذا العدد التذكاري الذي اعتقد أنه لن يقل عن سابقه جمالا وجلالا .

واتمد مضى على أكثر من نصف شهر وأنا أتصفح ديوان حافظ بدأب وشغف وأمعن في دراسته لأتلمس ناحية غالية أو عاطفة مسيطرة على شعره أعالج في بحثي الذي انتويته دراستها وتحليلها فكنت في كل صفحة من صفحات هذا الديوان وفي كل سطر من سطوره أرى البؤس مائلاً سافراً وأحسّ بحلق الشاعر وتبرمه بالحياة وأهلها واضحاً ملموساً في جميع ما قرأت .

مبادئ

عاش حافظ ستين عاماً أو تزيد قليلاً قضى الجانب الأعظم منها مكتئباً حزيناً، وكانت حياته بوجه عام سلسلة من الآلام والمتاعب ليس فيها ما يبعث الأمل أو يساعد على السلوان . وهذه الحياة الشاقة المضنية تختلف في أطوارها اختلافاً تقسمها من أجله الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نشأ بحافظ نشأة لم يفارقه البؤس فيها لحظة واحدة ونعرف إلى الحزن والكآبة في مهده فاستنكر وجوده وتمنى في هذه السن المبكرة فناء وفي ذلك يقول :

وودت لو طرحوأبى يوم جئتهمُ في مسبح الحوت أو في مسرح العطب

وقد كانت له نفس طُلعة تميل للمجد وتكلف بالمعالي . لم ير في تعليمه البسيط ما يغذى هذه النفس النهمة فطفق ينفذها بالقراءة والاطلاع وهو بعد فتى لم يطو من طريق الحياة أكثر من عشرين عاماً . وما إن وصل إلى هذه السن حتى كان قد قرأ من أمهات الكتب أكثر من خمسين كتاباً كما يقول عارفوه والمتصليون به عن كتب وكان يقرأ الكتب بنهم وشغف ويحفظ من كل منها أحسنه ويستحدث إليك في موضع آخر عن نوع هذه الكتب — وقد بدأ منذ هذه السن ينظم مقطوعات قصيرة أكثرها في المدح ومداعبة الأصدقاء .

المرحلة الثانية : لم يكد حافظ يبلغ العشرين من عمره حتى التحق بمدرسة الحرية

كضابط بمرتبة ضئيل لا يكاد يكفيه ، وكان يقضى أوقات فراغه من عمله على وجازتها بين الكتب . وشاءت المقادير بعد ذلك أن يُنقل حافظ الى السودان فطوحت به يد النوى مأسوفاً على فراقه من أصدقائه وخلاته .

وكانت الحكومة إذ ذاك تعد السودان منفي للمعضوب عليهم من الجنود والضباط ومكث حافظ في السودان بين نارين نار القميط ونار القميط . وكان الحاكمان به يومئذ خليطاً من المصريين والانجليز ، وكان لأولئك السلطة الفعلية في جميع الأمور ، وكان حافظ ينظر إلى هؤلاء والانجليز المعاشرين له بعين البغض والشنآن ، ويزداد حسرة والمآكلا رأى نفسه وإخوانه عبيداً لأولئك القوم الطارئين . وجدير برجل كبير النفس رفيق الاحساس كحافظ أن يتأثر بما حوله وأن تظهر هذه الآثار في نظمه ونثره ، وكتابته « سطحيح » أصدق مرآة تمثل لك حياته الخاصة في السودان ومعاملة الانجليز له ولمعاشريه من المصريين في هذا العهد الذي يصفه لنا في قوله :

إذا نطقتُ ففقا السجن منكئى وإن سكنتُ فإن النفس لم تطب

وسنتحدث عن هذا الكتاب بنوع من الاسهاب عند دراستنا لنثره .

أمّا آلامه في السودان وما كان يعانيه في بيئاته من بؤس وعذاب فقد تكفلت ببيان معظمه تلك الرسالة التاريخية التي بعث بها من منفاه الى الاستاذ الإمام يرجوه فيها أن يسمى لدى ولاء الأمور في نقله من السودان ، وكانت هذه الرسالة أول حجر في بناء صلته بالاستاذ الإمام .

قرأها فأعجب بها وأجاب عنها وسعى في نقله ومن ذلك الحين بدأ حذبه عليه وتقديره له . وهذه الرسالة كما تدل على ان حافظ لم ين لحظة عن الاطلاع والحفظ والكتابة تصور لنا مقدار ما كان يعانيه من آلام ويدخله من هموم في هذه البلاد وهي طويلة نتخير منها ما يأتى :

لقد حلت في السودان حلول الكليم في التابوت ، والمفاضب في جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة . لا بل حلول الوزير في تنور العذاب ، والكافر في موقف الحساب ، بين نارين نار القميط ونار القميط .

فناديت باسم الشيخ والقميط جرة يذيب دماغ الضب والعقل ذاهب

واستمع اليه وهو يقول من قصيدة بعث بها إلى احد اصدقائه بمصر يتشوق اليها ويصف آلامه وأحجانه :

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادنى وجه التراب
 وحتى صيرتنى الشمس عبداً صيفاً بعد ما دبغت إهابى
 وحتى قلم الأملاق ظفرى وحتى حطّم المقسّار نابى
 متى أنا بالغ يا مصر أرضاً أشم بترها ريح الملاب ١٦
 وسترى بعد أن هذه المرحلة كان لها أثر أى أثر فى إنتاجه ولا سيما جانب البؤس
 والالم منه .

المرحلة الثالثة : وهذه مرحلة النضوج والأثمار بحق فلم يكدر يستقبل من عمله
 وبغلت من قيد وظيفته حتى تحلى نبوغه وبدأ يفتتح بمواهبه ويتفرغ للعمل الذى
 خلق له . وإذا كان قبل ذلك يختلس أوقات المطالعة ويسترق سويغات النظم
 والتدوين فإنه هنا قد تفرغ للأدب وابتدأ يقرأ الكتب الكبرى وينشد القصائد
 الغراء فى شتى المناسبات ، وقل أن نجد مسألة هامة أو حادثاً جليلاً فى هذا العهد لم
 يساهم فيه بشعره . وثلاثة أرباع ديوانه أثر من آثار هذا العهد ، على أن هذه المرحلة
 التى تكون النصف من عمره ليست كلها مرحلة فيض وإنتاج بل تنقسم بالنسبة إلى
 ذلك ثلاثة أقسام :

١ — فترة قوية مخصصة فى جميع النواحي ، وهى تكون الشطر الأعظم من هذه
 المرحلة

ب — فترة صمت وركود وإجذاب ، وهذه هى مدة وجوده فى دار الكتب
 المصرية .

ج — فترة انطلاق ونهوض وهذه المدة قصيرة المدى لا تكاد تجاوز العام غادر
 فى أوله دار الكتب وغادر فى آخره عالم الفناء : وشعره فى هذا العام سياسى محض
 يعاتب فيه الانجليز ويذكرهم بمهودهم التى نكثوها .

الكتب التى قرأها

يقول كثير من الأدباء الذين كتبوا عن حافظ غبّ موته أنه كان معجباً بكتاب
 الاغانى لآبى الفرج الأصفهاني إعجاباً جعله يقرأه أكثر من مرة ، بل يذهب بعضهم

إلى أبعد من ذلك فيقول إنه لم يقرأ كتاباً في الأدب سواه واعتقد أن هذا الكتاب على الرغم من شهرته وسعته في بابيه لا يُكوّن وحده شاعراً كحافظ لأنه شتيت من أخبار معننة وأشعار غير مضبوطة ولا مشروحة وتراجم الكثير من الشعراء والكتاب متفرقة لا تجمعها جامعة . وهو فوق ذلك مليء بالاختطأ المطبعية التي تستنفد الوقت في ضبطها وإصلاحها — ونحن مع اعترافنا بغلاء الكتب في هذا العهد وقلة تداولها بين الأدباء لا نكاد نسلم بأن اطلاع حافظ كان قاصراً على كتاب واحد أيّاً كان نوعه .

وأنت إذا قرأت ديوانه بروية وامعان وقرأت إلى جانبه كتابيه «البؤساء» و«وسطيح» ووقفت على ما كان يستعمله في نظمه ونثره من الألفاظ والمعاني التي لم يتعلمها في مدرسة وأنتم بتلقاها عن أستاذ — إذا عرفت ذلك وسمعت ما يقوله المعمرين من رجال دار الكتب من أنه كان يقضى كل فراغه بين جذرائها عرفت عن يقين أنه لا بد قد طالع كثيراً من كتب الأدب وقرأ كثيراً من دواوين الشعراء القدامى كامرئ القيس وعنترة والنابغة والمحدثين كالمتنبي والبحتري وأبي نواس وأبي تمام . وحفظ لكل من هؤلاء أحسن ما قرأ .

والتأمل في السطور الآتية من رسالته السابقة إلى الأستاذ الامام :

« وجمعت في كتابي هذا بين ثقة الزبيدي بالصمصامة ، والحارث بالنّعام ، فلم أقل ما قاله الهزلي لصاحبه ، حين نسي وعده وحمد يده . يا دار عانكة التي أنفزل بل أناديه نداء الاخيزة في عمورية شجاع الدولة العباسية »

وقوله في قصيدة «غادة اليابان» :

وتفحمت الردى في غارة أسدل النقع عليها هيدبا (١)

جال عزرائيل في أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبا (٢)

أجل . من يقف على هذا وأمثاله لا يسهه إلا أن يحكم بأن حافظاً كان واسع الامام بدقائق اللغة ثرياً في الألفاظ والمعاني محيطاً بكثير من اخبار العرب ومجالسهم حافظاً لشيء كثير من حكمهم وأمثالهم . وهل يتيسر لشاعر لم يقرأ قصة اصحاب الكهف ولم بدرس تاريخ ابى نواس ويقف على مثل رأيه في الخمر حين سئل لم لا يترك الخمر؟

وانت تعلم ما تفعل بشاربها من المهانة والسخرية ١ — فقال : ومن لي بعرفان ذلك
وأنا أسكر قبل الصباح ولا افيق إلا بعدهم — وهل يستطيع من لم يعلم شيئاً من
ذلك ان يقول في شعره :

فواصلنا كؤوس الراح حتى بدت للعين أنوار الصريم
واعملنا بها رأى ابن هاني فألحقنا بأصحاب الرقيم
وهل زجى ممن لم يقرأ شيئاً عن المانوية ومذهبهم وآراءهم في منع النسل
والعمل على تعجيل الفناء ان يقول :

لعل ماني لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب
وسأقدم اليك بأبيات من شعره تستطيع أن تتعرف بها مقدار الكتب التي
قرأها ونوع هذه الكتب إن كنت بالادب واسفاره خبيراً .
ويقول حافظ في مدح الاستاذ الإمام :

طلعت لها باليمن من خير مطلع وكنت لها في الفوز قدح بن مقبل
ويقول في وصف كساء رث :

نسبوه لطيلسان ابن حرب نسبة لم تكن بذات افتراء
ويقول في الانجيز وسوء معاملتهم :

لقد كانت الامثال تضرب بيننا بجور سدوم وهو من أظلم البشر
فلما بدت للكون آيات ظلمهم إذا بسدوم في حكومته عمر .

واذا كان الكلام من الكلام وكان لابد للنظم أو النثر من ذخيرة كلامية
يستجدها البديهة ويستندبها اليراع ، كانت أبيات الشاعر و فقرات النثر عنوان
تلك الذخيرة واذا عرفت أن ابن مقبل الذي في البيت الاول مقامر جاهلي فاز
قدحه ٧٠ مرة متواليه فضرب به المثل في الفوز — وأن طيلسان ابن
حرب الذي جاء في البيت الثاني جلاب قديم بال ، مدح ابن حرب أحد الشعراء نخله
عليه فنظم فيه هذا الشاعر أبياتاً كثيرة صيرته مثلاً لكل ثوب من نوعه ومن
هذه الأبيات :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا ملّ من صحبة الزمان وصدا
طال ترداده على الرقع حتى لو بعثناه وحده لتهدي

وأن «مدوم» التي وردت في البيتين الأخيرين اسم قاض كان يضرب به المثل في القسوة والظلم وكان حاكماً على قرية من قرى لوط الخمس تعرف بهذا الاسم أيضاً وقد غضب الله على أهلها فدمرها عليهم.

إذا عرفت هذا أو أشباهه مما يستحيل أن يحتوبه كتاب أو كتابان أيقنت بأن حافظاً لم يسمع بكتاب في أحوال العرب وأخبارهم، ولم يقع بصره على مؤلف أدبي أيا كان نوعه إلا طالعته وألم بما فيه :

ولقد كان للتاريخ وأطواره من عنايته ما لا يقل عن عنايته بالأدب ونواحيه والتاريخ والأدب أخوان لا يُعنى أحدهما عن الآخر إلا بمقدار ما تنفي العين عن الأذن أو الأذن عن اللسان عند فاقد أحدهما... وإخالك لا تشك في ذلك إذا سمعته يقول في فتنه الآستانة :

يا أسيراً في سلت هيلين رحبُ بأسيرٍ في سالونيك جديدٍ
وقوله في احتفال أقامته الجامعة المصرية :

هناك الفيد جادت بالذي بخلت به دلالاً فقامت بالذي وجبا
جزّت غداً شعر مرّحت سفنًا واستنفذت وطناً واسترجعت نشبا
رأت حلالها على الاوطان فابتهجت ولم تحمرّ على الحلى الذي ذهبها
وزادها ذاك حسناً وهي طائلة تزهى على من مشى للحرب أوركبا
وقوله موضع ثالث مخاطباً «روزفلت» وممرّضاً بالإنجليز :

ليت شعري أكنت تدعو إليهم يوم كانوا على تخوم النغور
يوم كانوا قدّى بعين نيويو رك وداءً مستحكماً في الصدور
يوم نادى «واشنجتون» فلما من الغيل كل لبث هصور

والمعنى في شعر حافظ يرى أنه رحمه الله لم يكن يقصر اطلاعه على الأدب العربي فحسب بل تعداه إلى الأدب الأوروبي، فقرأ «ماكبث» لشاعر إنجلترا ولیم شكسبير وأعجب بها ونظم أروع مواقفها في قصيدته التي يقول في مطلعها :

كأنى أرى في الليل نصلاً مجرّداً يطير بكلتا صفحته شراراً

وإن وصفه لفكتور هوجو الكاتب الفرنسى الذائع الصيت ، ورائه لتولستوي الفيلسوف لبدلان على أنه قد درس مذهب كل منهما وتعاليمه ووقف على كثير من حسناته أو مبراته التى هى عماد الوصف والرائه . وكان كثير الاعجاب بالأدب الفرنسى على الخصوص ، وما كتابه البؤساء بجزيه ، وما تلك الحكم الشعرية التى ترجها لروسو ونظمها إلا ثمرة من ثمرات هذا الاعجاب .

وإذا علمت أن حافظاً لم يتعلم تعليماً دينياً ولم يتصل في صباه بالازهر ولا بأحد فروعه ورأيت كثرة اقتباسه من القرآن واستشهاده بقصصه واستعماله لتراكيبه أيقنت أن المصحف الشريف كان في مقدمة الكتب التى يقدسها ويدأب على مطالعها بشوق وشغف . وإذا لم يكن ذلك كذلك فقل لى بربك كيف تسئى له أن يقول فى وصف الشمس مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الانعام بحكاية عن ابراهيم : « فلما أفلت قال : إني لا أحب الآفلين » .

نظر (ابراهيم) فيها نظرة فأرى الشك وما ضلّ اليقين
قال : ذا ربى ، فلما أفلت قال : إني لا أحب الآفلين
أو يقول فى وصف الخمر مشيراً الى قوله تعالى فى سورة يوسف حكاية عن فتى كان ممة فى السجن : « إني أراى أعصر خمراً » :

مذ رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين هم وبأس
أعقبته الخلاص من بعد ضيق وحبته السعود من بعد نحس
ويقول فى شكوى الزمان مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الصافات « وَقَدْ يَنَافُ
يَذْبِج عَظِيمٍ) وقوله فى سورة يوسف (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ
مَعْدُودَةٍ) :

وكم أذرت بنا الايام حتى فدت بالكبش اسحق الذبيحا
وباعت يوسفًا ببيع الموال وألقت فى يد القوم المسيحا
ولا أرى كيف فات حافظاً أن الذبيح هو اسماعيل لا اسحاق ، وأن المسيح لم يقع فى يد القوم كما زعموا « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ »

الشعراء الذين تأثر بهم

كان حافظ كما كان أبو نعام كثير المحفوظ من شعر العرب، ولقد أثر ذلك المحفوظ في شعره فجاء صورة صادقة لما قرأ وما حفظ. وإنه لمن العبث الواضح والغيب الفاحش أن نقول إنه قد تأثر بشاعر فرد حتى تجلّت في شعره أخيلة ذلك الشاعر وتشبيهاته وحده وملكته طريقته في التعبير عما يريد.

وقد يخيل إليك إذا سمعت قوله :

جنيتُ عليك يا نفسي وقبلي عليك جنى أبى فدعى عتابي !

أنه قد تأثر بالمعرى حيث يقول :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحد

وقد ينمو في نفسك هذا الظن إذا قرأت له قوله في موضع آخر :

والأفاني قافٍ رؤبة لم أزل بقيد النوى حتى تقول الغوائل

وعرفت أن المعرى قد سبقه إلى ذلك فقال :

مالي غدوت كفاف رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر له اجراؤها

فهل هو كذلك ؟ ولم لا نقول في قوله :

ليت شعري هل لنا بعد النوى من سبيل القى أم لات حين

إنه كان متأثراً ببشار بن برد حيث يقول :

يا ليت شعري وقد شط المزار بهم هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبداً

ولم لا يكون حين يقول في الرثاء :

رحم الله منه لفظاً شهيأ كان أحلى من ردّ كيد الأعداى

متأثراً أو محاكياً للخوارزمي حين يقول في الغزل :

وكيف ونظرة منها اختلاسا ألدّ من الشماتة بالعدو

بل قد يترجح لديك وأنت تقرأ قوله في تأبين المغفور له مصطفى كامل :

عليك، وإلا ما لذا الحزن شاملاً وفبك، وإلا ما لذا الشعب باكياً

وقوله في موضع آخر :

وكننت إذا عمدت لأخذ نار
أسلت البر بالأسد الضواري
أنه قد تأثر في الأول بقول المتمدن بن عباد :

على ، وإلا ما بكاء الغمام ؟ وفي ، وإلا ما فراح الخاتم ؟
كما تأثر في الثاني بقول كنير في الغزل :

أخذنا بأطراف الأساديت بيننا
وسالت بأعناق المطى الاباطح

الحق أنه قد قرأ هؤلاء الشعراء جميعاً وحفظ لكل منهم وتأثر به بمقدار ما قرأ أو حفظ من شعره ، والذين يقولون إنه قد تأثر بالمتنبي أكثر من تأثره بأي شاعر آخر إنما ينظرون في دراستهم إلى ناحية خاصة لعملها قدرته وبراعته في وصف الحروب ومبادئها وما يلحق بها ، وهذا النوع من الوصف قد انفرد المتنبي بالإجادة فيه .

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نتناسى أن حافظاً وشوقي ومن قبلها البارودي قد أكبوا على دراسة هذا الشاعر الفذ واستفادوا جميعاً من شعره واتخذوه استاذاً لهم خصوصاً في هذه الناحية ناحية الحروب وما يدور فيها من هجوم ودفاع أو هزيمة وانتصار . فانه لا يصح كذلك أن ننسى أن حافظاً كان ضابطاً يعيش بين الأسلحة والكنائب ويشهد بنفسه المعارك ويسمع بأذنيه قذائف المدافع وصليل السيوف .

وإذا كان شوقي وهو لم يتقلد صارماً ولم يرحباً استطاع بحض التقليد والاعتماد على الأذن تارة وعلى الخيلة تارة أخرى أن يأتي في وصف الحروب بهذه المطولات الرائعة ، ولم يمنعه بعده عن الوغى وعدم خبرته بالقتال ومعاناته أو معاينته له من أن يقول في حرب الدولة العلية مع اليونان :

كأنّ الوغى نار ، كأن جنودنا
مجوم إذا ما يعموا النار قربوا

كأن الوغى نار ، كأن الردى قرى
كأن وراء النار (حاتم) يدأب ا

كما يقول في موضع آخر واصفاً هزيمة اليونان :

على القلل الاجبال حيرى جموعهم
شو اخص ، ما إن تهتدى أين تذهب

إذا صعدت فالسيف أبيضٌ خاطفٌ وإن نزلت فالنارُ حمراءٌ تلهبُ
فليس بعجيب أن ينبغ حافظ في هذه الناحية وهو ابن الحرب الذي اصطلح
بنارها وقضى زهرة شبابه بين السيف والمدفع وشاهد بعينه وسمع بأذنيه وقائعها.
وقد عاصر حافظ صديقه البارودي في أخريات أيامه وأعجب به وبشعره حتى
طلب إليه أن يصدر ديوانه بصورة أو حكمة تعرفه إلى القراء فتمثل بهذين البيتين
من شعره :

أنا ابنُ قولٍ وحسي في الفخار به وإن غدوتُ كرمٍ العمِّ والخالِ
فانظر اشعري تجده نفسى مصورةً فيه ، فنِ مقولى قد خُطَّ تمثالِ
وبينا تراه يترفع عن تقليد غيره من شعراء عصره تراه كنير الميل إلى محاكاة
البارودي والاستفادة من شعره والاعتراف له بالفضل والنبوغ .
وإنك لترى هذه الصلة الغالية صلة التلميذ بأستاذه أو الولد بأبيه ماثلة فيما نظمه
في مدحه أو رثائه من قصائد . واستمع إليه حين يمدحه فيقول من قصيدة طويلة :
.. ولو أننى نافوتُ دهرى وأهلته بفخره ما أبقيت في الناس سيدا
ولو لم يمدح البارودي بغير هذا البيت الخالد لكفاه غرأ وشرفاً .

نظرات في شعره

لا أستطيع في هذه الصفحات القليلة أن أستعرض مواضع الجمال في شعر حافظ
أو أؤكد ما فيه من هنات ، ولا أدعى أنى درسته دراسة تمكننى من ذلك ، ولكنى
سأمرّ سريعاً على بعض المواضع التى تسترعى نظركل مطلع على شعر .

وسأفصّد في هذه النظرة الخاطفة إلى بيان ميزاته التى لا يبدل لكل متصدر
لدراسته من أن يقدرها فيقف عندها ويتبينها . وسترى أولاً أنه رحمه الله كان
يتخذ من مدائح العظماء ورثاء موتاهم لبنات لبناء عظمته وشهرته ، شأن الشاعر
النائب الذى يريد أن يتعرف إلى الناس ويشعرهم بوجوده وهو بعد فتى بأس قليل
الأسنة والأذان . ولهذا جاء قرابة النصف من شعره مديحاً ورثاء . وأكثر
الذين اختصهم بذلك بعد الأسرة العلوية هو الاستاذ الامام ثم الأسرة الأباظية

بمدرية الشرقية .

ولمديح حافظ وراثته صفة خاصة هي مزجه دائماً بالشكوى وإبداءه ما يعانيه من ضحك وضيق . وقل أن يترك مدحة أو مرثية من غير أن يصدرها أو يطويها على حاجته . واستمع اليه حين يصدر مدحة للخديوى في عيد رأس السنة بهذين البيتين :

عسى ذلك العام الجديد يسرنى بيشرى ، وهل للبائسين بشير ؟
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلي ليل الأسى ويُبِيرْ

وإذا أفلت من حاجته الوسط والبداية ذيلها بها فى النهاية ، وهل ترى دليلاً على ذلك أوضح من أن تراه يختتم مدحة رفعها الى الاستاذ الامام بهذا البيت :

يا مَنْ تيمنت الفتيا بطلعته أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال
وبذيل مدحة أخرى بهذين البيتين :

وقد أضحيت من كدحى وسعنى على الأرزاق كالثوب الرديم
فلا تخلق - فديت - أديم وجهى ولا تقطع مواصلة الحميم

وثانياً تجد لشعر حافظ ما يسمى فى علم البديع ببراعة الاستهلال ، إذ له مطالع رائعة كل مطلع كأنه عنوان سارع الى الأذان ليستأنس لما وراءه أو اجمال لغرض يفصله ما يليه من أبيات ، وإن شئت شاهدأ على ذلك فاستمع إلى قوله فى مستهل السنة الهجرية :

أطل على الأكوان والخلق ننظر هلال رآه الساعون فكبروا
أو تأمل قصيدته فى « البورصة » :

يبابك النحاس والسمود وموقف اليأس والرجاء

وكذلك كان فى مرثيه يستفتح القصيدة ببيت لو اقتصر عليه ولم يتبعه بغيره لاستشف القارئ والسامع من خلاله وحده غرضه والمعرض الذى قيل فيه - ألت تجد ما يؤيد ذلك فى استهلاله مرثية المرحوم امين الرافعى بهذا البيت :

أما (أمين) فقد ذقنا لمصرعه وخطبه من صنوف الحزن ألوانا

وتصديده مرثية المغفور له (رياض باشا) بذلك البيت :

(رياض) أفق من غمرة الموت واستمع حديث الورى عن طيب ما كنت تصنع
ولمذهبن المطلعين روعة وتأثير فى النفس لا تحسه فى مطالع غيره ممن اشركوا فى
تأبين هذين الفقيدين .

وبينا ترى شوقى يريد ان يهوى الخديوى فيمهد لذلك بما ينيف على العشرين
بيتاً فى الغزل أو الوصف — ترى شاعرنا يبتدىء قصيدته فى الموضوع عينه بهذا
البيت الرائع الذى يجمع الى جمال اللفظ وحسن اختياره شرف المعنى وأتساقه :

مُنَى نلتها يا لابس المجد مَعْلَمًا أدِينًا ودُنْيَا ؟ زادك لك أنما !

وإنا أحسن التخلص ، ولا تحسن حافظاً كان فى كل شعره كذلك بما شئ ، ويعمد الى
غرضه من اول الأمر دون أن يعمد له بوصف أو نسب ، فإن له مطولات ليست بالقليلة
يتطرق فيها الى مقصده بأبيات كثيرة فى وصف الخمر حيناً وفى شكوى الزمن أحياناً ،
بيد أنه كان صناعاً ماهراً فى التخلص الى غرضه والانتقال الى مقصده .

وها هو ذا بعد أن يذكر أكثر من ٢٠ بيتاً فى مناجاة نفسه والشكوى من
تهاون المصريين وسوء حالهم يتخلص الى مدح السلطان حسين (وكان إذ ذاك أميراً)
بهذه الأبيات :

وانا قد ونينا وانقسمنا فلا سعى هناك ولا وثام
فلا عجب إذا ملكت علينا مذاهبنا وأكثرنا نيام
(حسين احسنا) أنت لها اقبه رجالا عن طلاب الحق ناموا
وكن بأبيك لابن أخيك عوناً فأنت بكفه نعم الحسام

وله أبيات يتخلص بها من غرض الى غرض ويفتقل من معنى الى غيره كأنها
حلقات أفرغت على منال يلائم كلا الغرضين السابق منهما واللاحق — كتب مرة
الى صديق له يدعوه ويستاق الى لقائه فبدأ كعادته بالحنين الى مصر وأهلها ، ولم
أكد أصل فى قراءة تلك القصيدة الى هذين البيتين :

لامصر تنصفنى ولا أنا عن محبته أريم
واذا محوّل بأس عن حبها فأنا المقيم

حتى أشفقت عليه من العجز عن الوصول الى ما كان يريد ، وإذا به بعد ذلك يتخلص
الى مدح صاحبه بهذا البيت الذى لا يشعر كبحايرة ولا انتقال :

فيها صحبتك واصطفية تلك أيها الظل الحميم

وإن تعجب فعجب أن تقرأ له في الغزل ودل الحبيب وجفائه ، ومروءته هو وإدماؤه من جراء هجره وصدده ، زهاء الثلاثين بيتاً حتى يخيّل اليك أن التمسيدة قد فثيت في هذا الغرض ، وأن الشاعر قد تمتر في استرساله حتى استعصى عليه الانتقال ، ثم تراه بعد ذلك يخرج من كل ما رأيت ويتصل بغرضه الذي قصده على الصورة الآتية :

وأنت تعود مريضها لا بل أنت منى تشيع راحلاً لو تعلم
أقسمت بالعباس أني صادق فمُرهمو بجلاله أن يقسموا
ملك عدوت على الزمان بحوله وغدوت في آلائه أنعم
وسترى أنه يغالط نفسه ويخالف الحق في بيته الأخير .

ورابعاً غلبة الروح الوطني وحب مصر ونيلها على شعره ، وأنا أعتقد أن وطنيات شوقي والبارودي على قتلها وطنيات جوفاء : نسمع رنينها عن بعد فتهتز وتطرب ، فإذا دنوت منها وجدتها فارغة لا تبل صدى ولا تشفى أواماً - ومهما بالغت في وصفها وإطرائها فانك لن تستطيع أن تقول فيها أكثر من أنها ساحرة رفيقة الأسلوب موجزة إلى حد يجعلها شبيهة بالحكم والأمثال .

أما وطنية حافظ فانها فضلاً عن تغلغلها في معظم قصائده وطنية حقيقية ، تدل من أول نظرة على أن صاحبها يحس بأحاساس الشعب ويترجم لنا عبراته وخفقات قؤاده . ولهذا تراه قد استعرض في شعره مواضع ضعفه ومواطن آلامه ووقف من أمته موقف الطبيب يتعرف الداء ويصف له نافع الدواء .

وكيف ينتظر من البارودي رئيس الوزارة أو من شوقي شاعر الخديوى وصفيته وهما يتقلبان في رفاة الميش ونعيمه ولم يعرفا للبؤس معنى ولا طرق لها الاعمار يوماً باباً ، كيف ينتظر من مثلها أن يؤلمه إملاق معاصريه وبؤسهم فيبكي . وهل إذا بكيا تساوت دموعها ودموع أخيهما الذي اندس في غمار الشعب وحمل من مصائبه بمقدار ؟ وهيهات :

أن يعرف الشوق إلا من يكابذه ولا الصباة إلا من يعانيسها

وكان حافظ طوراً يستنهض المصري ويستحفزه ويذكره بمجد آبائه وتراث أجداده فيقول :

لعمرك ما أُرِقتُ لغير مصرٍ وما لي دوتها أملٌ يُرام
 ذكرتُ جلالها أيامَ كانت يصل بها الفراعنة العظام
 وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ وأيامَ الزمان لها غلام
 فأفلق مضجعي ما بات فيها وبات مصرٌ فيه ، فهل الألام ؟
 أرى شعباً بدرجة العوادي تخشعَ عظمه داء عقام
 فساء مقامه في أرض مصر وطاب لغيره فيه المقام
 وطوراً يذكره بعبويه ويشرح له وسائل رقي الشعوب وعوامل نهوض الأمام
 فيقول :

حارثي على ابن النيل سباقُ الوري مها تقلب دهره أن يُسبقا
 أوكلنا قالوا تجمع شملهم لعب الشقاقُ بجمعنا فنفراقا ١٩
 فتعلموا ، فالعلم مفتاحُ العلي لم يُبق باباً للسعادة مغلقا
 ثم استمدوا منه كل قواكم إن القوى بكل أرض يتقى
 وابنوا حوالى حوضكم من بقطة سورا ، وخطوا من حذارٍ خندقا
 وزنوا الكلامَ وسدّوه فانهم خبثوا لكم في كل حرفٍ منزلقا
 وبينما كان شوقي شاعر عباس وابن نعمته يتلمس مواضع رضاه فيرويهما بقريضه
 ويحاذر أن يُرى شاذاً عن رغبات سيده يوماً ما ، كان حافظ ابن الشعب وشاعره
 حراً في آرائه مطلقاً في تفكيره ، لا يتقيد برأي أمير ولا وزير — ولهذا جاء
 شعره في السياسة أعمق أثراً وأشدّ جرأة وصراحة — وإن شئت فقل جاء لساناً
 صادقاً عن مصر وما تحسُّه من غنت المحتلِّ وعدوانه . ولعل أول صوت ارتفع في
 الفخر بمصر والمطالبة بحقوقها والتعرض لمطالب المحتلين وظلمهم ونقد أعمالهم كان
 صوت حافظ . وهل استطاع غيره أن يقول للمحكّمين في (دنشواي) مندداً
 بجورهم وقسوتهم :

أحسنوا القتل إن ضننكم بعفوي أنفساً أصبتمو أم حماداً
 ليت شعري أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عاداً ١٩
 كيف تحمّلوا من القوى التشني من ضعيف ألقى اليه القيساداً

وأن يعرض فيها برجل كان ولا يزال من أشهر رجال المحاماة في مصر فيقول :
 لا جرى النيل في نواحيك يا مصر ولا جادل الحيا حيث جادا
 أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس فادمى القلوب والأكبادا
 ايو يا مدرّة القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا
 أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا
 وهل سمعت أن شاعراً استطاع أن يودع (كرومر) بمنزل هذه اللطائف الدامية:

الى من نشتكى عنت الليالي الى العباس أم عبد الحميد ؟
 ودون حماما قامت رجالاً ترؤّنا باصناف الوعيد
 رمانا صاحب التقرير ظلماً بكفران العوارف والجحود
 وأقسم لا يجيب لنا نداء ولو جئنا بقرآن مجيد
 وانبت في النفوس لكم جفاء تعبه بمنهل الصدود
 رمى دار المعارف بالزايا وجاء بكل جبار عنيد

وهل اجتراً مجترى، على أن يبسط له عيوب عهده في مصر كما بسطها حافظ في قصيدة أخرى حيث قال :

نناديك قد أزريت بالعلم والحجبا ولم تبق للتعليم يا لورد معهدا
 وانك أخصبت البلاد تعمداً وأجديت في مصر العقول تعمدا
 ووافيت والقطران في ظل راية فما زلت بالسودان حتى تمردا
 فطاح كما طاحت مصوّع بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
 حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
 وأودعت تقرير الوداع مغامراً رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
 غمزت بها دين النبي وإننا لنغضب ان أغضبت في القبر (احمدا)

وخامساً كثرة التضمين والافتباس ، ولا يتيسر ذلك الا لثري في الادب واسع الاطلاع ، ومن أمثلة ذلك في شعره قوله في رثاء البارودي :

وأربو على ذلك الفخور بقوله : (اذا قلت قولاً أصبح الدهرُ مُتسداً)
وقوله في المدح (يريد البدع في الايات السابقة) :

وباتوا عليها جاععين كأنهم (على صنم في الجاهلية عكف)
ومن ذلك أيضاً تضمينه أبياناً كاملة لغيره من الشعراء كما في قوله مضمناً بيت
أبي تمام :

ألُفْتُ بين ابن السحاب وبينها فرأيتُ صحّةً ما حكاها الطائي :
(صعبتُ وراض المزجُ سميء خلقها فتعلمت من حسن خلق الماء)
وقوله في عيد الدستور العثماني مضمناً بيت بشار :

روى قول بشار فنارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد نعاتيه
(اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتيه)
وأنت ترى أنه لم يضمّن قصيدته بيتاً الا وقرنه باسم صاحبه ، وهذه دقة وأمانة
لحملها له .

وفي التضمين هنا من البراعة والجمال ما لا يقل عن مثلهما في قول البارودي مضمناً
شطر أبي نواس :

ولو كنتُ في عهد النواصي لم يقل : أجارةً يبتينا أبوك غيورُ
ولا عن قول صفى الدين من قبله مضمناً شطر المتنبي :

أشرفن في حُلل كأنّ أدعما شفق تدرعه الشمس جلابيا
وغرين في كلل فقلت لصاحبي (بأبي الشمس الجانحات غواربا)

وقد قدمنا لك في غير هذا الموضع انه كان دائماً على تفهم القرآن وحفظه ، وقد
أثر هذا المفهوم والمخفوظ في شعره كظهور الآكء في التاج أو الماسة بين لوازم
الاصداق إذ زاده دوعة وجمالا . وما إخال القراء في حاجة الى بيان منزلة القرآن واسلوبه
من الأدب العربي — وفي شعره من ذلك مُثلٌ شتى أسلفنا لك جانباً منها وهانحن
اولاء نعود فنقدم لك جانباً آخر .

قال رحمه الله يمدح سليمان باشا أباطه مشيراً الى قوله تعالى في سورة النمل (قالت
نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليعظمكم سليمان وجنوده) :

سليمان ذكّرت الزمان واهله يعزّ سليمان واقبال ديناه
 اذا سرت يوماً حذر النمل بعضه مخافة جيش من مواليك يعشاه
 وقال في مدح الاستاذ الامام مشيراً الى قصة مومى والخضر عليهما السلام
 (سورة الكهف) :

وكننت كما قال ابن عمران ناشئاً وكان كمن في سورة الكهف يذكر
 وقال من رسالة بعث بها الى رفعت بك وكيل مصلحة السجون سابقاً مشيراً
 الى قوله تعالى حكاية عن يوسف (اذكرني عند ربك) :

ولو كننت في عهد ابن عمران لم يقل لصاحبه اذكرني ولا تنس
 بل لقد كان يضمن أبياته الآية أو بعضها من غير تغيير كقوله :

« قتل الانسان ما اكفره » طاول الخلاق في الكون وساما

وقوله في وصف الشمس مضمناً قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (قال هذا ربى
 فلما أنلت قال لا أحب الآفلين — سورة الانعام) :

قال : ذا ربى فلما أنلت قال : إني لا أحب الآفلين ا

وسادساً الاملاخ الى الحوادث التاريخية والأخبار الأدبية والمذاهب الفلسفية .
 فن الأول قوله في الأمير عبد الله صاحب الجزائر :

ذكرتنا يوم ضاعت أرض أندلس الحرب بالباب والسلطان في اللعب
 وقوله حرب في طرابلس :

أيها الخائر في البحر اقترّب من حمى البسفور إن كنت هاما
 عام شهرين ولم يفتح سوى هوة فيها الملايين ترمى
 ومن الثانى قوله في تهنئة الخديوى بالحج :

ولما استلمت الركن هاجت شجونه فلو أنه استطاع الكلام تكلم
 تذكر زين العابدين وجدّه وما كان من قول القرزدي فيها

مشيراً بذلك الى ما كان من أمر الرشيد حينما رأى سيدنا على زين العابدين

وهو يطوف بالبيت فتجاهله وتساءل عنه فأجابه الفرزدق بهذه القصيدة الخالدة التي يقول في مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
ومن الثالث قوله :

فيا ليل أزلني بجوفك منزلا يضل به سرب القطا ويحار
وان كنت ليل المانوية فليكن على سر أهل الشر منك ستار
مشيراً بذلك إلى مذهب ماني الذي يقول بأن الليل موطن المصائب والشرور، وقد سبقه الى ذلك المتنبي حيث قال :

وكم لظلام الليل عندى من يدر تخبر أن المانوية تكذب
وقوله فى موضع آخر :

أصبحت كالدهرى أعبد خدّه وجبينه وأنا الشريف المعرق
مشيراً بذلك الى الدهريين ومذهبهم الذي لخصه القرآن الكريم فى قوله حكاية عنهم : (إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر)

مظاهر البؤس فى شعره

قدمنا لك أن البؤس من أظهر النزمات الغالبة على شعر حافظ ، وهيهات أن نجد أنتم عن نفس صاحبه من شعره . وانك لتقرأ ديوانه فيخيل اليك أنه ذوب نفس أبية عاشت تنطلق الى المجد وفيها معداته وماتت دون أن تنال منه أكثر مما ينال الظامى من لامع السراب . ولا تشك فى أن صاحب هذا الديوان قد اصطلى فى طفولته واكتوى فى شبابه بنار البؤس الذى تعرف اليه فى مهده ولم يتركه حتى استقر فى لحده وهو بعد شاعر رفيق العاطفة دقيق الاحساس . فكان طبيعيا أن يجيىء وشعره صورة لهذه النفس المعذبة ومرآة لهذا القوادى الواجب الذى طالما خاطبه بقوله :

يا خافقا قل لى متى تسكن ؟ لله ما نخنى وما نعلمنا

وما الذى أبقاء من مهجتي ومن فؤادى داؤك المزمز ؟
وسأعرض عليك طرفاً من أبياته ترى البؤس مانلاً فيها يحدثك عن خبيثة الشاعر
ويكشف لك من أمره مالم تكشفه لك الابصار .

يقول من رسالة بعث بها الى صديقه البابلي :

كيف تنسى يا بابلي غريباً يات بين الظنون والأوهام
وحزيناً إذا تنفس عادت خمة الليل جرة من ضرام
وإذا أن كاد ينصرع الاله قُ وتختلُّ دورة الأجرام
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام
ويقول فى موضع آخر نادياً حظه وسوء حاله وعقوق الدهر له ولعبقريته:
عقنى الدهر ، ولولا أننى أوتر الحسنى عقت الأديبا
إيه يا دنيا اعبسى أو قابسى لا أرى يرقك إلا خلّبا

وإخالك لا تعجب بعد ذلك إذا رأيت حافظاً يصبغ بالشكوى والألّين جوانب
شعره فترى بؤسه فى الوصف والغزل كما تراه فى المديح والثناء . وها هو ذا يمدح
محمد بك بيرم فيقول له فى ثنايا القصيدة :

وقد أصبحت من تعبي وكدحى على الأرزاق كالثوب الرديم
وانه ليخيل اليك أن البؤس قد طغى على احساس حافظ وسيطر على عواطفه
حين تراه يستهل قصيدته فى عبد رأس السنة بهذا البيت :

لى فيك حين بدا سنالك وأشرقا أملٌ سألتُ الله أن يتحققا
وكانت لحافظ نفس قلقة نائرة مضطربة كما وصفها هو فى كتابه (البؤساء) لانكاد
تستقر على حال : فرة ترسب فى حضيض الألم راضية بقسمها : قاعة بنصيبها من
هذه الحياة الفانية، وهو يصور لك حالها إذ ذاك بقوله :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا وإن بات دون قوت النعام
ولئن خان قسمنا ما شكونا لسوى الله أعدل القسام
ومرة تطفو الى سماء الرفعة وتماسك مطوية على الألم موهمة الناس أنها أسعدهم
حالا . والبيتان الآتيان بصورتها لك فى هذه الصورة :

تماسكتُ حتى لو رأى الناس حالتي رأوا رجلاً هانت عليه مصائبه
وعلمتُ نفسي كظم غيظي فلم أبح بما فعلت بين الضلوع قواضيه
كما يمثلها في مطاردتها للباس واستهانتها بالصعاب قوله :
على أنني لا أركب الصعب مرةً ولا أكبر البأساء حين تغيرُ
وأحياناً يسأم الدنيا ومن عليها فيودعها ويناجي القبر والآخرة نجوى العاشق
المشتاق فيقول :

سلامٌ على الدنيا سلامٌ مودّعٍ رأى في ظلام القبر أنساً ومغنا
أضرتُ به الأولى فهم بأختها فان ساءت الأخرى فويلاه منها
فهبَّتْ رياح الموت نكباء واطفتي سراج حياتي قبل أن يتحطماً
ولعلك تسألني بعد ذلك : من أي شيء كان يشكو حافظ وما موضع آلامه
وأشجانه ؟ . . . وجوابنا عن ذلك أنه كان يشكو من شعبة النائم عن حقوقه الساكت
على آلامه ، يرى الخطر يهدده وأسباب الفناء تحوطه ، ثم يلهو ويلعب ويفخر بالماضين
وما خلفوه ، فيخطبه مرة بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت كما قال فيها (أبو الطيب)
أمورهم تمرُّ وعيشهم يمرُّ ونحن من اللهو في ملعب
وشعبهم يفرُّ من الصالحا ت فراراً السليم من الأجرب
ويعجب منهم ويكتمهم على جهلهم وتأخرهم مرة أخرى فيقول :

وقل للعاجزين أما لهذا الفخر من سبب ؟
أروني نصفاً مخترع أروني ربعاً محسوب
فهبوا من مرادكم فإن الوقت من ذهب

ويشكو كذلك من نفسه الكبيرة التي بين جنبيه

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام
فلا هي قادرة على إصلاح ما ترى ، ولا هي قادرة على احتماله ، ولا هي راضية
بالعجز بين هاتين الحالتين .

ألت نرى ذلك واضحا في قوله (يريد المصريين) :

ينامون تحت الظلم والأرض رجة لمن بات يأبى جانب الظلم جانبته
فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضى حيانى ولا أشقى بما أنا طالبه
وأخيراً يشكو من عنار حظه في وطنه وخيبة آماله في قومه وضياح أدبه بين
عشيرته وأخوانه فيقول مخاطباً مصر في نعمة البائس الحزين :

حطمتُ اليراعَ فلا تعجبي وعفتُ البيانَ فلا تعني
فما أنتِ يا مصر دارَ الأديب وما أنتِ بالبلد الطيب
فلا تعذلي هذا المكوث فقد ضاق بي منك ما ضاق بي
وهو لا يتردد في أن يصارحنا بأن هذا الأخير هو مصدر حزنه وسر شقائه فيقول :
"أنا لولا أن لي من أمتي خاذلاً ما بتُّ أشكو الثوبا
بيد أنه كان كثيراً ما يستكثر من نفسه هذه الشكوى ويستنكرها عليها ويبرأ
ويعتذر عما فرط منها، وفي ذلك يقول :

وما شرعتُ هذا اليراعَ أنا ملي بشكوى ولكنَّ اللجاجَ ينيرُ

أسباب بُؤس

يجدر بنا بعد كل ما أسلفناه أن نبين لك أسباب بُؤس حافظ وأن نتعرف سر
هذه الحسرة التي لازمته طوال حياته والتي طالما قال فيها :

حصرةٌ في النفس لو قسمت على ذوات الطوق لم تجمع
وكان لزاماً علينا أن نتتبع الظروف والأحوال التي انتجت بشاعراً هذه الناحية
وحولت عاطفته إلى هذا الظلم . ونحرم نرى أن بُؤس حافظ وإن كانت

جبرئومته الأولى قد وُلدت معه يوم ولد ، وصاحبته في نموه وتدرجه في طريق
الحياة ، نرى مع ذلك أن البيئة التي احتوته والوسط الذي عاش فيه يكونان الجانب
الأكبر من هذا البؤس الذي ترجع أسبابه إلى أربع جهات :

(١) نشأته الأولى بين احضان المتربة والفاقة ومخادنة العناء والشقاء له وهو صبي في

وددت لو طرحوأبى يوم جثتهم فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
ورجل طلع الى المجد كحافظ حرى به ان يحزن ويكتئب اذا رأى نفسه بين قوم
يقومون الناس بما يملكون ولا يعرفون المجد سلباً سوى المال ، وألقى نفسه مع
ذلك مفتقدا لهذا العلم . وليس لهذا السبب أثر بين فى شعره اللهم الا ما كان إيماء او
تلميحاً كما فى قوله :

فأنا مطلق كالفكر أسرى فأستبق الضواحك فى الغيوم
ولكنى مقبدة رحلى بقيد العدم فى وادى الهوم
بما يدلنا على ان الامر لو اقتصر عليه وحده لكان فى ذكاء حافظ وعبقريته
ما يححو أثره من صفحة حياته . وكـ من معدمين فى طفولتهم بسم لهم الدهر بعد
فكانوا من أسعد الناس حظاً وأرفعهم مكاناً .

(٢) خذلان قومه له وكساد شعره بينهم وعدم احساسهم به وتقديرهم له
ولإنتاجه ، والشاعر كازهرة يحبيه التشجيع والثناء وبمبته الإهمال والازراء .
وأى إهمال أشق على النفس من أن يمرض فلا يعاد وينأى عن العيون فلا تشعر
بنايه ، وفى ذلك يقول :

مرضنا فما عادنا عائد ولا قيل أين الفتى الألمى ؟
ولا حن طرس الى كاتب ولا خفف لفظ على مسمى
سكتنا فعر علينا السكو ت وهان الكلام على المدعى
ولكم كان قاسياً على نفس حافظ أن يعيش فى بلد لا يعرف الفضل لذويه ، ولطالما
خاطب مصر بهذا البيت من شعره :

ليت مصرأ كغيرها تعرف الفضل لئذى الفضل من ذوى الالباب
ولقد تسمع قوله فى رثاء الأستاذ الامام :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلى وأرغم حسادى وغم معداقى
فتعلم أنه رغم يؤسه ووحشته كان كثير الحساد والأعداء — ولهذا كان دائماً
متبرماً بالحياة ساخطاً على أهلها ، وكلما فطر إلى أدبه الرائع الذى وأدوه بينهم بجهلهم
وإهمالهم ازداد حسرة وألماً وردد هذا البيت المشهور من شعره :

فلولا أنهم وأدوا يسأى بلغت بك المُنَى وشفيت ما بى
وكان كلما لمع له فى سماء الامل بارق وقامت تنتمش على ضوئه نفسه العالية المزدهجة
بالآمال والآلام ، وقفت المقادير بينه وبين ما يريد ، وجذبه عتار الحظ ونكد الطالع
فأقصاه عن آماله ، وفى ذلك يقول :

لكننى غير محدود وما فتئت يدُ المقادير تقصينى عن الأرب
وقد غدوتُ وآمالى مطرحةٌ وفى أمورى ما للضبِّ فى الذنب

(٣) غربته فى السودان وبعده عن أهله وأصحابه بمصر وإرغامه وهو الأبن
على العيش فى ارض نائية يشتكى من حرها وعذابها ما يشتكىه من معاشريه ومن
رؤسائه وعتهم وعدم تقديرهم لمواهبه . ولعل أوضح صورة لما كان يعانيه شاعرنا فى
غربته هى التى اشتملت عليها هذه الأبيات الثلاثة:

نزحتُ عن الديار أروم رزقى وأضربُ فى المهامه والنخوم
وما غادرتُ فى السودان قفراً ولم أصبغ بتربته أذنبى
وها أنا بين أنياب المنايا وتحت برائن الخطب الجسيم

يبد أن هذه المرحلة من عمره كما قدمنا فى غير هذا الموضع هى أخصب حياته
بهذا النوع من الشعر ، ولا عجب فإن له فى هذا الباب رسائل خالدة وقصائد
رائعة جرت مع النيل الى مصر تحمل الى أصدقائه وأخلائه بها ما يعانيه صاحبهم فى
هذا البلد النازح من الأُمى والعذاب.

(٤) إخفاقه فى الوصول الى الخديوى ، وما كان لنفس مهما منعها الله من الصبر
أن تحتمل أكثر من عشرين عاماً ترسل فيها المدحة تلو المدحة ولا تدع فرصة تمر
دون أن تتقدم اليه فيها بمنظومة بديعة . ولا تزال هذه القصائد الغراء حلية
ديوانه الى اليوم .

ومع ذلك فانه لم ينل من نقس عباس أكثر مما ينال الحديث من نفس سامعه .
وبينما كان شوقى يتسابق الذهب والفضة فى المثول بين يديه ، ويعيش بشعره
بين عطف المليك وعنايته ، ويتقلب بفضل بين احضان الترف والنعيم ، كان حافظ
يصطلى بنار العدم والمسغبة مع ضعف البون ما بين الشاعرين .
واذا كان شوقى يقول فى عيد مولاه :

مولائى عيدك عبيد الناس كلهم وأنت جامعة الاجناس والملل
ان الملوك على الكرسيّ مربعا وانت تجلس فى الاسماع والمقل
ثما فصرّ شاعرنا يوم قال فى نفس العيد :

طُفُّ بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن دان
يا عيد ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولانى
صفتُ القريض ثما غادرت لؤلؤة فى تاج كسرى ولا فى عقد بوران
وفىها يقول :

اليوم أنشدتم شعراً يعيد لهم عهد النواصي أو أيام حسان
أزف، فيه الى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
أعليت بالعدل مُلكاً أنت حارسه فأصبحت أرضه تُشرى بميزان
جرى بها الخصب حتى أنبت ذهباً فليت لى فى ثراها (نصف فدان) !

وما أجل هذا البيت وما أخف دطابته على النفس لولا ما فيه من إجماء خفى الى
فقر الشاعر وحرمانه .

بل ما نظن شوقى قد استطاع مهما أجاد فى مدح مولاه ان يزيد على ما قاله
حافظ فى تهنئته بالحبيج :

مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى يفيض جلالُ الملك والدين منهما
ولو أننى خُبرت لاخترت أن أرى لعبك وحدى حادياً مترنماً
حللت بأكناف الجزيرة طابراً فأنصرت وادبها وكننت لها سما
وأشرقت فى بطحاء مكة زائراً فبات عليك النيلُ يحسد زمزما

وكانت تلجُ هذه المدائح التى فنى فيها صاحبها أذن الخديوى ونخرج من الثانية
من غير أن تصل إلى فؤاده !

لهذا كان طبيعياً أن يزداد ألم حافظ وبؤسه، وأن يداخله من الهموم والحسرات
ما يداخل صاحب السلعة الجيدة إذا صدف عنها الراغبون .

ونحيل الى أن حافظاً مع ما كان متمتعاً به من عطف كثير من عظماء مصر كالرحوم

حشمت باشا والامتاذ الإمام فانه كان ينظر الى المليك بعين خاصة وبرى أن رضاه منتهى الآمال وفي عطفه وولائه تمام السعادة — فكان يحاول الوصول اليه عن طريق شعره ، ويطرد اليأس عن نفسه ، معتقداً بأنه لا بد واصل الى ما يريد مادام له فم ناطق ولمدوحيه أذن سامعة . وكان حينئذ يفخر بمدائحهم ويدعي أنه أتى فيها بما يعجز عن الاتيان به سواه فيقول :

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدفي ساحت في لفظ ووزان
عابوا سكوتي ، ولولاه لما نطقوا ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
واليوم أنشدتم شعراً يعبد لهم عهد النواصي أو أيام حسان
ويقول في موضع آخر :

ولوشئت أذهلت النجوم عن الثرى وعطيت أفلاكاً بهن تدور
وأشعلت جلد الليل منى بزفرة غراميق منها الشرار يطير
وأحياناً يعترف بالسبق لشوقي في مدح مولاه ويقر له بالفضل والابداع فيقول :
لم أخش من أحد في الشعر يسبقني الا فتى ما له في سبق الاله
ذاك الذي حكمت فينا يراعته وأكرم الله والعباس مشواه

وكانى به وقد ثبت في روعه أن شوقي قد احتل بشعره من نفس سيده مكاناً لا يسمح لشاعر آخر أن ينازعه فيه ، فطفق يستندى رضاه ويختلس عطفه بابهامه أن مدائحه كدائح صاحبه في لفظها ومعناها ليستلفت نظره ويستريح انتباهه ، وفي ذلك يقول :

الى سدة العباس وجهت مدحتي بتهنئة شوقية النسيج معطار
كما يقول في موضع آخر :

معانٍ والفاظ كما شاء أحمد طوت جزل بشار ورقة مهباز
وكثيراً ما كان يغلب عليه اليأس ويعترف بمعجزه عن مدائحه شوقي كما يعترف بأنه أقل من أن يصل بشعره الى الخديوي فيقول :

لم يُبق أحمد من قول أحاوله في مدح ذاتك فأعذرنى ولا تعب
فلست ممن سمع بالشعر همته الى الملوك ، ولا ذلك الفتى العربي

وينتقل شعره الى مدح (ادوارد) و (فيكتوريا) و (هوجو) و (عبد الحميد) .
 طرق حافظ في سبيل غايته كل هذه السبل على ما رأيت وعاد منها كلها خائباً
 خوفاً وجهه ناحية اخرى وابنداً بمدح شوقي نفسه ويطرى شعره علّه يذكره يوماً
 بخير عند مولاه ، ولم كان في هذه الامنية واحماً . واستمع اليه حين يقول في
 تهنئة الخديوى :

شوقى نسبت فما ملكتُ مدامعى	من أن يسيل بها النسيبُ الشيق
أعجزت أطواق البيان بمدحه	سجد البيان لربها والمنطق
لم تتركاً ^(١) لى فى المدائح فضلة	يجرى بها فلى الضعيف ويلحق
نفسى على شوقٍ لمدح أميرها	وبراعى بين الأنامل أشوق
ماذا أقول وانما فى مدحه	بحران بات كلاهما يتدفق ؟
العجز أقعدنى وان عزائى	لولا كما فوق السماء تحلق ا

وهل تظن ان شوقى قد مدح فى حياته أو أبين فى مماته بأجل من هذه الأبيات
 التالية التى كل بها حافظ جبينه والتى تلمس فيها الحب والإخلاص والاعتراف
 بفضل ؟ والبك هذه الأبيات التى نسيل رقة وعذوبة :

يا شاعرَ الشرق اتشد	ماذا تحاول بعد ذاك
هذى النجوم نظمتها	دررَ القريض وما كفاك
والبدر قد علمته	أدبَ المثول اذا رآك
وسموت فى أفق الشعو	ر فكدت تعثر بالسماك
وحباك عباسُ المحا	مدى بالمواهب واصطفاك

وقل أن نجد مدحة خديوية له قد خلت من ذكر شوقى إما مادحاً له أو متوسلاً
 به عند مولاه — أفنئ أخفق حافظاً فى مسعاه بعد هذا اللأى المتواصل ، وخاب
 فآله بعد ذلك الصبر الجميل ، أفلا يصح أن يكون هذا الإخفاق وهاته الخيبة عاملين

قويين من عوامل بؤسه ؟ أعتقد أن بعض هذا كان كافياً للقضاء على نفسه لولا أنها جبارة فسيحة الآمال .

حسانت هذا البؤس وسبباته

وإخال أن أول ما يواجهني به القارئ لو لم أُنَجِّحْ هذا العنوان بما يوضحه ويبين رأيي فيه هو السؤال الآتي : وهل للبؤس من حسنات ؟

وأنا أرى وأحب أن يشاركني القراء فيما أرى أن حافظاً كله ثمرة من ثمار البؤس ويداً من أياديه الطيبة يقدرها له الأدب والمتأدبون . ولو تمثل البؤس للناس رجلاً لكان شاعرنا آخر أبنائه وأقربهم شياً به . والذين يتصدون مثلي لدراسة حافظ يرون أن شعره — وإن شئت فقل انتاجه عامّة — يسير مع بؤسه جنباً إلى جنب ويتدرج معه في الوجود قوةً وضعفاً ويتبعه في الحياة وجوداً وعمداً ، ويرون أنه بين يدي بؤسه كالقيارة الطيبة بين يدي العازف كلما قسا على أوتارها المشدودة علازقيتها وارتفع أنينها .

أست تراه وهو ضابط بالمدرسة الحربية في مصر موفور العيش بين أهله وصحبه خافت الصوت لا نسمع به إلا في المناسبات — فإذا ما ذهب إلى السودان وحلّ به من العناء والعذاب ما علمت حرّكت أنامل البؤس هذه القيارة فأنّ أنيناً عالياً سمعناه في مصر حرك عواطفنا وأيقظ من آلامنا وأشجاننا ما كان منسياً ؟ ولولا ضئنا بحياة الشاعر وحدبنا على شخصه وإشفاقنا عليه من عبء لم يتعود حمله لأبقيناه في السودان كذباله المصباح تضيء للناس وهي تحترق !

ولو سارت حياته ونظرت إليه بعد ذلك وقد عاد من السودان واستقال من عمله وقبّع في كسريته لا تصل يده إلى قوته إلا بعد لأي وعناء لرأيت كيف أوجد البؤس أمامه أكثر من باب ، وعلمه الاحتيايل بطزقها ، والتدرع بالصبر والنبات وعدم اليأس مادام شاعراً ، والشعر مفتاح القلوب . وكان حيناً يمدح العظماء ويرثي موتاهم ، وأحياناً يغشى المجالس والأندية بشعره في مختلف الشؤون حتى يبلغ رسالته ويشعر الناس به ، لعلمهم يخرجونه من ظلمات البؤس إلى نور السعادة والهناء .

وبعد ادر الشغايته المادية أمسك هذا البلبل الصداح عن التفريد وافتقدت الآذان

صوته عندما وُظف بدارالكتب في العهد الأخير براتب لم يكن في حساباته يوماً ما ، ومكث أكثر من سبع سنوات دقيناً في منصبه لا يحس بوجوده الا من اتصل به ا وما إن خرج من الدار محالاً الى المعاش حتى انطلق كما ينطلق العصفور السجين وعاود الغناء والتغريد ، فأسمعنا في السياسة ونقد الانجليز مقطوعات جريئة لا عيب فيها سوى أنها كانت قصيرة العمر تحمل معها نذر فنائها ، لهذا كله لا نرى بدعاً ولا حرجاً في أن نقول - ولحق ما نقول - أن حافظاً لو لم يكن بالأسا لما كان شاعراً ، وانه مدين الى البؤس بهذه الشهرة الواسعة ، ولولاه لما تسنى له أن يتقدم الى الأدب بهذه الصورة الباكية التي تذيب الافئدة وتستدر عصى الدموع .

وقد قدمنا لك آنفاً أنه لم يدع سبيلاً يظن أنه يوصله الى الخديوى الا سلكه وكان يحقق . وكان في كل مرة يخفق فيها تفتح أمامه أبواب المعاني ويكده فكره في اختراع ألفاظ وطرق جديدة في التعبير فيتنوع بذلك اسلوبه وترقى أخيلته وتتجدد معانيه ، وفي ذلك كله نمو في فكره وأثر في أدبه لا يقل عن أثر تقليده لشوقي في مدح الدولة العثمانية وإطراء الخلافة يوم كانت ثم رثائها حين دالت ، وترسم خطاه فيما كان ينظم فيه من أغراض . ولم يعرف عنه أنه اقتدى بشوقي في غير هذه الناحية ، ولعله كان يعتقد أنها هي الطريق الذي ركبه شوقي الى مجده والسلم الذي صعد عليه .

أما سياآت هذا البؤس : فحسبك منها انها خلقت من حافظ شاعراً قائماً متواضعاً مستهيناً بنفسه وبمكائنه بين قومه ، وما كان من آثار ذلك ما زاه في شعره من خضوع واحساس بالضعفة ، ولولا هذا لما استباح لنفسه أن يقول :

ولست ممن ممت بالشعر همته الى الملوك ولا ذالا للفتى العربي

وكان من نتائج هذا البؤس الذي يلازمه ما زاه من اسرافه في مدح زميل له ككشوق ، فقد أغرق في ذلك وأنى بما يعاب . ونحن اذا ناسخنا معه وقبلنا منه قوله في استقباله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاد قبل أوانه

مع ما بينهما من قرب المسافة وضعف البون كما أسلفنا ، فما كنا لتقبل منه بحال أن يرضى بالدون أو نستبيخ منه أن يصف نفسه بالضعفة والصغار ويسجل عليها

العجز والتقصير فيقول في رثاء (نولستوى) من قصيدة إن لم تكن أحسن من شوقية صاحبه فما هي بأقل منها :

رثاءك أمير الشعر في الشرق وانبرى لمحكك من كتاب مصر كبير
ولست أبالي حين أرثيك بعده إذا قيل عني قد رثاه صغير
بل انى لأستنكر على رجل كهافظ يقول له الشاعر الكبير أحمد محرم :

أمير الشعر والشعراء سمعاً مقالة ذى محافظة صدوق
لأنت المرء يشأى طالبه فليس طلاب شأوك غير موقا
ثم يأتي هو بعد أعوام من ذلك التاريخ وقبل أن تُنسى تلك المدحة العظيمة فيقول لشوقي في مهرجانه :

أمير القوافي قد أتيت مبياً وهذى وفود الشرق قد بايعت معي
ولا خلافة هناك ولا ملك ولا بيعه ا وكانت لذلك نتيجة عكسية من جانب شوقي،
فقد أهمل صاحبه ونسى وجوده ولم يعترف له بموهبة ولا فضل ، وهكذا كان شوقي
يحترم من يخافه ويتجاهل من يأمنه ولو كان أفضل الناس جميعاً .

وثمة أثر كان اسوأ لهذا البؤس ونتيجة بغض لا تقل عن سابقته وتلك هي اتخاذ
الشعر وسيلة للاستجداء واعتباره سلباً لغايات النفس وشهواتها ، وهذا لعمري خطر
دائم على الشعر والشعراء ، يحيط من أقدارهم ويسوي بينهم وبين المتسولين الذين
يسألون الناس في الطرقات الخافاً — وواجب على الكتاب والشعراء في كل زمان
ومكان ان يستهجنوا هذا النوع المهين من الشعر ويطاردوا قائله — وكان ذلك
على ما فيه من ضعة ومهانة شائعاً في شعر حافظ يحنتم به مدائحهم ويذيل به رسائله إن
نظماً وإن نثراً .

وأكبر ظني انه لولا البؤس الذي أقض مضجعه وطفى على احساسه لما رضى
أن ينسب إليه مثل هذا المعجز الوضيع :

« أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال »

ولما غفرنا له بأي حال قوله لمدوحه في قصيدة هي تهنئة بعمرس :

وكنْ لعلِّي بهجة العرسِ انه
ولا تنس من أمتى يقلب طرفه
بمرك في الافراح تمت مزاياه
فلم تر الا انت في الناس عيناه

وانت ترى ان البينين مع ما فيهما من تناقض واختلاف فقد شوّه الثاني منهما جمال الأول ومسح بهجته ورواه . وكان من سيئات هذا البؤس كذلك أن اتخذ شعر حافظ هذه الناحية الهادئة المتواضعة واصطبغ بهذا اللون القائم فجاء خالبا من حماسة البارودي وفخره ومن زهو شوقي وكبريائه .

ومن يدري كيف كان يؤول مستقبل حافظ لو أتيج له من بلهنية العيش وسعادة الحياة ما أتيج لصاحبه ولوحظ بذلك العناية التي لوحظ بها زميله .

ولقد كان حافظ يفتنى في بؤسه وبرى أنه من الغبن أن يشترك معه غيره فيه . لهذا آثر أن يحتمله وحده ، فلم يتخذ له صاحبة ولا ولدا ، ومات ولم يعقب سوى كتابين في النثر هما كما يقول عنهما خير ما أخرج للناس في هذا العصر ، ودبوانه المطبوع في ثلاثة أجزاء وهو حري بالدراسة والتحليل — يقول شوقي رحمه الله في تقييده :

لا تسألوا الأصداف عما أودعت
في هذه الأوراق كلَّ عجيب
تلك صفحة من تاريخ حافظ ، إن لم تكن قد استوعبت حياته فقد أضاعت
أظم ناحية فيها ، وكفى ما

طلبه محمد عبده

المرأة في شعر حافظ

لا تُعرف لأمة نهضة شاملة اذا حُرمت المرأة نصيبها من التأثير في المجتمع . ومقياس منزلة المرأة الاشارة بها واعلان فضلها وتقودها . وقد تكون تلك الاشارة وذلك الاعلان بصور شتى : كالدفاع عن حقوقها ، وكالتغني بما آثرها في بناء هيكل الأمة ، وكالتغزل بجمالها . فأين شعر حافظ من كل هذا ؟

لقد كان حافظ من مدرسة قاسم أمين المنتسبة الى بيئة الامام محمد عبده وهي

بيئة حرة مصلحة ، وحسبك من قاسم كتاباه عن « تحرير المرأة » و« المرأة الجديدة »
ولذلك جاء شعر حافظ من أصوات الإصلاح العالمة للمرأة في غير زعمه وإن كان
في اعتدال وتذبذب وحذر . أليس هو القائل مخاطباً قاسماً :

أَقاسمُ إنَّ القومَ ماتت قلوبُهُم ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبُهُ
إلى اليوم لم يُرفَعْ حجابُ ضلالهم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبُهُ ؟
فلو أنَّ شخصاً قام يدعو رجالهم لوَضَّعَ نقابَ لاستقامتْ رغائبُهُ
ولو خطرتْ في مصر حواءُ أمنا يلوح عيَّها لنا ونراقبُهُ
وفي يدها العذراءُ يسفر وجهُها تصافح منا من ترى وتخطبُهُ
وخلفهما مومى وعيسى وأحمدُ وجيشٌ من الأملاك ماجت كواكبُهُ
وقالوا لنا : رفعُ النقاب محللٌ لقلنا : نعم حقٌّ ، ولكن نجانبُهُ !

وفي هذه الأبيات من التهم اللاذع والسخرية بأنصار النقاب ما فيها . وقد
لبث هؤلاء السادة مشغوفين بحوارهم ونقاشهم الى أن تولت المرأة نفسها الفصل
بينهم ، فزعت أخيراً نقابها في غير تردد ، وفرغت من ذلك لتلتفت الى ما هو أهم —
الى التعليم الجامعي ، وإلى استرداد حقوقها في ادارة شؤون الوطن وفي اختيار
نواب الشعب ، ثم في الاشتراك في المستقبل بتمثيله البرلماني . وهذه الروح الطامحة
المتوثبة مدينة الى حافظ ابراهيم كما هي مدينة الى قاسم أمين .

ولحافظ في الأثومة وفي منزلة المرأة الاجتماعية من روائع الشعر ما يجب ان
تذكره بنات جنسى دائماً بالحمد والتقدير . أليس حافظ هو القائل :

من لي بتربية النساء فانها في الشرق علة ذلك الاخفاق
الأمُّ مدرسة اذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأمُّ روضٌ إنَّ تعهدهُ الحيا بالرى أورق أبنا ابراق
الأمُّ أستاذ الاساتذة الألى شغلت ما أثرهم مدى الاساق
ليست نساؤكمو حلى وجواهرأ خوف الضياع نصان في الاحقاق
ليست نساؤكمو أنافأ يفتنى في الدور بين مخاضع وطباق

ربوا البنات على الفضيلة إنها في الموقفين هن خير وثاق
وعليكم أن تسنين نساؤكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي

فهذه الأبيات نغمة مصلح حكيم ، ولكنه يصيح في بيئة متأخرة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة الأ في حقوقها الأولية . وما أظن أن الحرب أفضحت أفق حافظ ، ولو كانت فعلت لسكافح عن المرأة المصرية كفافاً أعظم ولحاول أن يبلها من الحقوق ما نالته أختها الغربية وفي مقدمتها حق الانتخاب ، لأن المرأة المصرية الفلاحة كانت وما زالت أحصاف وأبعد نظراً من الرجل الفلاح ، وهي المدبرة الحقيقية للأسرة المصرية ، فهي أولى منه باستعمال الحق الانتخابي . ولم يكن حافظ لبفونه شيء خاص بالمرأة فيجّل حركتها السياسية إبان الثورة في نونيته المشهورة .

أما شعر حافظ الفني في المرأة فلا وجود له كأنما هو لم يعشق في حياته ، ومعنى هذا حرمان الأدب العربي كنزاً ثميناً من عواطف حافظ المقبورة . وقد قرأت له شيئاً من الشعر الغزلي بعضه موجه إلى المفرد المؤنث ومعظمه إلى المفرد الذكر ، وكله فيما أعتقد من الغزلي الصناعي الميت .

وأين هذا مما نشرته (أبولو) لناحي وأبي الوفا والصيرفي والسباني ولائهم من شعراء العاطفة ؟ وقد اعتاد بعض الشعراء مخاطبة المرأة بضمير المذكر توجيهاً بالخطاب إلى « المحبوب » المتسامي عن كل صفة ، ومن الجائز أن يُحتج على بأن غزل المذكر في شعر حافظ هو غزل طبيعي في المرأة ، وقد تفرّست فيه تكراراً فلم الملح ذلك فيه ، وأنما كانت الصناعة نطل من كل بيت من أبياته في حين أن أبيات ناجي التالية المذكورة الضمير نغامة عن العاطفة الجياشة الموجهة إلى المرأة ، وهي في قصيدته « المنفى » :

متى يرقّ الحظّ يا قاسي	ويلتقي المنفى والناسي ؟
متى ؟ أ وهل من جبلة في متى	وفي خيالات وأحداس ؟
كهدّ قراري جرّتها في دمي	وهمّتها في كركر أنفاسي ؟
وأنت مثل النجم في المنتأى	وفي السّنا المحاطف كالناس
يرنو له الناس ويبغونه	وما يُبالي النجم بالناس ؟

وانتَ كاسُ الحُسنِ لَكُنَّا مثلُ حَبَابِ حَامٍ بالكاسِ
 طفا ا وقد قَبِلَ أنوارَها ورفاً مثل الطائرِ الحامِ
 وذاب أو جفَّ على نورها كما يذوب الطلُّ بالآسِ ا

وأمّا أبوشادي في أغانيه ودواوينه فوَكَّلَ بعبادة المرأة ، ومثله رامي في غزلياته (ولا أقول في أدواره العامية فهي ليست موضوع بحث) ، فكيف لم تؤثر المرأة في شخصية حافظ هذا التأثير ؟ ولماذا لم تؤثر كذلك في نفسية شوقي ؟ هذه خسارة فنية لاشك فيها ، ولكن مهما يكن من شيء فالمرأةُ مدينة الى شعر حافظ بجميلٍ عظيمٍ .

نزيب سليم



تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٣٣	١١	قال هذا	قال هذا له
١٠٣٣	١٢	وُفِّقَ للأرض	بَثَّ في الأرض
١١٣٧	٥	ظلَّ	ضلَّ
١١٩٥	٢١	والانتباهاً	والانتباه
١٢٠٠	١٥	قاصرة	مقصورة
١٢٠٠	٢٩	القارى	القارىء
١٢٠٢	١٠	الثانى	الثانية
١٢٠٣	١٢	يفبد	يفسد
١٢٦٠	٨	النظ	النظر
١٢٦١	٢١	تأثير	تأثير
١٢٦٣	١٨	تأثيره	تأثيره
١٢٧٥	٣	قدَّ	مدَّ
١٣٠٥	٣	تلتظى	تلتظى
١٣٣١	١٥	ونزى	ونزى
١٣٧٢	٢١	ايران	ابرايى
١٣٨٧	٤	عدائى	عدائى
١٤٠١	١٦	العزى	العزى
١٤٠٢	٧	يانفسى	يانفسى

